مؤلف رواية "علي ونينو"

رواية

قربان سعيد

فتاة من القرن الذهبي

ترجمة: محمد عثمان خليفة

يبدع قربان سعيد رائعته هذه في أجواء عشرينيات القرن الماضي، عن الحنين والمنفى، والعشق والهجران، والرغبة والإنكار، متلمساً ذلك التباين الطاغي بين ثقافة تركيا المحافظة في حقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية وطموحات برلين المتنامية في ذاك الزمان، ومستكشفاً الصدام الحتمي بين قيم كلتا الثقافتين، وما يستتبع ذلك من تحفز وتربص لا تخلو منه العلاقة بين المسلمين والمسيحيين .. إنها حكاية فتاة تقف حائرة بين عالمين.

فرّت زاد الأنباري مع والدها من تركيا المتهالكة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وقد كانا من العائلات النبيلة المقربة إلى بلاط السلطان، أملاً في بدء حياة جديدة في مدينة برلين؛ حيث وقعت الفتاة المسلمة ذات التسعة عشر ربيعًا في هوى العالم الغربي، وهي التي كانت مخطوبة إلى أمير تركي، ووجدت نفسها تقع في غرام طبيب من النمسا، وتتزوجه برغم إلحاده؛ ولما شاءت الأقدار أن يعود ذاك الأمير التركي للظهور في عالمها، وجدت زاد نفسها حائرة بين التمسك بزيجة عقدتها بكل الحب والإخلاص، والخضوع لوعد قطعته على نفسها منذ زمن.

هذه هي الترجمة الأولى في العربية للرواية الرائعة التي أبدعها قربان سعيد عام ١٩٣٨، لتكون روايته الثانية بعد روايته الشهيرة "علي ونينو"، بأسلوب فذّ متفرد أبقى جمالها وسحرها الأدبي حاضرًا بقوة، وقادرًا بكل حذق وتمكّن أن يأسر لُبَّ القارئ حتى زمننا هذا.

قربان سعيد هو أحد ثلاثة أسماء تسمّى بها ليف نوسيمباوم، وهو صحفي وأديب يهودي الأصل، ولد في أذربيجان عام ١٩٠٥، لأب ثري من يهود جورجيا، وخرجا من أذربيجان بعد استيلاء السوفييت عليها في رحلة طويلة إلى أوروبا عبر تركيا العثمانية، حتى استقر بهما المقام في برلين، وهناك أعلن ليف إسلامه في سفارة الدولة العثمانية وتسمى باسم أسعد بيك نوسيمباوم، وبالألمانية أصدر أسعد بيك بعد إسلامه عددًا من الكتب وروايتين نشرهما باسم قربان سعيد هذه إحداهما، وتوفي عام ١٩٤٢ في إيطاليا.

"رواية فريدة في أسلوبها الأدبي عن قصة حب تكابد لتحيا في ظل فوارق ثقافية واجتماعية كبيرة بين عالمين مختلفين في مطلع القرن العشرين، يبرع الكاتب في رسم ملامح شخصياته، وفي سرد مشاعر الحنين إلى الماضي والوطن، بأسلوب لا يخلو من شاعرية نادرة. إنها رواية كل مشتاق إلى وطنه" – Times Literary Supplement

"جميلة ممتعة، ولا تخلو من تشويق وإثارة برغم أنها من الكلاسيكيات، وكذلك تستمتع بكثير من المناقشات الفلسفية حول تلك الهوة بين الشرق والغرب في ذلك العصر، والتي لم تلتئم تماماً حتى بعد مرور قرابة قرن كامل على زمن الرواية" – The New York Times

الثمن: ٩ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-977-6459-21-2
9 789776 459212

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

فتاة من القرن الذهبي

(رواية)

فتاة من القرن الذهبي

(رواية)

قربان سعيد

نقلها إلى العربية

محمد عثمان

مراجعة

د. نشوى ماهر كرم الله

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية:

Das Mädchen vom goldenen Horn

by: Kurban Said

نقلتها إلى الإنكليزية: **Jenia Graman**

نقلها إلى العربية: **محمد عثمان خليفة**

مراجعة: **د. نشوى ماهر كرم الله**

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة

الطبعة الأولى لمدارات للأبحاث والنشر: يناير ٢٠١٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/٢٦٢٢٠

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-21-2

مدارات للأبحاث والنشر

٥ شارع ابن سندر ـ الزيتون ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ ـ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ ـ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

info@madarat-rp.com

(الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر ـ بالضرورة ـ عن رأي الناشر)

الفصل الأول

«وحرف i هذا، سيدة (أنباري)؟»

رفعت (زاد) رأسها نحوه، ونظرت إليه بعينين رماديتين مستغرقتين في تفكير عميق جاد. كررت سؤاله بصوت ناعم رقيق:

ـ حرف i هذا؟

فكرت للحظات قبل أن تقول له بحسم:

ـ حرف i هذا هو اسم مصدر «ياقوت»، على نحو مماثل للباريتسي القرقيزي.

حك البروفيسور (بانج) أنفه المعقوف الطويل. عيناه من خلال النظارة ذات الإطار الحديدي أشبه بعيني بومة حكيمة. وأنفاسه ذات صفير ناعم، وهو يفكر في عدم إقتناع.

ـ صحيح. ولكنني لا زلت لا أفهم سبب عدم وجود الحرف a في صيغة «ياقوت».

انشغل يقلب صفحات القاموس وعلى وجهه مسحة حزن.

اقترح (جويتز)، وهو طالب آخر من طلابه، تخصص في اللغة الصينية، تفسيراً لصيغة a الغامضة قائلاً بأنها أداة عتيقة في اللغة المنغولية. فقال البروفيسور (بانج) بصرامة:

ـ أنا أيضاً حاولت وقت أن كنت شاباً تفسير كل شيء بكونه أداة منغولية عتيقة عفا عليها الزمن. فالشجاعة سمة الشباب.

يبلغ (بانج) من العمر ستين عاماً، أمضى منها خمسة وأربعين في دراسة اللغة الصينية. شعرت (زاد) بغتةً بألم مزعج حاد في حلقها. تلك الأجواء الرطبة للكتب العتيقة مصفرة الأوراق، والتهاويل المضنية للأحرف المنشورية والمنغولية، والأشكال البربرية للغات الميتة ـ شعرت أن كل هذا يخادعها، ويعاديها، ويخدر حواسها. لذلك تنفست الصعداء لما دق الجرس. أما (بانج) فأشعل غليونه، في إشارة منه إلى إنتهاء زمن هذه الحصة من مادة اللغات التركية المقارنة. داعبت أصابعه الهزيلة الطويلة الصفحات العتيقة لكتاب قواعد اللغة *Uigur Grammar*، وهو يقول بنبرة جافة:

ـ في الحصة القادمة سنناقش بنية فعل النفي، باستخدام التراتيل الماشينية.

بدت كلماته مزيجاً من الترغيب والترهيب. قناعته كانت أن وفاة (تومسن الكبير) في كوبنهاجن حملت معها وفاة علم الفيلولوجيا، بالنسبة له على الأقل. فشباب اليوم لا يفهم أي شيء ويفسر كل شيء بكونه قد تحجر ومات.

انحنى له طلبته الأربعة في صمت. وتوجهت (زاد) نحو

درج السلم العريض المفضي إلى حيث سمينار اللغات الشرقية. وانفتحت أبواب قاعات أخرى، ومن إحداها خرجت مجموعة ملتحية من دارسي المصريات، ومن أخرى ظهرت مجموعة من شباب مثاليين كرسوا حياتهم لأجل سبر أغوار الكتابة المسمارية الآشورية. وخلف الباب المغلق لقاعة محاضرات اللغة العربية تخافتت أصوات منتحبة تقرأ معلقة الغزال لِلُبيد، وعلا صوت المحاضر وهو يختتم الدرس: «هذا نموذج كلاسيكي للمودوس أبوكوباتوس».

هبطت (زاد) الدرج. تقبض يدها على حقيبتها الجلدية، وهي تدفع بمرفقها الباب الثقيل لتفتحه. وفي الخارج، كانت أوراق الخريف الحزينة تصنع لوحة امتزج فيها الأحمر بالبرتقالي فوق الأسفلت الرمادي لشارع (دوروثين) الضيق. عبرت الشارع بخطوات قصيرة متعجلة، ودلفت إلى الفناء الأمامي للجامعة. هل كانت الرياح هي التي أجبرت تلك الأشجار العجفاء الهزيلة على الانحناء، أم أنها وطأة الحكمة المتراكمة؟ تطلعت (زاد) إلى سماء (برلين) الغائمة، وإلى نوافذ قاعات المحاضرات المعتمة، والأحرف الذهبية في واجهة الجامعة... طلاب وطالبات كثر من عالم غريب عجيب يمرقون إلى جوارها: في كليات الطب، والقانون، والاقتصاد ـ يرتدون معاطف رمادية، ويحملون حقائب كبيرة.

تشير الساعة الكبيرة في ردهة الجامعة المكتظة المعتمة إلى العاشرة وثماني دقائق. وقفت (زاد) أمام لوحة الإعلانات وأخذت تطالع محتوياتها بشيء من الملل؛ إخطارات روتينية من الإدارة للطلبة، لم ترفع من مكانها منذ أن تم تعليقها في بداية

الفصل الدراسي، حتى أن لون الورق قد حال لونه، ليشبه تلك المطبوعات القديمة من القاهرة ولابور: «تم إلغاء محاضرة البروفيسور هاستينج عن التاريخ القوطي الإنجليزي». «تم العثور على كتاب كيمياء، يرجى التوجه إلى بيدل». «البروفيسور ساكس يعرض علاج طلبته مجاناً: يومياً من الساعة ٣ إلى ٥ في عيادة الأمراض الباطنية». أخرجت (زاد) من حقيبتها دفتراً صغيراً، وأسندته إلى ذراعها، وبدأت تكتب بأحرف منمقة صغيرة:

«عيادة الأنف والأذن والحنجرة، ٢ شارع لوسين، ٩ ـ ١».

أعادت الدفتر إلى الحقيبة، قبل أن تخرج من الفناء إلى جادة أونتر دن ليندن. رمقت تمثال فريدريش الأكبر المهيب، وتلك المعالم الكلاسيكية لكرونبرينسنباليه. وعلى البعد تنتصب بوابة براندنبورج ظاهرة من ثنايا شفق ذلك الصباح الخريفي.

انعطفت يميناً، لتعبر شارع لويس فرديناند، وأسرعت الخطى فوق الدرج الرخامي لمكتبة الدولة. كانت أمام المدخل إلى قاعة القراءة الكبيرة، وإلى يسارها ممرات طويلة تشتمل على الكاتالوجات، وإلى يمينها باب صغير يقود إلى قاعة القراءات الشرقية، التي يميزها ضيقها وطولها، وكونها تحتوي أغرب الدارسين أطواراً في برلين. دلفت (زاد) إلى المكان، وتوجهت إلى أحد الأرفف، والتقطت «معجم رادلوف المقارن»، قبل أن تجلس إلى إحدى الطاولات الممتدة، وتكتب: «إتمولوجية الكلمة Utsh. تصبح الكلمة Utsh، وفق قانون الصوتيات، بمعنى «نحن» في اللهجة الأباكية. وفي الكراجيكية نجد شكلان: utu و udu. أما في الصويانية فهي أيضاً udu... توقفت هنا. لم تكن قد صادفت كلمة «الصويانية» من قبل، ولم تكن تعرف زمان أو

مكان استخدام تلك اللغة القديمة، وتلك الأحرف التي تحاول الآن فك شفرتها. تشعر مع صوت هذه الكلمة وكأنها تسمع هدير تدفق مياه نهر كبير، وفي مخيلتها رأت أناساً غرباء ضيقي الأعين، مسلحين بالحراب، يصطادون سمك الحفش السمين ويلقون به فوق ضفاف النهر الذي صبغته الطحالب بلونها الأخضر. يرتدون الفراء، وتميزهم تلك الوجنات العريضة والبشرة السمراء الداكنة. يتصايحون بالكلمة وهم يصطادون السمك Utsh، بمنطوقها الصوياني عن أصلها التركي.

فتحت (زاد) حقيبتها،اخرجت مرآة صغيرة. وضعتها بين ظهري مجلدي المعجم، وتطلعت فيها خلسة وعلى استحياء. رأت فيها وجهاً بياضوياً شاحباً، وعينان رماديتان ذات أجفان طويلة كثيفة، وشفتانورديتان مزمومتان. لامست بسبابتها حاجبيها ومرت على بشرة وجهها الصافية، والتي اكتسبت حمرة خفيفة الآن. لا شيء في هذا الوجه يذكرها بالبدو ذوي الأعين الضيقة والوجنات العريضة على ضفاف ذاك النهر الذي لا اسم له. تنهدت (زاد). كانت تعيش في برلين العام ١٩٢٨، على بعد ألف عام من أسلافها الذين قدموا ذات زمن من صحاري «توران» لينتشروا فوق سهول الأناضول. وخلال تلك السنوات الألف، تلاشت تلك الأعين الضيقة والوجنات العريضة القاسية شيئاً فشيئاً. وخلال تلك السنوات الألف بزغت ممالك وبلدات، وحدثت الكثير من حركات الهجرة والتهجير. غزا أسلافها أراضٍ، وأسسوا إمبراطوريات ومدناً، وفقدوا أخرى غيرها. ولم يبق سوى وجه بيضاوي صغير، وعينان رماديتان محزونتان، وذكرى متداعية لإمبراطورية مفقودة، ومياه اسطنبول الحلوة،

ومنزل على ضفاف البسفور تميزه الساحات الرخامية والأعمدة المستدقة، وتلك الزخارف البيضاء فوق مداخله.

خجلت (زاد) مثل طفلة صغيرة، ونحت المرآة جانباً، وهي تنظر حولها في خشية. إلى الطاولة المجاورة تجلس دارسة لفقه اللغة، نظراتها جافة غاربة ووجنتاها غائرتان، وهي تعمل بجد على ترجمة «الطارق» لحق حميد. لمحت المرآة بين المجلدين، فاختلجت عيناها في اعتراض، ودونت على قصاصة ورق بلغة إنجليزية عتيقة: «هذا غير مقبول! ممنوع استخدام أدوات التجميل في القاعة»!. مررت قصاصة الورق إلى (زاد)، التي ردت على ظهر الورقة بنفس اللغة: «لم أستخدم أدوات التجميل». ثم أضافت باللغة العصرية: «أنا مريضة. تعالي إلى الخارج، وسوف أترجم «الطارق» لكِ».

نهضت وهي تضع المعجم جانباً، وتوجهت إلى ردهة المدخل. تبعتها دارسة فقه اللغة ذات الوجنتين الغائرتين. جلستا إلى دكتين رخاميتين باردتين، وقصيدة الطارق على ركبتيّ (زاد). تحررت من أبيات القصيدة مشاهد الصخور الإسبانية الرمادية، والقائد طارق وهو يعبر مضيق جبل طارق وسط حملة المصابيح ليلاً، ليضع قدمه على الأراضي الإسبانية، ويقسم على أن يغزوها كامل باسم الخليفة.

تنهدت الدارسة في إعياء. إنها تجد أن من الظلم لها أن يكون بمقدور أي طفل تركي أن يتحدث التركية بطلاقة، بينما هي ـ الطالبة المجتهدة - تكابد وتعاني وهي تدرسها لأجل أن تتقنها.

نحت (زاد) القصيدة جانباً. وقالت وهي تحدق في الصقر الأسود القابع فوق الأرضية الرخامية:

ـ أنا مريضة. معذرة، علي أن أذهب.

ودعتها، وسارعت الخطى إلى المدخل، فجأةً ومن دون أي سبب وبروح عالية. مشت عبر شارع فريدريش الصاخب، والحقيبة مستقرة في أمان تحت ذراعها. بالقرب من محطة شارع فريدريش وقف بائعو الصحف مثل جنود الحراسة. وهناك مطر خريفي خفيف يهطل على برلين. رفعت (زاد) ياقة معطفها الخفيف. مرقت سيارة إلى جوارها لتنثر إطاراتها بعض الغبار المبلل على جوربها. سارت بقدميها الصغيرتين في الضباب إلى جوار مسرح أدميرالز بالاست. وتوقفت (زاد) فوق الجسر تتأمل المياه البنية المخضرة الرتيبة لنهر سبري، ثم رفعت ناظريها إلى الهيكل الحديدي للمحطة، وقطار هادر يمر من خلالها. أمامها يمتد شارع فريدريش الواسع، لامعاً تحت مطر الخريف. يكمن جمال هذه البلدة في تلك الاستقامة الكلاسيكية لشوارعها العارية المبتلة. تنفست (زاد) بعمق الهواء الغريب من حولها، وهي تتأمل وجوه المارة الشاحبة. رسمت أمامها بخيالها الرومانسي صوراً لأرباب السفن حليقي الوجوه، والذين عادوا للتو من رحلات عجيبة إلى سواحل أفريقيا، ورأت في أعينهم الزرقاء القاسية الذكريات الحزينة لميادين القتال في فلاندرز، وفي صحاري روسيا الجليدية، وفوق الرمال العربية الساحرة. حتى وصلت إلى شارع لوسين الطويل. هناك تكتسب المنازل صبغة حمراء. ويقف عند الناصية رجل يرتدي قفازين سميكين ويبيع حبات أبو فروة. عيناه زرقاوان بشدة، وفكرت (زاد) أن تلك

العينين، الممتلئتين بقسوة خرافية، لم تكونا من قبل إلا لإثنين: الملك فريدريش والشاعر كلايست. في تلك اللحظة بصق بائع أبو فروة بصوت عال، فجزعت (زاد). ابتلعت ريقها، فأوجعها حلقها. إن الرجال أصناف وأصناف، كما أن الشاعر كلايست قد مات منذ أمد بعيد.

عادت تسير بخطوات سريعة ورأس محنية وكتفين نحيلتين مرتفعتين. وعلى يسارها ينتصب الجدار القرميدي الأحمر لمستشفى شاريتيه. لم تعد تشعر بالبرد. وصارت رائحة المطاط تفوح من معطف المطر الذي ترتديه.

Der Zug hält nicht an der Jannowitzbrucke، «لا يتوقف القطار في يانوفيتسبروك»، فكرت في أسى، فتلك هي أول جملة ألمانية تتعلمها، وتفكر فيها دوماً كلما شعرت بالحزن والوحدة وسط فخامة معمار برلين الحجري المهيب. كانت قد شعرت بتفاؤل لا سبب له وقت أن عرفت أن القطار لا يتوقف في محطة يانوفيتسبروك.

رفعت رأسها، وصعدت العتبات الثلاثة المؤدية إلى مدخل العيادة. سألتها ممرضة قوية البنية عن اسمها وناولتها بطاقة. وقفت (زاد) أمام مرآة، وخلعت قبعة صغيرة مستديرة، لينسدل شعرها الأشقر الناعم، الذي تبللت أطرافه، على كتفيها. مررت المشط خلاله، ونظرت إلى أظافرها، ووضعت البطاقة في جيبها، وتوجهت إلى داخل العيادة ذات الإضاءة الخافتة.

«هناك التهاب في طبلة الأذن»، قالها الدكتور (هسه)، وهو يلقي بالأداة في الوعاء. تطلع المريض في وجل إلى بطاقته وهو

يدلف إلى غرفة أشعة إكس. «أو قد يكون إمفيسما»، هكذا تمتم الطبيب، وهو يدون هذه الفكرة في سجل التاريخ المرضي للحالة. ثم راح ليغسل يديه. انشغل ذهنه بالتفكير في الحياة، وهز رأسه وهو يشعر بالأسف على حاله بينما تنساب قطرات الماء من يديه إلى الحوض. وقطب جبينه وهو يقول لنفسه: «إنني أحمل على عاتقي جعبة من المشكلات». إن ثلاث عمليات استئصال للغدانيات في صباح واحد لهو أمر يفوق الحد بالتأكيد. وكذلك عمليتا بزل ـ وخاصة أن العملية الثانية لم تكن ضرورية. فقد كان الغشاء الطبلاني سينفتح على كل حال. ولكن المريض كان متوتراً.

جفف الدكتور (هسه) يديه وهو يفكر في الورم الأنفي الصلب، الرينوسكليروما. تلك هي مشكلته. كان «العجوز» يرغب في عرضها على طلبته. ولكن الرينوسكليروما لم يكن يرغب في هذا العرض. كان كامناً في سيدة عجوز أصرت على ألا يكون جسدها موضوعاً للدراسة. ومن العار فعلاً أن يكون لكل مرض مريض مرتبط به. ولكن أساس غضبه هو مساعده، الذي سيكون من الأفضل له أن يتوجه إلى فيينا ليعمل محللاً نفسياً. فبوسعه هناك أن يضع مبضع استئصال زوائد الأغشية المخاطية ذا النهايات الطرفية فوق الطاولة الزجاجية. يرتطم في منتصف رأس العجوز المستدير. لم ينطق العجوز بأي شيء، غير أن وجهه احمرّ غضباً. وكان (هسه) مسؤولاً عن مساعده، بما في ذلك فكرته الغبية عن إجراءات النظافة الحديثة.

صاح فيه (هسه):

ـ قم بوضع النهايات الطرفية على الطاولة قُبيل أن

تستخدمها. واعرف أن من المحظور تماماً أن تلحق الضرر البدني بأي من المساعدين.

تناول منديلاً في غضب، ومسح به حول المطاط الإيبونيتي للعاكس. ولكنه عرف أن لا الرينوسكليروما ولا المساعد هما سبب مزاجه المتعكر. فلقد كان الطقس، الذي جعل من المستحيل عليه أن يقود سيارته إلى شتولبشينسه. وتلك الشقراء التي كانت هنا بالأمس، والأرجح أنها ستكون هنا اليوم أيضاً... وهذا كافٍ. الغلطة غلطة الطقس وشتولبشينسه، ولكنه غير غاضب بالتأكيد بسبب ما وصل إليه من أن (ماريون) قد أمضت الصيف كله مع (فريتز) في جبال تيروليان. فما علاقته هو بما تفعله (ماريون)؟ قال لنفسه: «وسيتم عرض الرينوسكليروما، سواء رغبت في ذلك أم لا ـ أليست هذه عيادة جامعية؟»

ارتسمت الجدية على محيا الدكتور (هسه) وهو يتوجه إلى غرفة الجراحة العامة الكبيرة. وهناك تصطف مقاعد الفحص بطول الجدار في صف يبدو أن لا نهاية له. وإلى جوار كل منها مصباح كهربائي، وطاولة أدوات، وبعض الأوعية. كان المرضى جالسين إلى المقاعد، وعلى وجوههم نظرات شاردة متوترة. وفي الركن الأيسر وضع الدكتور (موسيتزكي) مجموعة من المرايا خاصة بفحص الحلق، ومن عند المقعد الثالث على اليمين صاح الدكتور (مان): «أيتها الممرضة، احضري لي قمع أذن، من فضلك»!

فوق مقعد الفحص الخاص بالدكتور (هسه) جلست فتاة شقراء ذات عينين رماديتين غريبتين. كان ركنا العينين مسحوبين

بعض الشيء، ونظراتها تبدو وكأنها تتابع حلماً خيالياً جذاباً. جلس الدكتور (هسه) إلى المقعد المنخفض أمام الفتاة ونظر إليها في اهتمام. تبسمت الفتاة، وفجأة امتلأت عيناها الغريبتان بشاشةً وسرور. أشارت بإصبعها إلى العاكس الخاص بالدكتور (هسه)، والذي كان مقلوباً، وقالت بصوت أجنبي النبرة:

ـ تبدو مثل هالة نور مقدسة.

ضحك (هسه). الحياة فيها الجديد برغم كل شيء، ولا علاقة لما تفعله (ماريون) به بكل تأكيد. نظر في العينين المبهمتين، فخطر له خاطر سريع: «أتمنى أن يكون التهاب الأنف الحركي الوعائي، اسوموتور رينيتيس، وهذا سيحتاج إلى علاج طويل». طرد عنه ذلك الخاطر، واعتبره لا يليق بأخلاقيات المهنة، وقال لها وهو يشعر ببعض الذنب:

ـ ما اسمك؟

ـ زاد أنباري

ـ مهنتك؟

ـ طالبة

ـ أوه، أنتِ زميلة إذن. في كلية الطب؟

ـ كلا، فقه اللغة.

ثبت (هسه) العاكس.

ـ وما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ أوه، الحلق ملتهب.

بحثت يسراه تلقائياً عن المفصد.

ـ دراسة الألمانية؟

جاوبته الفتاة في حدة:

ـ كلا، بل دراسة التركية.

ـ أوه، وما ذلك؟

ـ الفيلولوجيا التركية المقارنة.

ـ وما الذي تتوقعي أن تحققيه من وراء ذلك بحق الرب؟

ـ لا شيء.

قالتها الفتاة في غضب، وهي تفتح فمها.

أثناء انهماك (هسه) في عمله ببطء وسلاسة ودقة، كانت أفكاره تمضي في مسارين؛ أحدهما مهني والآخر شخصي. فمن الناحية المهنية لاحظ: «نتائج الفحص بالرينوسكوب ـ داخلياً وخارجياً ـ لم تظهر أي شيء ذا بال. طبلة الأذن اليسرى ملتهبة بعض الشيء ولكنها غير حساسة للضغط. أي لا بدايات لالتهاب الأذن الوسطى. مجرد التهاب موضعي. يلزم فقدان الإحساس بالألم أثناء العلاج». أما من الناحية الشخصية ففكر: «لغات تركية مقارنة. هناك حقاً شيئاً كهذا، برغم العينين الرماديتين! (أنباري) ـ هذا هو اسمها. لقد سمعت هذا الاسم من قبل في مكان ما. لابد أن عمرها لم يتجاوز العشرين، وهذا الشعر الناعم».

عندئذ خلع العاكس عن رأسه، ورجع بالمقعد للوراء، وقال باللاتينية بنبرة عملية:

ـ التهاب اللوزتين. بدايات التهاب جريبي، أنجينا فوليكلاريس.

ضحكت الفتاة من العبارة اللاتينية:

ـ أي أنني مريضة.

تخلى الدكتور (هسه) عن مصطلحاته اللاتينية وهو يجيبها:

ـ أجل. وبالطبع تلزمك راحة في الفراش. وهذه وصفة غرغرة. لا تضعي كمادات، ولكن عليكِ أن تستقلي سيارة أجرة إلى المنزل. ووجبات خفيفة ـ ولكن، لماذا التركولوجيا بحق السماء؟

قالت له الفتاة في تواضع، وسعادة عينيها تنير وجهها:

ـ أنا مهتمة بهذا العلم. هناك الكثير من الكلمات الغريبة والرائعة، ولكل منها صوت أشبه بإيقاع على الطبلة.

ـ بل أنتِ محمومة. هذا هو إيقاع الطبلة الذي أسمعه. لقد سمعت اسمك من قبل. كان هناك حاكم للبوسنة إسمه (أنباري).

ـ أجل. هذا كان جدي.

نهضت عن المقعد، وتاهت يدها للحظات في رحابة يد الدكتور (هسه).

ـ زوريني مرة أخرى، عندما تتحسن حالتك... أقصد لاستشارة ما بعد العلاج.

نظرت (زاد) إليه. بشرة الطبيب سمراء، وشعره الأسود

مصفف للوراء، وكتفاه عريضتان للغاية. كان مختلفاً تماماً عن أرباب السفن أو عن أولئك الصيادين على ضفاف النهر الذي لا اسم له. أومأت له برأسها بحركة سريعة وهي تتوجه للخارج.

توقفت على مقربة من محطة شارع فريدريش وذهنها مشغول. لو أنها استقلت القطار بمقاعده الخشبية لوفرت بعض المال ولوصلت في وقت أسرع ـ ولا يفوق ذلك سرعة إلا المشي بالطبع ـ ولكن الطبيب نصحها بأن تستقل سيارة أجرة. عضت على شفتيها وهي تقرر ألا تبخل على نفسها. وتجاهلت المحطة وهي تمشي مرفوعة الرأس نحو أونتر دن ليندن. وهناك استقلت حافلة، وأسندت ظهرها في ارتياح إلى المقعد الجلدي الوثير الناعم، وهي تفكر في أن كلمة «أوتو»الألمانية تطلق على السيارة الخاصة وسيارة الأجرة على حد سواء، وأنها تستخدم أيضاً بقصد التصغير عند ذكر تلك الحافلات التي تجوب الشوارع في رشاقة.

«شارع أولاند»

قالتها للمحصل. . . وهي تناوله قطعة العملة.

الفصل الثاني

كانت الغرفة معتمة، فهي في الطابق الأرضي، وتطل نافذتاها على الساحة الضيقة التي بنيت العمارات السكنية من حولها. وحين تشرق الشمس، تنتهي أشعتها عند الطابق الثاني فحسب. وفي منتصف الغرفة، تنتصب طاولة يغطيها غطاء من المشمع، ومن حولها ثلاثة مقاعد. يتدلى من السقف سلك طويل ينتهي بمصباح عارٍ. وإلى جوار الجدران التي يغطيها ورق حائط متهالك يقبع فِراش وديوان، وعند جدار آخر خزانة ملابس، يغلق بابها إسفين مصنوع من ورق جريدة مطوي. إلى جوار ذلك علقت بعض صور فوتوغرافية متقادمة. يجلس (أحمد باشا الأنباري) إلى الطاولة، منهكاً عيناه في تتبع الأنماط المألوفة التي ارتسمت على ورق الحائط القديم.

ـ أنا مريضة

قالتها له (زاد) وهي تجلس. تطلع إليها (أحمد باشا) بعينيه الصغيرتين الداكنتين الملتاعتين. تثاءبت (زاد) وهي تمط ذراعيها النحيلتين. ونهض (أحمد باشا) وهو يعيد أغطية الفراش إلى وضعها. خلعت (زاد) عنها فستانها، وجلست إلى طرف

الفراش، وحكت له وهي تشعر بارتجافة وبعض ارتباك في ذهنها عن الكلمة التي درستها والتي تنتهي بالحرف a، وعن الغريب الذي فحص حلقها.

امتلأت عينا (أحمد باشا) رعباً وهو يسألها:

ـ كنتِ عند الطبيب ـ وحدك؟

ـ أجل، أبي.

ـ هل طلب منكِ خلع ملابسك؟

ـ كلا، أبي، بالطبع لا.

نبرة صوتها غير مبالية. أغلقت (زاد) عينيها؛ وهي تشعر بثقل شديد في أطرافها. سمعت خطوات (أحمد باشا) المتعثرة، وصوت خشخشة العملات المعدنية في جيبه. «شاي وليمون»، همس لها (أحمد باشا) من مكان ما وراء الباب. اختلجت أجفان (زاد). وبعينين تنعسان رمقت الصور المتقادمة على الجدار: (أحمد باشا) يرتدي الزي الرسمي المذهب، والطربوش البهي، وقفازين باللون الأبيض. أخذت (زاد) نفساً عميقاً تذكرت معه الغبار على جسر جلطة وعبق زمن استقر جافاً في ركن بغرفتها قرب البسفور.

سمعت على البعد همهمة رقيقة. (أحمد باشا) يجثو على السجادة المغبرة في غرفته في برلين، وجبهته تلامس الأرضية، يصلي في رقة، صلاةً غاب بها عن العالم.

شاهدت (زاد) قرص الشمس المستدير والجدار القديم للقسطنطينية عند بوابات اسطنبول. تسلق اليانيتشار حسن

الجدار، وفوق القلعة القديمة رفع راية العثمانيين. عضت (زاد) على شفتيها. كان ميخائيل باليولوجس يقاتل عند بوابات سان رومانوس، ويمتطي محمد الفاتح جواده يمرق به فوق الجثث متجهاً صوب آيا صوفيا، حيث ضغط براحته المخضبة بالدماء على العمود البيزنطي. رفعت (زاد) يدها وضغطت بها على فمه. كانت أنفاسها ساخنة رطبة، وصاحت بصوت محموم عالٍ:

ـ بوكسا

ـ ما بكِ، (زاد)؟

كان (أحمد باشا) مائلاً على فراشها.

ـ كاراجاسيان ديتيدياجاتيك بوجس... حلقي.

بدا القلق على (أحمد باشا) وفرش معطفه الفرو فوقها. ثم عاد يكمل صلاته، ورأت (زاد) في حلم يقظة مشوش الكتفان الضيقان للسلطان وقي الدين الذي يقود سيارته متجهاً لأداء صلاة الفجر ماراً على تشريفة الجنود. تبحر الزوارق الصغيرة في التاتلي سو، والصحف تتحدث عن الانتصارات في جبال القوقاز، وعن تقدم الألمان، والمستقبل المبهر الذي ينتظر الامبراطورية العثمانية. هناك من يجذب شعرها. فتحت عيناها فرأت (أحمد باشا) وبيده كوب. غرغرت سائلاً كريه المذاق، قبل أن تقول بجدية:

ـ الغرغرة فيها محاكاة صوتية، لابد من أن يقوم أحدهم ببحث المسألة كلها على أساس قانون الصوتيات.

عادت إلى وسادتها، ترقد على ظهرها، وعيناها مغلقتان،

ووجنتاها حمراوتان. رأت سهولاً، وصحاري، ورحالة، ونصف بدر فوق القصر المطل على البسفور. ثم عادت إلى الجدار وأخذت تبكي، بكاءً طويلاً مريراً. كتفاها النحيفتان ترتجفان، وبظهر يدها مسحت الدموع التي تنساب على وجهها. انتهى كل شيء يوم أن احتل جنرال أجنبي اسطنبول وطرد آل عثمان منها. في ذلك اليوم ألقى (أحمد باشا)، بحركة مهيبة، سيفه في أحد الأركان، وترك نفسه للبكاء في الرواق الشرقي الصغير. كل من في المنزل يعلم أنه يبكي، ووقفوا في صمت عند عتبة الرواق. عندئذ نادى والدها على (زاد)، التي هرعت إليه.

كان الباشا جالساً إلى الأرض، وقد بلي رداؤه.

قال لها وهو يشيح بوجهه بعيداً عنها:

ـ تم نفي السلطان. تعلمين أنه صديقي وأنه الحاكم. أضحت هذه البلدة بلدة غريبة علي ـ ولسوف نرحل. نرحل بعيداً عن هنا.

وقفا معاً عند النافذة، يتأملان الموجات المتكاسلة فوق صفحة البسفور، وأقبية المساجد الكبيرة، والتلال الرمادية البعيدة، حيث كانت بداية الزحف العثماني على أوروبا، منذ أمد بعيد.

قال لها (أحمد باشا):

ـ سنرحل إلى برلين. الألمان أصدقاء لنا.

جففت (زاد) دموعها. زادت العتمة في الغرفة. وأتتها من عند الديوان أنفاس (أحمد باشا) الهادئة. رقدت في الفراش

بعيني مفتوحتين، تنظر إلى بعيد. هي تحن إلى اسطنبول، وإلى المنزل القديم، وإلى هواء بلادها الذي تنيره الشمس. بدت لها المآذن في بلاد الخلافة قريبة، قريبة جداً، واعتراها خوف ساكت. راح كل شيء، وضاع كل شيء. لم تبق سوى الأصوات الناعمة للغتها الأم، ومحبة تلك القبائل الغابرة التي أسست آل عثمان.

«كان جدي حاكماً للبوسنة»، فكرت وهي تتذكر فجأة كيف لامست ركبتا الطبيب فخذاها. أغلقت عيناها فرأت أمامها عيناه السوداوان المسحوبتان. قال لها الطبيب:

ـ قولي A

ومضت هالة نور من خلف ظهره.

ـ A هي الشكل الياقوتي. ولكنني عثمانية. والإضافة لدينا تكون بالـ

أجابته (زاد) بفخر، قبل أن تروح في النوم. انسلت يدها أسفل الغطاء، وداعبت فخذاها في جذل حيث لامستها ركبتا الطبيب.

نامت هي، بينما رقد (أحمد باشا) في فراشه، عيناه مغلقتان من دون نوم. يفكر في ابنيه، اللذين رحلا لإنقاذ الامبراطورية ولكنهما لم يعودا، قط. وفكر في ابنته الشقراء، التي كان ينبغي لها أن تتزوج أميراً، ولكن ها هي الآن غارقة في محيط الرموز الهيروغليفية البربرية. وفكر في محفظته، التي ليس فيها سوى مائة مارك ـ هي إجمالي ثروة آل الأنباري ـ وفكر في السلطان، المنفي بعيداً في بلد أجنبي، يكابد الحنين إلى وطنه، مثله، ويتوق إلى هواء اسطنبول الرقيق.

حل الصباح، رمادياً شاحباً. وأعد (أحمد باشا) الشاي، واستيقظت (زاد)، وجلست في فراشها، وقالت بنبرة فخر وثقة:

ـ صرت في صحة جيدة مجدداً، معاليك.

* * *

الأجواء في مقهى «وطن» في شارع كنيسبكس معبقة بأبخرة التبغ ورائحة دهن الضأن. يمتلك المكان أستاذ هندي يرتدي نظارة، وهو مشهور بحكمته العميقة، ولذلك كان عليه أن يرحل عن بلاده الأم. نادل المقهى اسمه (زمرد)، وهو ذو أنف طويل واعتداد وزير من وزراء بخارى. يجلس إلى الطاولات الصغيرة طلبة مصريون، وسياسيون سوريون، وأمراء من آل كدجر. يتناولون الضأن، ويشربون القهوة في أقداح صغيرة. يصنع لهم القهوة لص سابق من جبال كردستان، له كتفان عريضتان وحاجبان كثيفان متصلان فوق أنفه. يعرف ثماني عشرة طريقة لصنع القهوة، ولكن مبدأه هو ألا يكشف عن أسرار صنعته إلا أمام الأمراء والحكام ورؤساء القبائل.

جلس (أحمد باشا الأنباري) إلى طاولة في الركن، يتأمل السطح المستدير الداكن لفنجان قهوته. وعند الطاولة المجاورة كان (أرخام بك) الشركسي يلقي بالنرد، يميزه الأنف المسطح الذي يميز أفراد قبيلة الأحمديين.

قال صاحب المقهى وهو ينحني أمام الباشا:

ـ أتعرف، معاليك. هل عرفت أن (رنسي باشا) قد وصل من اليمن؟ وهو يبحث عن جنرالات ووزراء مستعدين للعمل تحت إمرة الإمام هناك.

ـ أنا لن أذهب إلى اليمن.

فقال له صاحب القهوة في لامبالاة:

ـ معك كل الحق. أهل اليمن زنادقة.

اختفى وراء الكاونتر وسط جلجلة الأكواب. ربح الشركسي مباراة الطاولة، وأشعل سيجارة، قبل أن ينظر إلى السوري البدين القابع إلى الطاولة المجاورة. فقال له السوري:

ـ عيب عليك. المؤمن لا يلعب النرد.

سحب الشركسي في امتعاض نفساً من سيجارته، قبل أن يشيح بوجهه بعيداً.

اقترب رجل أصلع ذو يدين نحيلتين جافتين، ووقف عند طاولة (أحمد باشا)، يتلمس بيده صدره وشفتاه وجبهته.

ـ السلام عليكم، معاليك. لم نلتقي منذ زمن.

ـ حضرت من اسطنبول، (رؤوف بك)؟

ـ أجل، معاليك. لقد أصبت في سخاريا وأعمل الآن في مصلحة الجمارك. في آخر لقاء لنا كنت نائباً، وأنت رئيس المفرة الخصوصية. كنت تريد القبض علي في ذلك الوقت.

ـ وإني لآسف لقدرتك على الهروب من العدالة، (رؤوف). كيف هي الأمور في بلادنا؟

ـ مزدهرة، والشمس تشرق على القرن الذهبي. والمحاصيل طيبة، وهطلت على أنقرة ثلوج كثيفة في الشتاء الماضي. ينبغي أن تعود، معاليك. تقدم باسترحام إلى الحكومة.

ـ أشكرك. ولكنني على وشك الاتفاق على شراكة في متجر للسجاد. أنا لا أطلب الرحمة من أحد.

ابتعد الغريب، وحزنت عينا (أحمد باشا). فكر في الإيجار الذي لم يدفعه؛ وفي صاحب المنزل، الذي ينظر إليه نظرة لص حضر إليه من الشام؛ وتذكر ابن عمه (قاسم)، الذي فر إلى أفغانستان بعد أن وعده بأن يرسل إليه مالاً؛ و(مصطفى)، ابن عمه الآخر، الذي ذهب إلى العدو ولم يرد على رسائله؛ وفي (زاد) الشقراء، التي تجوب أرجاء برلين وحدها، مرتدية معطف مطر خفيف في هذا الطقس الخريفي القاسي، حتى سقطت مريضة. ثم انشغل في التدخين، والتقط (زمرد) ماله وجلس إلى طاولته. وقال له بلكنته التي لا تكاد تُبين:

ـ أمر غاية في السوء، معاليك. برد وفقر.

ـ في حرب بخارى. توزرت من جديد.

ضحك، ولكن الحزن لم يفارق عيناه.

في زاوية أخرى، وضع فارسي يده خلف أذنه اليسرى، بالطريقة التي يفعلها المغنيين الشرقيين، وأخذ يغني على مقام البياتي. بينما انهمك الهندي الجالس وراء الكاونتر في جدال مع رجل الدين الأحمدي حول الطبيعة الحقة للخالق.

انشغل عقل (أحمد باشا) بجدوى أن يكون شريكاً في متجر السجاد، بوصفه خبيراً يوجه النصح للزبائن الأوروبيين السذج. تنهد وهو يشعر ببعض الألم في جانبه الأيسر. أحب هذا الألم، لكونه آخر تذكار تبقى لجرح أصيب به منذ سنوات بعيدة، خلال الحملة على الجزيرة العربية.

دندن الشركسي في الطاولة المجاورة بنغمة، قبل أن يبتسم محرجاً وكأنه فعل ما لم يقصده.

ـ أود أن أعمل عازف بيانو في مطعم «الشرق»، معاليك.

قالها بنبرة فيها شبه تساؤل، خاصة وأن السرقة والترزق من أعمال الحرب، وهما الصنعتان التي انخرط فيهما أسلافه، قد صارتا بعيدتا المنال عنه. ذات زمن حضر أسلافه في حشود قتالية إلى البلاط العثماني، وقد ولد هو ليحكم ويعطي الأوامر. ولكن الماضي مظلم، ويبدو بعيداً وراء أستار من رمال الصحراء، أما الحاضر فهو هنا على الأسفلت القاسي لبرلين. ليس بوسع أي شركسي سوى القيام بأمرين: أن يعطي الأوامر، أو أن يعزف الموسيقى. وقد صار إعطاء الأوامر طلباً بعيد المنال.

من عند طاولة الأمير الكجدري المنفي أتى صوت هامس ناعم:

ـ العيش مر في بلاد غريبة.

فأجابه صوت آخر:

ـ لا. في البلاد الغريبة لا يوجد خبز من الأصل للشريد الغريب عن أهله.

نهض (أحمد باشا). غادر المقهى، ومشى ببطء برأس محنية، يتجول في شوارع البلدة الغريبة، التي تبدو منازلها أشبه بحصون منيعة تُشعر بالجفاء. مشى (أحمد باشا) صامتاً وسط البلدة الصاخبة، وهو لا يسمع أي شيء من هذا الصخب.

قال لنفسه:

ـ سأشتري البطاطس. وأصنع منها وجبة يخني طيبة.

توقف عند تنبرج بلاتس. ترسل الشمس بأشعتها مائلة لتغمر واجهة المتجر الكبير. تمر عليه سيدات أجنبيات بعيون واسعة خاوية، ترتدين جوارب حريرية. ليس لدى (زاد) أي جورب حريري. وفجأة، مشى الباشا مسرعاً قبل أن ينعطف في شارع

جانبي، فعبر شارع تونتسين ظهر رجل بدين أسمر البشرة. أشاح (أحمد باشا) بوجهه بعيداً بعينين منهكتين قانطتين. كم آلمه أن يضطر وزير امبراطوري سابق إلى أن يندس في شارع جانبي، لمجرد أنه يدين بخمسين فرنك لريفي غني. غمرته رغبة شديدة في أن يتشاجر معه، ويضربه، ويطرحه أرضاً. كان يتوق إلى أن يكون في حارة معتمة يدفعه فيها غريب ليلكم هو أذنيه رداً على ذلك. ولكن الشمس تنير الشوارع، والناس يبتعدون عن طريقه في أدب ولامبالاة، وعاد ليبتاع البطاطس والطماطم والفجل. ثم آب إلى شقته في المنزل المحترم ذو الواجهة الرمادية المائلة للخضرة، والباب بين عمودي الرخام المتوج بعبارة تقول: «غير مخصص للملاك». غير مخصص له... ولكنه لم يعد من الملاك، ولا من السادة، ولكن هذا المدخل النبيل محجوز له. غير أن المحجوز له في الحقيقة مدخل صغير مكتوب عليه «منزل الحديقة» (بدا له وصفاً ساخراً) ـ ذلك الباب الصغير الذي يتثاءب مثل البلعوم إلى جوار ذلك البهاء الرخامي للمدخل الرئيسي. عبر الفناء الضيق بأشجاره التي تعاني السل، وتوقف أمام مقبض شقته المكسور، وفتح الباب، ومشى عبر الممر المفضي إلى غرفتهما. كانت (زاد) تجلس إلى الديوان، تمسك بخيط من القطن بين أسنانها، وهي تخيط جورباً. أمامها على الكرسي كتاب مفتوح، وتقرأ منه بهمهمة جملاً بربرية لا تكاد تبين.

وضع (أحمد باشا) البطاطس والطماطم والفجل فوق الطاولة، وصفقت هي في بهجة لما رأت الكرات الحمراء المدورة، والكتل البنية التي تفوح منها رائحة الأرض. ولسبب ما...

... إنتابتها سعادة غامرة مفاجئة.

الفصل الثالث

كانت الأجواء في «مينسا أكاديميكا» (مطعم الجامعة) لا تختلف في بهجتها عن أجواء قاعة الانتظار في أي محطة للقطارات في الأقاليم الخارجية. كان الطلاب يجلسون إلى دكك خشبية طويلة، على مقربة شديدة من بعضهم البعض، وهم يتناولون بسرعة ومن دون انتقاء طعامهم الذي يناولهم إياه بطريقة أكروباتية رجل ضخم الجثة. على اليسار من الكاونتر علقت سبورة دُونت عليها قائمة الطعام بالطباشير الأبيض. وقد أضفت الأسعار الرخيصة مزيداً من الحيرة على تلك المسميات الخيالية للأطباق البسيطة.

انشغلت (زاد) جداً بالقائمة أمامها، وبقت محتارة لوقت غير قصير؛ هل تختار ملبا الخوخ أم هذا الـ«كونيجسبرجر كلوبس» (كرات اللحم مع البطاطس المسلوقة). وفي النهاية انتصر جوعها على حبها للحلويات؛ وأعطت النادل خمسة وعشرين فينيج وتناولت منه طبقاً ممتلئاً باللحم الساخن طيب الرائحة. حملت الطبق في حرص، وهي تسرع الخطى نحو طاولة، وجلست وهي تشم الرائحة الشهية المنبعثة من كرات اللحم.

ـ بخير مجدداً، سيدة (أنباري)؟

رفعت رأسها إلى صاحب الصوت.

كان الدكتور (هسه) يقف أمامها، ينظر في طبقها.

ـ منذ متى يأتي الأطباء إلى مينسا الطلاب؟

سألته (زاد)، وهي سعيدة لفرصة أن تتحدث لشخص غير تركي أو دارس للغة التركية.

ـ الأطباء بعيداً عن ممارسة الطب يقون دوماً من الطلاب.

جلس إلى طاولتها، وهو يردف:

ـ أنتِ تركية، أليس كذلك؟ لم أكن أعرف أن هناك تركيات شقراوات.

نظرت إليه (زاد) في دهشة. هناك إذن من لا يزال يجهل شهرة العيون الزرقاء لأميرات اسطنبول، التي ذاع صيتها من جبال التبت وحتى البلقان.

قالت في تواضع، وهي تغرس شوكتها في اللحم الساخن:

ـ إنهن موجودات. كما أنك لست ألمانياً، صح؟

ـ وكيف عرفتي ذلك؟

ضحكت ضحكة رضا وهي تجيبه:

ـ حتى ولو كنت مهتمة فقط باللغة التركية، إلا أن هذا لا يمنع أن أكون على دراية باللهجات الألمانية. كما أن (هسه) ليس اسماً ألمانياً.

ارتشف الدكتور من كوب البيرة، وهو ينظر بعينين سوداوين مائلتين إلى (زاد)، وإلى جسدها الطفولي، وشفتيها الناعمتين، وعينيها الرماديتين الغائمتين، ورسم خياله لوحة لحريم وسط نافورات رخامية، غير مكشوفات الوجه، ومن حولهم أكثر من خصي يتأبط شراً، وفكر في أن تلك الفئة التي تعرضت لتدخل جراحي ناجح لعبت دوراً لا يستهان به - وإن كان مبهماً - في تاريخ الأمم الآسيوية. وفجأة، انتابته رغبة في أن يختطف هذه الطفلة من ألف ليلة وليلة، ولامست ركبتاه من أسفل الطاولة فخذاها في حذر. حدجته ابنة آسيا بنظرة حادة وهي تقول له:

- إن تماديت، فسوف أفتح فمي وأقول آآآآه. عندئذ سأكون مريضتك، وستوقفك أخلاقيات المهنة عند حدك.

من الواضح أنها لم تعد طفلة، أو أنها طفلة ماكرة جداً. جرع كوبه في سرعة.

قال لها في أدب:

- أنا نمساوي. أتعرفين فيينا؟

لم يكن لوقع اسم تلك المدينة الامبراطورية أي تأثير عليها. التهمت (زاد) آخر كرة لحم، ونظرت في أسى إلى الطبق الفارغ، قبل أن تقول له:

- أتعرف (قرة مصطفى)؟ الذي حاصر فيينا تحت إمرة (سليمان القانوني)؟ هذا كان أحد أسلافي. لو كان قد انتصر، لربما قبلت بتعيينك ضمن طاقم أطبائي.

لم يكن ما قالته للتو صحيحاً على نحو كامل. فلم تكن

هناك صلة قرابة بين (قرة مصطفى) وآل الأنباري. غير أن النمساوي انبهر بكلامها:

ـ شكري وامتناني، سمو الأميرة. هلا أذنتي لي بأن أناديكِ بسمو الأميرة؟

ـ كلا، لا تناديني الأميرة.

شعرت بالحزن وهي تتذكر الأمير (عبد الكريم)، الذي لم يقدر لها أن تراه، والذي قدر له أن يكون زوجها. رحل إلى أمريكا، وانقطعت أخباره منذ ذلك الحين. ربما هو يعمل الآن نادلاً هناك.

شعر الدكتور (هسه) بالحزن في عينيها. فهرع إلى البوفيه وجلب لها قطعة جاتوه شوكولاتة بالكريمة. نظرت (زاد) إليه في جذل وتناولت الجاتوه. غطت الكريمة البيضاء المخفوقة شفتاها، فلعقتها بطرف لسانها.

كرر على مسامعها في إصرار:

ـ أنا نمساوي.

جُرحت كرامته لما لم تبد الفتاة الغريبة أي اهتمام لإعلانه عن أصله. أردف:

ـ نلت شهادتي في فيينا، ولمزيد من الخبرة، درست عاماً إضافياً ما بين باريس ولندن. وسوف أكون هنا في برلين حتى نهاية الفصل الدراسي، ومن بعدها سوف أستقر في فيينا.

هذا أيضاً لم يكن صحيحاً بشكل حرفي، ولكن (هسه) يخبئ الحقيقة في طيات قلبه، ولن يكون من المنطق أن يحررها

هكذا، بغتة. كما أن من العبث بالنسبة لطبيب مؤهل أن يجوب أنحاء أوروبا، ليظهر مثل ضيف شرف متنقلاً بين مستشفى وأخرى.

ولو حدث وسألت (زاد) عنه، فسوف تعرف بأهتمامات الدكتور (هسه) وحماسه الطبي. وربما عرفها بأن السبب الرئيسي لحضوره إلى بزلين هو دراسة أحدث الاكتشافات في جراحات رأب الأذن والأنف. ولكنها لن تغرف بالتأكيد أي شيء عن فضيحة (ماريون) و(فريتز)، اللذين أمضيا الصيف معاً في جبال تيروليان. . . ولكن، كفى. لا شأن لأحد بهذا، كما أن هذا أمر صار من الماضي. أحنى لها رأسه ونظر إليها متبسماً. فقالت له (زاد) من دون أن تعلق على كلامه:

ـ أجل. مرت عليّ أربعة أعوام هنا في برلين. رحلنا عن اسطنبول بعد الثورة. كل شيء غريب للغاية. كنت في الخامسة عشرة من عمري حينذاك، وأرتدي الخمار. عجزت في البداية عن الاعتياد على السير في الشوارع وحدي ومن دون حجاب. أما الآن فقد صرت أحب ذلك. ولكنني أشعر بالأسى. ففي وطني كنت أتعلم الموسيقى واللغات، أما الآن فأتعلم لغة أسلافي الأجلاف. إنه نوع من الارتباط بالوطن ـ أتفهم هذا؟

ـ بلى. بعد الفصل الدراسي القادم سوف أستقر في فيينا. سأعيش في أوبرنرينج. سيكون جميع المغنين من بين مرضاي.

تبادلا الحديث لفترة من الوقت، غير أن أياً منهما لم يبح للآخر بكل شيء. لم يحدثها (هسه) عن فتاة نمساوية اسمها (ماريون)، ولم تحدثه (زاد) عن ذلك الغريب الذي حضر هذا

الصباح بزي رجال البريد الرسمي، وقرع باب غرفتها ليعرفهما أن بجعبته بريداً لهما. ناول الغريب (أحمد باشا) ظرفاً رمادياً مختوماً، وعندما فتحه (أحمد باشا)، وجد بداخله ألف روبية أفغانية زاهية الألوان، وخطاب تحية من ابن العم (قاسم). وبعد ساعة كان يقف أمام موظف بنك لطيف، نظر إلى الأوراق النقدية، وهز رأسه، قبل أن يتصل بالمكتب الرئيسي، وبعدها قدم لأحمد باشا سبعمائة وأربعين مارك، فتمكن (أحمد باشا) من سداد مصاريف كلية (زاد)، وتمكنت هي من تناول طبق الكونيجزبرجر كلوبس. ولكن لا علاقة للدكتور (هسه) بتلك التفاصيل.

سألها (هسه) بغتة:

ـ ما الذي تنوين القيام به هذه الظهيرة؟

ـ لدي محاضرات عن التاريخ العثماني. والباليوغرافيا. والطوائف الأناضولية.

ـ أهي مهمة؟ أقصد... أننا ربما كنا في آخر يوم دافئ من هذا الخريف، وربما كنتِ بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. تعالي معي إلى شتولبشينسي. هذا أمر من طبيب.

تأملت (زاد) جبهته المربعة، وشفتاه الضيقتان المتبسمتان. وفكرت في طائفة قيصيلباش وفي ساري سالتيك ديدي، وفي كل ما ينتظرها في قاعة المحاضرات. فاحمر وجهها. وقالت له في رقة:

ـ لنذهب إلى شتولبشينسي.

لم يكن (هسه) يعلم أن هذه هي أول مرة تقبل فيها (زاد) دعوة من رجل غريب. أول مرة في حياتها كلها.

نهضا وذهبا. توجهت (زاد) رأساً إلى محطة الحافلات. فصاح فيها (هسه):

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

جذبها من ذراعها. قادها إلى شارع جانبي، حيث فتح لها باب سيارة، يميز لوحة رقمها حرف A كبير إلى جوار الأعداد. قال لها في فخر:

- الحرف يرمز للنمسا.

فغرت (زاد) فمها في دهشة. هي لم تصدق أن بمقدور رجل بهذه المكانة المتواضعة أن يمتلك سيارة...

أوروبا أرض المعجزات بحق...

* * *

كانا مستلقيان فوق رمال منحدر تبة صغيرة تطل على البحيرة. جسد (زاد) يرتجف ارتجافات غير ظاهرة. تنظر إلى ملابس البحر الخضراء التي أحضرها (هسه) لها وهما في الطريق إلى هنا، وشعرت أن الموقف كله خيالياً مربكاً. تلمست أصابعها الوردية الرمال، وشعرت بالخزي وهي تدرك أنها سرعان ما سوف تكون مضطرة لارتداء هذا الزي الذي يشبه زي الراقصات المبهرج. كانت قد تعرفت خلال أعوامها الأربعة في برلين على الجامعة والشوارع والمقاهي. لكنها لم تذهب إلى شاطئ، وبقت فكرتها ملتبسة عن تلك الأماكن التي يختلط فيها

الرجال والنساء الأوروبيين وهم شبه عراة، تحت أشعة شمس الشمال. اتسعت عيناها فزعاً عندما اصطحبتها عاملة إلى كابينة صغيرة، وناولتها مفتاحاً، قبل أن تغلق الباب عليها.

الغرفة ضيقة معتمة يمتزج فيها عبق الماء بالخشب الرطب. وانتاب (زاد) شعور مزرٍ ـ وكأنها موشكة على دخول امتحان. جلست تحدق في قطعة الصوف الصغيرة التي يفترض أن تستر بها جسدها؛ فعضت على شفتيها حنيناً إلى عالم الكلية الذي ألفته؛ وإلى القواعد الأغورية والطوائف الشرق أوسطية. ولكنها خلعت حذاءها وجوربها، وأخذت تزيحهم يمنة ويسرة من غير هدف إلى أن هدأت أعصابها بعض الشيء. ثم أغلقت عيناها، وسارعت بخلع ملابسها، وارتداء لباس البحر. نظرت إلى صورتها في المرآة فتجمدت في مكانها. شيء من نهدها الصغير يطل عليها من الصدر العريض للباس المصنوع من التريكو، عارٍ، وساذج. جلست إلى الدكة في أسى وبكت. كلا، لا يمكنها أن تخرج على هذه الهيئة، حتى ولو خرجت بها كل نساء برلين. في الخارج، سمعت وقع أقدام عارية قوية تجوب المكان، ورفعت كتفاها في قلق. بدت داخل الكابينة وكأنها عصفورة ملتاعة من حبسها داخل قفص. ولكنها في النهاية فتحت الباب موارباً بما يكفي لأن تخرج رأسها، وأشارت إلى العاملة. نظرت إلى العاملة في خجل داخل الكابينة، وهي تقول لها متبسمة:

ـ أتظنين أن من اللائق أن أخرج هكذا؟ أقصد... أنا لم أتأكد من منظري جيداً عبر المرآة.

أجابتها العاملة بصوت عميق:

ـ كلا. بالطبع لا يمكنك الخروج بهذا المنظر. لقد ارتديتِ لباس البحر بالمقلوب.

ساعدتها في ارتدائه على النحو الصحيح، وتركتها وانصرفت وهي تهز رأسها في عدم تصديق.

اقتربت (زاد) من الشاطئ، وكأنها آثمة على وشك أن تلج الجحيم. يداها تتشبثان في توتر ببطنها، وعيناها مغلقتان. شعرت بدوار ـ فهي قد رأت سيدات عاريات الظهر، ورجال بصدور عارية يكتنفها الشعر الكثيف. همست لنفسها بالبسملة، وفتحت عيناها مجدداً، وكأنها تتحدى الموت. وجدت أمامها رجل غريب واقف يبتسم لها. رأت في البداية أصابع قدمين، وساقين لوحتهما الشمس. رفعت ناظريها ببطء، متنقلة من الساقين إلى الفخذين، ثم إلى مايوه من التريكو الصوف. ارتجف جسدها قليلاً، وهي تجبر عيناها على أن تنفتح على اتساعهما. أمامها بطن رشيقة يغطيها مايوه التريكو، ثم صدر أسمر عريض ينتشر فوقه شعر أسود مجعد، وذراعين بلاشعر ولكنهما مفتولا العضلات. ولأول مرة في حياتها، ترى أمامها رجلاً غريباً عنها، عارياً تقريباً. وانتابتها إثارة.

ـ كم أنا محرومة.

قالت لنفسها في أسى، وهي تجبرها على التطلع إلى وجه الدكتور (هسه). ابتسم لها، وهو لا يفهم ما يدور في ذهنها، ولكنه مأخوذ بها. اقتادها إلى حيث يجلسان. ألقت (زاد) بنفسها على الأرض، وهي تفكر في أي جزء من جسدها عليها أن تسارع بدفنه في الرمال.

سألها (هسه):

ـ أتحبين أن نسبح؟

ـ لا. المياه باردة جداً.

مشى الدكتور (هسه) ببطء إلى لوح الغطس، ورأت (زاد) مندهشة شخصاً ناضجاً يلقي بنفسه إلى المياه من دون سبب وجيه، محدثاً الكثير من الرذاذ. رأت رجالاً ونساءً يمرحون بحماس وطاقة لم تجد لها داع، أو مستلقين في كسل تحت الشمس، أشبه بحلزونات منهكة. كان الشاطئ مغطى بمساحات صغيرة من الورق والطعام، وهناك امرأة بدينة تضع فوق أنفها شيئاً أصفر. جلست (زاد)، وضمت ركبتيها إلى جسدها، تحيطهما بذراعيها، وشعرت أن الخجل قد فارقها. ولكنها شعرت ببوادر غثيان تزداد. خيل إليها أن هؤلاء أشبه بحيوانات داخل حديقة حيوان غريبة؛ يغطي الشعر أجسادهم مثل القردة، فالشعر على سيقانهم وصدورهم وأذرعهم. حتى النساء يبدو الشعر من تحت إبطهن. وفكرت (زاد) في جسدها، الذي تزيل عنه أي شعر يظهر، وفكرت في أجساد والدها وأخوتها المصقولة الخالية من الشعر. امتلأت نفسها باشمئزاز صامت. ونظرت إلى السماء، لتبتعد بعينيها عن تلك الأبدان نصف العارية. للسحب البيضاء الناعمة أشكال غريبة ـ أحياناً ما تتشكل في صورة أنف البروفيسور (بانج)، وأحياناً ما تكون أشبه بخريطة الإمبراطورية الرومانية في أوج توسعها.

سقطت على ظهرها قطرة ماء باردة، فاختلج جسدها. كان الدكتور (هسه) يقف إلى جوارها، أشبه بكلب بودل مبتل.

جلس إلى جوارها ونظر، في انبهار صامت، إلى تلك الفتاة الغريبة، ذات الشفة العليا الصغيرة، مما يجعلها تبدو أقرب إلى طفلة.

ـ ما رأيك في المكان هنا؟

ـ لطيف، أشكرك. هذه هي أول مرة أحضر فيها إلى شتولبشينسي.

ـ وأين تسبحين في المعتاد؟

ـ في روبنهورن.

كانت تكذب، وهي تنظر إلى الأرض في براءة.

بعد برهة كانا مستلقيان على بطنهما، قبالة بعضهما البعض، يداعبان الرمال بأصابعهما.

ـ هل تربيت وسط الحريم، (زاد)؟

سألها وهو لا يزال غير مصدق أنه قد تمكن من اصطحاب جميلة من الحريم إلى شتولبشينسي.

أومأت برأسها إيجاباً. أخبرته أن هناك مكان اسمه الحرملك، وهو مكان جميل مخصص فقط للسيدات ولا يسمح للرجال بدخوله. لم يستوعب الدكتور (هسه) ما قالته تماماً. وهو الذي اعتقد أنه يعرف كل شيء عن الحريم.

ـ هل كان لديكن العديد من الخصيان؟

ـ ثمانية. أناس غاية في الأمانة. أحدهم كان معلمي.

بادر (هسه) مُتَعَجّباً بإشعال سيجارة.

ـ أوه. هذه همجية بالفعل. وكان لدى والدك ثلاثمائة امرأة، أليس كذلك؟

أجابته بفخر ممزوج باستياء:

ـ بل واحدة فقط.

هذا هو أول رجل يجرؤ على أن يحدثها في موضوع الحريم. ولكن (هسه) طبيب ـ ربما هناك فارق.

استطردت في سخط طفولي:

ـ أنت ترى فكرة الحريم همجية، وأنا أجد أن حتى اسمك همجي.

كان تأثير عبارتها الأخيرة مذهلاً ـ وأكبر بكثير مما تصورت (زاد). فقد نهض الدكتور (هسه)، وهو يحدق فيها مصعوقاً.

تمتم في حرج واضح:

ـ ولماذا اسمي؟

أجابته متكدرة:

ـ لأنه ليس اسماً من الأساس. هناك بلد اسمها هيسين، واسم هو هاس. أما (هسه) فهو همجي وليس ألماني على الإطلاق. فحرف الهاء في آخره لا معنى له على الإطلاق.

عاد الدكتور (هسه) ليستلقي على بطنه مجدداً، ونظر إليها، يضحك في ارتياح. وشكر ربه أن ليس للفتاة أصدقاء نمساويين، وإلا لكانت قد سمعت بفضيحة (ماريون) وما لحق باسم (هسه) من عار. دارسو اللغويات مخلوقات أليفة بالفعل. قال لها:

ـ الاسم (هسه) اختصار، واختصار سليم جداً. الاسم الأصلي للعائلة هو (هاسانوفيتش)، وهذا منذ زمن بعيد، وذلك لأن أصل عائلتنا هو ساراييفو في البوسنة، وهذا حتى من قبل انضمامها. وأنا مولود في فيينا.

كان دور (زاد) لتنهض مشدوهة. امتلأت دهشة وحيرة، وهي تنظر إلى الدكتور.

ـ من سارايفو؟ معذرة، ولكن هكذا الاسم يكون (حسنوفيتش) ـ فيتش تعني ابن. إذن الاسم هو حسن.

قال لها في براءة:

ـ صحيح. لابد أن اسم جدنا الأكبر كان حسن.

ـ ولكن حسن هو...

ولكنها سكتت، وهي مندهشة من مقدرتها الإدراكية. فسألها (هسه) محتاراً:

ـ ماذا؟

ـ أقصد.. أقصد.. من المؤكد أن البوسنة كانت جزءاً من تركيا حتى العام ١٩١١، والاسم حسن اسم مسلم. للرسول حفيد اسمه الحسن.

فهم (هسه) أخيراً ما ترمي إليه الفتاة الغريبة.

ـ أوه أجل. بالطبع. نحن من البوسنيين، أي من الصرب الذين تحولوا إلى الإسلام بعد الغزو التركي. وأعتقد أن لي أبناء عمومة هناك في سارايفو. بل أنني أتذكر أنه قد كان للعائلة في

زمن الحكم التركي أراضٍ في منطقة ما من البوسنة، ولكن هذا منذ زمن بعيد.

قبضت (زاد) على حفنة من الرمل، قبل أن تتركها تنساب عبر أصباعها. كانت شفتها العليا الصغيرة ترتجف.

ـ أنت بالتالي مسلم بالتأكيد؟

عندئذ ضحك (هسه). كان راقداً على بطنه، وجسده كله يرتجف وقد ضاقت عيناه. نهض وجلس فوق الرمل، عاقداً ساقيه. قال لها ضاحكاً:

ـ آنستي التركية الصغيرة، لو كان (قرة مصطفى) قد تمكن من غزو فيينا، أو لو كانت معاهدة سان سباستيان قد اختلفت، لكان اسمي الآن (إبراهيم بك حسنوفيتش)، ولكنت أرتدي العمامة. ولكن (قرة مصطفى) لم يغز فيينا، وهكذا صرت مواطناً نمساوياً صالحاً، واسمي هو الدكتور (ألكسندر هسه). أتعرفين فيينا؟ حيث تغرب الشمس خلف حقول العنب وتسمعين الأغاني في الحدائق... ليست هناك بقعة أجمل من فيينا في العالم كله.

سكت وهو ينظر إلى (زاد) بطريقة سلطوية. نظرت إليه وهي تشعر بالدم يتدفق ببطء إلى وجنتيها، وأذنيها، وشفتيها، وجبهتها. أرادت أن تنقض على هذا الشخص وتلكمه في وجهه ـ هذا الجالس فوق الرمال، يسخر من العالم ـ وأرادت أن تهرب وتنسى هذه البلدة، حيث انهارت سطوة الامبراطورية القديمة. ولكنها رمقت ابتسامة الغريب السعيدة، وعينيه السود ذات الغواية الطفولية، كان يتأملها في ود، غير مدرك لهذا التنافر بينهما.

غلبها الأسى، وهي تغلق عيناها تفكر في الامبراطورية الكسيرة، وذلك الانهيار الذي كانت بدايته على أبواب فيينا.

سألها (هسه) في قلق:

ـ هل الجو حار عليكِ، (زاد)؟

ـ كلا، ليس حاراً ـ بل بارد. ربما لا زلت متعبة. ولم ينقضي الخريف بعد.

نظرت إلى الأرض، في حياء، وقد زادت عيناها سواداً.

انشغل (هسه) بها. وضع روب السباحة على كتفيها، وأحضر لها قدح قهوة ساخن. أخذ يدلك يديها، وكانتا باردتين لا حياة فيهما، وهو يحصي أسماء أنواع البكتيريا التي لا تحصى، والتي تهاجم البشر أثناء استحمامهم في الخريف. وعندما وصل إلى الاسم البكتيريا العقدية، لاحظ أن الفزع يهيمن على وجه (زاد)، فبدأ يعدد أسماء مضادات البكتيريا بالترتيب نفسه. وهذا ما بعث في نفسه الهدوء إلى حد كبير، وداعب وجنة (زاد)، وهو غير متأكد من كونها مداعبة وقائية أم أنها حميمية. وفي النهاية عرض عليها العودة إلى المنزل.

نهضت (زاد)، وقد احمر وجهها الساخن. كان الدكتور (هسه) أول رجل تسمح له بمداعبتها، ولكن هذا لا يهم أي أحد. ركضت إلى الكابينة، وتخلصت في مقت من رداء البحر، وألقت به في ركن الكابينة، وارتدت ملابسها في سرعة. وخرجت من الكابينة ووقفت في اعتزاز إلى جوار السيارة، بينما كان (هسه) يدير محركها.

انطلقت السيارة فوق الطريق الأسفلتي المغبر. والسيارات تطلق أبواقها وهي تمرق إلى جوار سيارتهما، و(هسه) يناور بها، ماراً على الحافلات وراكبي الدراجات، وسيارات الأجرة. أخبرها عن عمله في المستشفى، وعن عملية الاستئصال الجزئي التي أجراها هذا الصباح، ولم تستغرق منه سوى ثماني دقائق. وهو أمر لا يمكن للهاجيك الكبير في فيينا أن يقوم به في وقت أسرع. بل وقد قام أيضاً بالتربيت على نفسه، ويبدو من بنرة صوته أن هذا أمر جلل. كانت (زاد) تريح ظهرها على المقعد. على وجهها ترتسم علامات اهتمام وتعاطف، ولكنها لم تكن تسمع حرفاً مما يقوله الدكتور. كانت تنظر إلى الشوارع، وهي تركز في قراءة كل الإعلانات؛ تلك التي تحثها على استخدام ملح بولريخ، أو التي ارتسم عليها رجل بدين يرفع يداه في توسل إلى السماء، مع عبارة تقول: «لقد بقي كتاب أولشتاين في القطار. . . وربما أتمكن أنا أيضاً من العودة»!

فكرت، «أنا في طريقي للهلاك». ارتجفت شفتاها. . . «مؤكد أنني في طريقي للهلاك».

تخيلت منزلقاً طويلاً، وهي تنزلق ببطء فوقه نحو بحيرة تغلي مياهها. وعند الضفة البعيدة للبحيرة يقف والدها، يصيح فيها بتهديدات لم تفهمها، ولكنها كلمات ذات نهايات لغوية مثيرة من وجهة نظر دراستها. ثم التفتت إلى الدكتور (هسه) وشعرت بالغضب من نفسها لكونها أعجبت بهذا الرجل الكافر الغريب. . . وكان غضباً يزداد ويزداد.

في النهاية انتبهت عيناها إلى المرآة. وفوق زجاجها المصقول رأت شفتيه الحادتين المزمومتين، وأنفها الطويل،

وعينين ضيقتين تنظران في يقظة إلى الطريق. بقت تحدق في المرآة حتى تحولت ملامح الرجل إلى ملامح منغولية مميزة. فشعرت بتحسن في نفسيتها.

انعطفت السيارة في كرفرشتيندام. إنتهى (هسه) من حكايته عن تلك العملية، قبل أن يفكر في شفتي (زاد) الناعمتين. تحركت تلك الشفتان، لتقول بنبرة غريبة:

- إلى شارع أولاند.

للحظة، رأى (هسه) عينين حالمتين ملتاعتين ترمقانه. فأطلق بوق السيارة في حماس لا ضرورة له، وهو يدخل في شارع أولاند. توقف عند العمارة ذات الطوابق الأربعة والمدخل الرمادي المخضر الفخيم، والتفت إليها. كانت (زاد) تنظر إليه، وقد نزل شعرها الأشقر على جبهتها. مال عليها، واحتضنت شفتاه شفتيها الصغيرتين الوجلتين. سمع آهة ضعيفة مكتومة، وشعر بركبتي (زاد) تختلجان. انفتحت شفتاها الناعمتان، وتراجعت رأسها للوراء، ولم يكن عليه أن يحتضنها بعد تلك اللحظة.

انزوت (زاد) في ركن، وأراحت رأسها للوراء، وهي تنظر إلى (هسه)، وتتنفس بقوة. فتحت الباب ببطء، وترجلت من السيارة، ووقفت فوق الرصيف تبتسم. وضعت يمناها فوق فمها، وسحبت القفاز من يدها بأسنانها، قبل أن تغلق باب السيارة بقوة أصمت أذني (هسه). كانت عيناها تلتمعان بمزيج من الغضب والذهول. وجدت نفسها تبتسم في نعومة، قبل أن تتوارى خلف الباب. . . الذي يزين أعلاه ذلك النقش. . .

. . . بيت الحديقة.

الفصل الرابع

يحمل الجدار لوحات تصور أهلّة، وأخرى تحتوي آيات من القرآن الكريم. الأسد الإيراني بلبدته المميزة يتألق إلى جوار الذئب الرمادي ليمثلا معاً شعار تركيا. النجمات الثلاث مع الهلال في الراية المصرية الخضراء. يمتد السجاد بأنواعه في الصالة الكبيرة، متوجهاً نحو القبلة. وعلى السجاد والأبسطة، وكذلك على المقاعد المتراصة عند الجدار، يجلس رجال يرتدون أبهى ملابسهم، وعباءاتهم، وعمائمهم، حفاة الأقدام، ومن بينهم من يرتدي الزي الرسمي باهت الألوان لرجال البلاط، أو من يرتدي زيه الرسمي الذي يدل على رتبته العالية. وتتعالى الأصوات ممتزجة، ما بين تحيات فارسية وتبريكات عربية وتهاني تركية. حيث كان النادي الشرقي في برلين يحتفل بالمولد النبوي الشريف. أمهم في الصلاة إمام هندي، هو نفسه الأستاذ الجامعي صاحب مقهى وطن. اصطف من ورائه الجميع؛ فرس، عرب، ترك، جنرالات، خدم، طلبة، ورجال دين، يؤدون الصلاة. وسجدوا لله، وأدى الأستاذ الهندي الصلاة في خشوع وبصوت نبراته حزينة. وبعد الصلاة تصافح الجميع وتعانقوا، قبل أن يعودوا إلى مجلسهم في الصالة الكبيرة، على

المقاعد، أو الأرائك، أو على السجاد والأبسطة. جلب لهم الخدم القهوة، والحلوى التركية، والكعك العربي، والشربات الفارسي. عقب ذلك، ألقى رئيس النادي، وهو مغربي نحيل الجسد، خطبة قصيرة، شكر فيها الله ودعاه، ثم شكر الحكومة الألمانية على حسن الضيافة، والحضور على تواجدهم. بعدها، غمس قطعة بسكويت عربي في القهوة التركية وهو يدعو بالفارسية، فهو رجل مثقف حصيف حسن التصرف.

جلست (زاد) في الديوان الصغير، حريصة على أن تشتم رائحة الصحاري، وعبق الخيام المهجورة، وقوافل الجمال، في عباءات الضيوف. يقترب منها الرجال ويرمقونها في حياء، وبعض الخوف، لكونها امرأة، ومن غير المعتاد أن تتواجد نساء في حضرة رجال في مثل هذا المكان. صافحوا (زاد)، بينما يعرفها (أحمد باشا) في اقتضاب بصاحب كل يد تمتد لتصافحها. بحثت (زاد) في الوجوه السمراء والسوداء عن جيرانها. إنهم أناس من جميع البلدان ومن بقاع شتى، وحدهم الإسلام والقرآن. لا يجرؤ أي منهم، شاباً كان أم كهلاً، أسمر أو أسود، على أن يجذبها إليه ويقبل شفتيها، كما فعل ذلك الطبيب طويل الساقين. رمقت كفها الصغير، وابتسمت في صمت وشرود.

وقف أمامها رجل أسود ذو أسنان ناصعة البياض، وعينان فيهما حزن.

سألته بالعربية:

ـ أنت من مصر؟

ـ من تيمبكتو.

ـ تيمبكتو.

بدا لها الاسم ساحراً.

ـ أهي في السودان؟ كان بها ملك اسمه دياليا، وكذلك آل أكسو. وكان لديكم حكيم اسمه أحمد بابا. هذا كل ما أعرفه.

قال لها الأسود وهو يبتسم في جذل:

ـ لدينا حكمة تقول: يأتي الملح من الشمال، والذهب من الجنوب، والفضة من الغرب، ولكن حكمة الله وأناشيد مديحه لا تأتي إلا من تيمبكتو.

ابتسم لها في فخر.

ـ وما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال لها الأسود في اعتزاز كبير:

ـ أنا مدير منزل السفير المصري. وأنتِ محقة؛ فاسم الحكيم هو أحمد بابا. وقد ألف كتاباً عنوانه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، ولكنه توفي منذ زمن بعيد. زمن أن قام المغاربة بتدمير تيمبكتو، وصارت اليوم يباباً لا يشدو فيها أحد.

سكت، وهو يرمق رئيس النادي، المغربي ضئيل الجسد، في سخط.

انحنى الشاب زيتوني البشرة انحناءة سريعة أمام (زاد)، ثم قال لها بألمانية متعثرة:

ـ لماذا تبخلين علينا بمثل هذه الزيارة، هانم؟

أجابته بالفارسية:

- زمان ني داريم (ليس لدي كثير من الوقت).

كان الشاب أميراً فارسي.

تبسم (أحمد باشا) في اعتزاز. الكل يرى بعينيه كيف أحسن تربية ابنته. فهي تتحدث التركية - لغة الأجداد؛ والعربية - لغة القرآن؛ والفارسية - لغة الحب. لم تقض مشيئة الله بأن تكون من ضمن حريم الأمير .الله أكبر. هو وحده قدّر وقوع كل تلك الحوادث وسقوط الامبراطورية.

جلس جميع الحضور في حلقة كبيرة. وجلس أمامهم مصري نحيل الجسد وبدأ ينشد بصوت حزين. وحضر رجلان شاميان تميزهما العيون السود والعباءات البيضاء الواسعة. يحمل كل منهما سيفاً طويلاً معقوفاً، ودرعاً مستديراً نقشت عليه عبارات حماسية. كانا يتحركان حركات إيقاعية في تجاوب مع الأنشودة. يصيحان: «يا صاحب»، بينما يلمع السيفان. صارت حركاتهما أسرع فأسرع. وتلامس السيفان في صوت صليل منغم. وتلاطم الدرعان. واتسعت عيون الرجلين في ولع. كانا ابنان لتاجر من بيروت، ولكن دماء أجدادهما الأجلاف تسري في عروقهما. الأجداد الذين انطلقوا من الصحراء ليستولوا على بيروت. استغرقا في الصيحات الجنونية بعقل تائه، وصوت مسحوب مبحوح، وسط التماعات السيفين. كانا يتراقصان في اندماج تام على إيقاع النشيد. ثم جلس كل منهما القرفصاء خلف درعه فوق الأرضية الباركيه للمكان، يراقبان بعضهما البعض، وكأنهما بدويان مختبئان خلف تباب رمال الصحراء. ثم

قفزا في الهواء عالياً، واشتبكا، وانغمسا معاً في استعراض قتالي محموم. ترفرف برانسهما في الهواء المعبق بدخان ورائحة التبغ. ارتفع صوت المنشد المصري أعلى وأعلى، وأضحى إيقاع أنشودته أسرع وأسرع. وبغتة، أخذ المقاتلان يدوران حول بعضهما البعض في دائرة متسارعة ـ وكأنهما يصنعان معاً دوامة وسط عاصفة صحراوية. تجمدت نظراتهما، وتصلبت حركاتهما. وتحول النزال البدوي إلى حركات إيقاعية غريبة لدرويشين يرقصان في رحاب الوجد الإلهي. وفجأة أيضاً، توقف المصري عن الشدو، ليكون هذا إيذاناً بخلاص الشابين من هذا السحر الدرويشي وعودتهما إلى طبيعتهما؛ ابنان متحضران للتاجر البيروتي. انحنيا أمام الجميع، قبل أن يحيا بعضهما البعض بلمسة من سيفيهما.

صفقت (زاد) بحماس، مأخوذة بهذا الأداء الراقص المذهل. وتغيرت رائحة المكان، بعدما ثقل هواؤه بكل هذا الدخان. بالكاد تتبدى الوجوه، وكأنها أقنعة لكيانات لا أجساد لها. وانسلت لحية تقترب من (زاد) وسط سحابة دخان. وعندما ظهرت أمامها، ظهر معها وجهها: وجه له حاجبان كثان، وأسنان طويلة من وراء شفتان حمراوان أسفل الشارب.

ـ السلام

أحنت (زاد) رأسها، في تعب وعدم ارتياح.

جلس العجوز إلى جوارها. له عينان صغيرتان مندفعتان، مثل تمساح عمره ألف عام.

ـ اسمي (رضا). من أخوة بكتاشي.

ـ بكتاشي

رددت (زاد)، وهي تفكر في تلك المجموعة المقدسة التي ضمت محاربين وزهاد ونساك.

كانت عينا العجوز حادتين، تبثان القلق في نفسها:

ـ لقد رحلنا جميعاً. لفظتنا اسطنبول. وسيدنا يعيش اليوم في البوسنة. هناك نجازي الجسد. اسمه (علي كولي).

تجمدت شفته السفلى، وبقي فمه نصف مفتوح. قالت له (زاد) بصوت خافت:

ـ أنت حكيم.

فقال لها العجوز في حماس:

ـ إننا مؤمنون. كل شيء في عالم الكفار يتداعى. ويتحد النور مع الظلال، ويعاقب الله الخطائين. للآثام وجوه عدة، وتلاحق أولئك الذين ضعف إيمانهم.

ـ ولكن آثامي ليست بالكثيرة.

عندئذ ضحك العجوز ضحكة واجمة. قال لها في هدوء:

ـ أنتِ لا ترتدين الحجاب، هانم. هذا ليس إثماً، وإن كان يحرض الآخرين على أن يأثموا.

نهض واقفاً، وأخفى عينيه خلف راحة يمناه لثوان. بعدها ابتعد عنها، محني الظهر، والناس يرمقونه في حياء وهو يمر عليهم. بينما اقترب منها (أحمد باشا) وعيناه تضحكان.

ـ الكل هنا يرغب في الزواج منكِ، هانم.

نظرت إليه (زاد) في سخرية.

- لا أجد عيباً فيهم، أبتاه. فإلى من سوف تزوجني - ذلك الأسود من تيمبكتو، أم أمير آل كاجارز؟

- لا هذا ولا ذاك. سوف أسافر إلى أفغانستان، لأقاتل أعدائي. وسوف أشيد قلعة، ولسوف تتزوجين الملك.

حدقت (زاد) في والدها. من خلفه تتدلى راية أفغانستان وصورة رجل معقوف الأنف، وتتزين قبعته بريشة بيضاء طويلة.

قالت وهي تداعب ذراع والدها:

- الملك. أبي... ما الذي ستفعله لو أن رجلاً غريباً قبلني؟

ارتبك (أحمد باشا):

- يقبلك... غريب؟ ولكن لا أحد يجرؤ على ذلك!

- ولكن ماذا لو...

- يا الله، هانم، ما الذي دعاكِ إلى مثل هذا التفكير؟ كنت لأسحب سكيني، وأقطع شفتيه اللتين قبلتاكِ، وأفقأ عينيه اللتين وقعتا عليكي.

ضغطت (زاد) على يد والدها في امتنان. وشعرت أنها الملاك الحارس لعيني (هسه) وشفتيه.

- سأتزوج من ملكٍ إذن؟

أجابها (أحمد باشا) ضاحكاً:

ـ كلا. لقد راجعت نفسي... لسوف تتزوجين رئيس الولايات المتحدة وتجعليه يعتنق الإسلام. ومن ثم سيرسل الرئيس أسطوله البحري كاملاً إلى اسطنبول، ونعود إلى وطننا. هذا هو مهر العروس.

قالت له في نبرة مسرحية:

ـ أحلامك أوامر، أبتاه. سوف أعود الآن إلى المنزل وأفكر في كلامك. المكان هنا مختنق بالدخان، وقد انتهى الاحتفال بيوم المولد النبوي.

نهضت ومشت عبر المكان. تتعقبها نظرات حيية، ولكنها لم تكن تنظر لأحد. ومن وسط الدخان، ظهرت عينان ضيقتان وشفتان مزمومتان، وكأنهما للدكتور (هسه). ابتعدت (زاد) نحو الباب. ساعدها خادم على ارتداء معطفها، وابتسم لها الأسود من تيمبكتو. غادرت النادي وهي أسيرة شعور بكونها منبوذة في عالم لا يكن لها الود. من خلفها تترك الوطن: الخدم المتحفزون، العبيد، الأمراء، والأقارب الذين يصونون شرفها، والدراويش الذين يذكرونها بخطاياها. ذلك هو العالم الذي عرفته، والذي تشعر فيه بالأمان. ومن أمامها سلم مغبر لمنزل إضاءته سيئة، وذلك الضوء البعيد لمصابيح الشارع. هبطت الدرج، وفتحت الباب. الرياح تمرح في الشارع العريض الخاوي، بينما يسقط من النوافذ نور مخنوق على الأسفلت، ليمتزج بقطرات تخلفت من مطر عابر لتنساب من أعمدة المصابيح. خرجت (زاد) إلى الشارع.

أخذت تقتبس من هواء المساء البارد المنعش في شراهة.

كان بلاط الرصيف عبارة عن مربعات منضبطة هندسياً بدقة. تأملتها (زاد)، قبل أن ترفع عيناها، وتقطب حاجبيها في اندهاش، وهي تشعر بارتعادة خفيفة في ركبتيها...رغبت بغتة في أن تركض عائدة إلى داخل النادي، لتنخرط في حديث مع أسود تيمبكتو حول الحكيم أحمد بابا، الذي وضع كتابه الشهير «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، قبل أن يموت منذ أمد بعيد.

ولكنها لم تفعل. وبدلاً من ذلك نظرت إلى عينيه نظرة حادة جادة، إلى عيني الدكتور (هسه). الذي خلع قبعته عن رأسه وهو ينحني لها، قائلاً بكل رقة:

ـ مساء الخير... سيدة أنباري.

الفصل الخامس

بينما يعمل على فتح جيب مجاور للأنف، فكر الدكتور (هسه) في أنها حالة أذنين مسدودتين. ولم يكن لارتيابه في وجود تقيح أي أساس وجيه، ولكنه عجز عن طرد الفكرة. قام بقسطرة قناة أستاكيوس لبقال بدين يتصرف مثل طفل، ويطرح أسئلة غبية. وعقب ذلك، توجه إلى قاعة العمليات وأشرف على عملية تنظيف قوقعة الأذن، وهو يفكر في أن ضرب أي شخص على أذنيه لا يعد من باب الصفاقة فحسب، ولكنه يؤدي كذلك إلى ضرر كبير في قوقعة الأذن.

ولاحقاً، عاد ليشاهد العجوز الذي يجري عملية ثقب للقصبة الهوائية، معجباً مجدداً برشاقة يديه. بعدها توجه إلى الطابق الثاني وهو منشغل بأفكار تمزج بين عبثية الحياة عموماً وحصار (قرة مصطفى) لمدينته فيينا. أتم جولته على العنابر، وألقى ببعض كلمات مطمئنة على مسامع عجوز حيزبون متذمرة تعاني من ورم صلب تنفسي عجيب. المرضى مستلقون في طاعة في أسرتهم، وقد دوّن اسم كل مرض يعانيه كل واحد منهم على سبورة صغيرة فوق السرير، حسبما تقتضي التعليمات، وأخبرته الممرضة المناوبة أن مريض التهاب الأذن الوسطى في «سرير

ثمانية يمين» قد تلقى حقنة المورفين. أومأ الدكتور (هسه) برأسه، قبل أن يدلف إلى البدروم، ويصيح على المساعد، الذي استخدم نفس الضمادة على أعين ثلاثة مرضى مختلفين بينما كانوا في جلسة الاستحمام الطبي. قال له محذراً:

ـ النظافة العامة!

عاد إلى مكتبه، وهو مقتنع في وجوم بأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينتزعه من حالة اللامبالاة هذه هو أن يجد بلغماً في أصل الفتحة الجنب أنفية.

ولكن بدلاً من ذلك، ظهرت أمامه سيدة نحيفة تعاني من «تشينورهو»، فقام الدكتور (هسه)، وهو يشعر بخيبة أمل مريرة، بعلاجها بالكلروين، قبل أن يأتيه طالب لا يعاني من أي شيء ولكن الفضول وحده هو ما دفعه للحضور، علاوة على أن فحص الإخصائيين له لا يكلفه أي شيء على الإطلاق. ثم مرت فترة هادئة لم يحضر خلالها أي مريض، وبقي الدكتور (هسه) محدقاً في الجدار، مستغرقاً في أفكاره عن طرد الأتراك من أوروبا. امتدت يمناه إلى طاولة الأدوات لتقلب في شرود في أدوات القسطرة وفاحصات الأذن، والأقماع، ومباضع طبلة الأذن، إلى أن حدق فيه جاره الذي على اليسار قائلاً:

ـ أوه... معذرة...

أعاده هذا التنبيه إلى أرض الواقع، فانشغل في تصفح بعض التقارير ولاحظ بارتياح استغرب له أن حالة (أنباري) موجودة بين حالات «ريتروماكسيال تومور» و«كورديتيس تبروزا». نهض، وغسل يديه، وخلع عنه المعطف الأبيض، مستعيداً هويته الشخصية من جديد.

قاد سيارته في شارع ليندن بسرعة مخالفة للقانون، وتشاجر مع سائق تاكسي في تشارلوتنبرجر تشوسي، وهدد السائق بأن يضربه على أذنيه، فسبه السائق معايراً إياه بأنه مجرد نمساوي أحمق لا فكرة لديه عن قيادة السيارات.

ولما وصل إلى كني، أوقف سيارته، وتوجه إلى شقته، ليركز بكل قوة على البحث في معجم أمراض الحنجرة. وعرف في بحثه أن المستشفى المعمداني في نيويورك يقوم باستخدام الأشعة في علاج تضخم الأعضاء المزمن والمنتكس، وأن الزنوج لا يمكن من الناحية العملية أن يصابوا بشذوذ خلقي في الحاجز الأنفي أو الأذني. وجد نفسه ساخطاً من دون أي سبب على الإطلاق، فأغلق المعجم.

سقطت عيناه على صورة (ماريون) في بروازها الفضي. وزاد سخطه، وهو مقتنع بأن الضرب على الأذنين ليس أسوأ شيء يمكن أن يحصل للمرء. والمسألة تعتمد على من هو ذاك الذي يضرب.

تمدد على الأريكة وأغلق عينيه. وكالمعتاد، بزغت (ماريون) في مخيلته واقفة إلى جوار الأريكة، وبدأ في تعنيفها بسبب (فريتز)، وبسبب الطريقة التي تصرفت بها، وما ألحقته من عار باسم عائلة (هسه). كانت (ماريون) التي يتخيلها تهز رأسها في رفض، تخبره بأن الغلطة ليست غلطتها ـ ولو أن المرء تعامل مع هذا الموقف من وجهة نظر التحليل النفسي فلربما وجد أن ذلك ليس بعيداً عن ما حصل بالفعل، ورغم ذلك فقد استشاط الدكتور (هسه) غضباً.

قفز عن الأريكة فجأة، وتوجه إلى مكتبه، ووضع صورة (ماريون) في الدرج. وقال لنفسه ساخراً:

ـ هكذا أفضل.

أخذ يجوب أنحاء الغرفة، وهو يحاول أن يشغل ذهنه بالتفكير في أي شيء، حتى في كل هؤلاء الزنوج الذين لا يمكن أن يصابوا بتلك العيوب المرضية، ولكن هيهات ـ أفكاره لا تتجه إلا إلى مسارها المعتاد.

يدرك الآن أن مسألة زواجه من (ماريون) خطيئة كبرى من الأصل. وما صعب عليه فهمه هو السبب الذي دفعه إلى أن يختار محللاً نفسياً ليكون صديقه الأقرب إليه ـ فهو زميل كان قد عالج مريضة تشتكي الأرق وشخصها على أنها حالة اكتئاب حاد، بينما كل ما كانت تعانيه منه البنت هو ورم عضلي غدي. أجل، مجرد ورم حميد عادي! هو وحده، (هسه)، من تأكد من ذلك!

ولكن (ماريون) كانت تهوى التحليل النفسي، ولا تفهم أي شيء في العلوم البحتة. وقبل كل شيء، هناك الفضيحة! أن تهرب وحسب! كانت عيناها تشع براءةً حتى آخر لحظة، وكأنها لم تكن على علاقة آثمة مع (فريتز) طيلة أشهر... ياللعجب.

لاحقاً، أخبره (فريتز) أن أطباء الأنف والأذن والحنجرة ليسوا سوى أطباء أسنان فاشلين، وأنهم لا يمكن أن يفهموا روح المرأة. كان من الواجب على (هسه) أن يشتكي (فريتز) لدى المجلس التأديبي. وعندما وقفا أمام القاضي، الذي عرض عليهما المصالحة حسبما يقتضيه القانون، كانت (ماريون) ترتدي

قبعة صفراء ورأسها مائلة إلى جانب ـ كما لو أنها تعاني من ورم في المخ.

اعتاد (هسه) عندما يصل إلى هذه النقطة من الذكريات أن يلجأ إلى كأس كونياك، وأن يشغل نفسه بالقراءة، من دون كثير من الفهم، في موضوع الجهاز العصبي الوُدّيّ. ولكنه هذه المرة استغرب من أنه غير محتاج لا إلى الكونياك أو تلك القراءة «الثقيلة». واندهش، وهو يجد نفسه واقفاً في وسط الغرفة، وتيقن تماماً من السبب وراء كل هذا: تلك الفتاة التركية ذات العيون الرمادية، التي قادها القدر إلى عيادته، من دون أن تدري شيئاً عن عواقب ذلك.

ـ طفلة بدائية، أو هي قطة برية.

هكذا قال لنفسه، وشعر فجأة برغبة عارمة في أن يدلل تلك القطة البرية. لا شيء يجري كما يشتهي هو منذ أن تركته (ماريون). والغريب أن الدنيا تتجه به من سيء إلى أسوأ منذ ذلك الحين. قال لنفسه في هدوء:

ـ سأناديها (آسي)، ولسوف يتندرون في المجلس الطبي كل خميس أنني قد تزوجت قطة من أنجورا. ويصفني أقرب أصدقائي بأني شاذ، وهم يموتون من الغيرة. ولكن، هل تهوى فتيات تركيا المحللين النفسيين أيضاً؟

تناول قبعته ومعطفه، وخرج يجوب بسيارته الشوارع في تمهل ـ أثار غضب سائقي السيارات من حوله ـ حتى وصل إلى شارع أولاند، حيث دلف عبر الباب الأمامي المتوج بعبارة «للسادة فقط». ولكنه لم يجد على باب أي شقة من الشقق لوحة

تحمل الاسم (أنباري). عاد متقطع الأنفاس إلى الطابق الأرضي، وعرف من البواب أن «الهمج» يقطنون الجناح الأيمن، عبر الفناء. قرع جرس الباب المتواضع، حتى ظهرت له سيدة نعسانة، وأخبرته بأن الهمج يحتفلون الليلة بالكريسماس التركي، أو شيء من هذا القبيل. عرف منها مكان الاحتفال، وأسرع بسيارته إلى هناك.

غير أن الشكوك تغلبت عليه وهو في الطريق إلى هناك، حتى أنه خشي الدخول إلى النادي، وهو لن يخاطر بأن يتلقى لطمة على أذنيه أمام كل هؤلاء الهمج. ومع ذلك، هناك احتمال كبير لأن تعود تلك الفتاة الهمجية إلى منزلها وحدها. ولأنه كان أشد توتراً من أن يبقى داخل سيارته، فقد ترجل (هسه) منها وأخذ يجوب الرصيف جيئة وذهابا، قبل أن يتوقف أسفل شرفة بينما يستمر المطر في انهماره، يفكر مندهشاً من احتفال الأتراك بالكريسماس.

وأخيراً، وجد كائناً ضئيل الحجم يقف ناظراً إلى السماء تارة وإلى الرصيف تارة، محاولاً أن يتخذ قراراً.

أسرع الخطى نحوها، وهو يخلع قبعته.

كان من الواضح أنها تعاني من دوار. ولكنها نظرت إلى (هسه) وتوقفت تحدق فيه في أنفة.

- تخلبين لبي، أيتها الطفلة.

- أنا لست طفلة، أنا (زاد).

كانت تستند بجسدها على قدم، فنقلت ذلك إلى القدم الأخرى، وهي تستطرد في شرود:

- الجو ممطر. ولو أننا وقفنا هنا لدقائق أخرى لظهر أبي ليقطع شفتيك. فماذا أنت فاعل حينئذ؟

- عندئذ لن أتمكن من تقبيلك مجدداً.

أجابها في حزن مصطنع، وهو يحاول أن يلمس ذراعها. أبعدته في حدة:

- كلا! كلا! والدي قوي للغاية.

سكتت، قبل أن تعقب في تصميم مفاجئ:

- حسناً، هيا بنا، قبل أن يأتي والدي بالفعل.

إنطلقت، وفي أعقابها (هسه)، وهي يحاول في يأس أن يوجهها إلى السيارة، ولكنها كانت ترفض بكل عناد.

- كلا. اتبعني فحسب.

لما وصلا إلى فيتنبرج بلاتس، كانت الأمطار تستأنف نشاطها، وتوقفت (زاد)، مترددة، أسفل سقف بارز. فقال لها (هسه) في تواضع:

- ميرسي. هلا تفضلتي بالدخول إلى الكافيه؟ يبدو لي مزدحماً، وإضاءته جيدة.

التفتت (زاد) إليه، وعلقت:

- مناخ فظيع. الآن فهمت سبب عجزنا عن احتلال هذه البلد.

ثم نظرت نحو السماء، وهي تستطرد بنبرة من تحسن إلى مسكين:

ـ يمكنك أن ترافقني إلى داخل الكافيه.

لم يكن في صوتها ما ينم عن أي استسلام. عبرت الشارع، وفتح (هسه) الباب الزجاجي لها. دلفا إلى الداخل وجلسا معاً. مالت (زاد) على قدح من شراب الموكا كان أمامها، تستمتع بعبقه في صمت، ونبضات قلبها تتصاعد من قوة هذا الإحساس الرائع. استعطفها (هسه)، وهو يشعر بشيء من الارتباك والحيرة:

ـ لا تغضبي مني، (زاد). أعدك بألا أفعلها ثانيةً.

وضعت (زاد) القدح أمامها، مبهوتة. وسألته بشيء من الخوف:

ـ حقاً؟

كانت تعض على شفتها. بينما نجح هو بذلك في أن يزيح عبئاً كبيراً عن عقله. ومد (هسه) يده إليها، فاحتضنتها يد (زاد) في تعطف. قبل (هسه) يدها بنعومة وفي تبجيل، وكأنه يوقع على معاهدة سلام بينهما.

جلسا على مقربة من بعضهما وسط زحام الكافيه، وحكت له (زاد) عن الأسود القادم من تمبكتو، وعن الخصي الذي علمها الصلاة في موطنها، وعن الجراند رو دي بيرا، الأجمل كثيراً من شوارع برلين جميعها، وعن الأمير عبد الكريم، الذي كان من المخطط أن تتزوجه.

سألها في قلق:

ـ ولكنكِ لن تفعلي، أليس كذلك؟

ـ لم يسبق لي رؤيته أصلاً. كل ما أعرفه عنه هو أنه في الثلاثين من عمره. وقد اختفى بعد الثورة. وبمعنى أوضح أقول أنه تخلى عن فكرة الزواج مني. ولكني أعتقد أن هذا لم يكن ليغير من الأمور شيئاً.

نظر (هسه) إليها في تفهم، وشعر أنه أحياناً ما تكون هناك حاجة إلى مزيد من التفاصيل عن تلك الثورة.

ـ ما الذي تخططين للقيام به بعد أن تنتهي من دراستك؟

تأملت (زاد) بعيون حالمة سلة الفطائر فوق الطاولة أمامها، قبل أن تختار كعكة شوكولاتة.

ـ لسوف أتزوج رئيس الولايات المتحدة أو ملك أفغانستان.

كانت شفتاها بيضاء من السكر. وتناولت في سعادة سيجارة من (هسه)، الذي سألها:

ـ ولكن هل سبق لكِ أن أغرمتِ بأحد؟

أبعدت (زاد) السيجارة. واحمر وجهها، واختلجت عيناها الرماديتان. وقالت في غضب:

ـ لا أحد في أوروبا يحسن الأدب واللياقة. ولا أحد يتحدث عن الحب مع سيدة غريبة عنه. كما أن لا أحد يحدق في سيدة بعينين جريئتين. نحن نعرف عن الحب مثلما تعرفون، ولكننا لا نتحدث عنه بهذه البساطة. ولذلك تصفونا بالهمج.

كم هي جميلة في غضبها. تتسع عيناها، وتنفث دخان السيجارة في عصبية، وقد أدركت بكل يقين أنها قد وقعت رغم عنها في هوى (هسه).

نظر (هسه) إليها، وقال لها في أسى:

ـ لم أكن أقصد أن أجرح مشاعرك، (زاد). لم يكن سؤالي بدافع الفضول ولكن.. حسناً... بسبب... تفهمينني؟ لا أعرف كيف أقول ذلك؟ آه...

سكت، وهو ينظر حوله، محرجاً. ربما توجب عليه أن يعترف بحاجته فعلاً إلى القراءة في التحليل النفسي.

حدقت فيه (زاد) في دهشة صامتة. هؤلاء الأوروبيون سذج للغاية في الأمور العاطفية. ليست لديهم تلك اللمسة التركية. أبعدت السيجارة وهي تنظر إليه في شفقة، وتقول له في بساطة:

ـ قل لي.

ـ شيء غريب حدث في حياتي. ولهذا أحاول أن أسأل الآخرين عن المعنى الحقيقي للحب. كنت متزوجاً، ولكني الآن مطلق.

نظرت إليه (زاد) في هدوء وبراءة. فمها نصف مفتوح، وشفتها العليا منسحبة لأعلى.

وفجأة، مالت إلى الأمام وهي تسعل بشدة. كم هم غريبي الأطوار هؤلاء الأوروبيين. قالت له في تعاطف:

ـ أفهمك. لم تكن زوجتك تنجب، فكان عليك أن تنفصل عنها.

ـ تنجب؟ وما علاقة الإنجاب بذلك؟ (ماريون) لم تكن ترغب من الأصل في الإنجاب.

انتقلت الدهشة منه إلى (زاد):

ـ لم تكن ترغب في الإنجاب؟ ولكن هذا هو دورها الأساسي.

ـ يا إلهي، إن الموضوع مختلف بالمرة. كان لدي صديق مقرب. وكان يأتي لزيارتنا دوماً. وذات يوم، هربت (ماريون) معه.

هز كتفاه في تسليم، بينما اتسعت عينا (زاد) عن آخرهما في اندهاش.

مضت برهة من الوقت، قبل أن يتضح الموقف كاملاً أمامها.

ـ آه، فهمت. أنت اقتفيت أثرهما وقتلتهما. وصرت الآن مطارداً تختبئ في بلد غريبة، بعيداً عن يد العدالة ومطالب الثأر. هناك العديد من القصص مثل قصتك.

إنزعج (هسه) من أن (زاد) تراه شخصاً قادراً على القتل. فقال لها في افتخار:

ـ لا أحتاج لأن أختبئ من أحد، كما أن المحكمة تقف إلى جانبي.

ـ في بلادي، توضع إمرأة مثلها في جوال مع قطة برية ويلقون بها في مياه البسفور. بينما يحكم على الرجل بالموت. وعندئذ تتحق العدالة. وهل يختبئ عدواك بهذه المهارة لدرجة أنك عاجز عن الوصول إليهما؟

ـ كلا. ففي هذا الصيف كانا في جبال تيروليان. ولكن بالمناسبة، لماذا تسمينهما عدوّان؟

لم ترد (زاد) عليه. فلا جدوى من محاولة أن تشرح لهذا الشخص معنى الحب. ها هو جالس أمامها، كما لو أنه جالس وراء جدار زجاجي. نظرت في قدحها الفارغ، وشعرت بشيء من الرضا. ارتاحت بعدما تأكدت من كونه غير متربط.

سألها فجأة:

ـ ما رأيك في التحليل النفسي؟

ـ ماذا تقول؟

كانت مندهشة للغاية. إن تسلسل أفكار هؤلاء الناس مغاير تماماً لطريقة تفكير باشاوات البسفور.

ـ التحليل النفسي.

ـ وما هذا؟

ـ المحلل النفسي هو شخص يتأمل أرواح الناس بعمق، بنفس الطريقة التي أنظر بها إلى عنقك.

ارتعدت (زاد) من الفكرة:

ـ كم هذا مريع. كيف يمكن لأحد أن يبوح بروحه لغريب؟ مؤكد أن هذا أسوأ من الاغتصاب. وحده نبي أو امبراطور يمكنه القيام بذلك. وإني لأقتل أي أحد يحاول أن يصل إلى روحي. ما الفارق بين هذا وبين المشي عارياً في الشارع.

سكتت، وهي تمرر يدها على جبينها. ونظرت فجأة إلى (هسه) بابتسامة جذلى، وقالت له في تسليم:

ـ أنا حينئذ أفضل من ينظر إلى أعناق الآخرين.

قاوم (هسه) رغبة عارمة في أن يحتضن الفتاة ذات العيون الرمادية. وصاح فيها أن تنهض معه. ولم تكن (زاد) تملك في تلك اللحظة سوى أن تطيعه.

عادا متشابكي الأيدي إلى السيارة. كان الليل قد حل. وأنوار الشارع تمتد في صفين لتتلاقى على البعد. حدقت (زاد) في الأنوار، وهي لا تفكر لا في منزلهم عند البسفور ولا في الباشا، الذي يجلس الآن في المنزل منتظراً عودتها. كان (هسه) مثل كائن ضخم يصعب عليها فهمه، وكأنه حيوان غريب الأطوار، وسيارته تبدو، تحت هذه الأنوار والظلال، أشبه بفيل ضخم مدرع. جلسا في السيارة، وقد أضحى الأسفلت أسفلهما مثل ضباب. إنطلق بالسيارة عبر كرفرشتندام، وانعطف إلى أوتوبان. ظهرت المنازل المربعة ذات الأسقف المسطحة، تمرق أمام أنوار السيارة. وكان برج الإذاعة يمتد شاهقاً في عنان السماء، مثل رمح معدني. إنطلقا عبر شارع أوتوبان العريض، وقد التزما الصمت. يزيد (هسه) من سرعته، فيعلو مؤشر السرعة. ويلتقي النسيم الرطب وجه (زاد). تأمل (هسه) خصلات شعرها المتطايرة وعيونها الرمادية الساكنة. زاد من سرعته مجدداً، وعند منعطف شعر بيد (زاد) على كتفه.

كانت السيارة تخترق الليل، وكأن سحراً قد مسها. وتوارت معالم العالم من حولهما، لتندمج في كيان رمادي واحد كله بهاء. الدم يتدفق في وجه (هسه) من فرط الإثارة. وقد غاب وسط كل هذه السرعة في غياهب إحساس بالحب لم يخبره من قبل. رأى الأسفلت أمام أضواء سيارته مثل شريط حريري لا ينتهي. صارت المرأة التي بجواره قريبة منه بغتة، لتكون هي

أبديته وسط دوامة السرعة المجنونة. كانت (زاد) في مكانها لا تحرك ساكناً، وعيناها نصف مغلقتان، وقد أذعنت لشعور مستكين لَم تتوقعه. تشبثت بالمقبض، وبدا لها كل ما حولها يتوارى في سحر العالم الذي يمرق سريعاً بجانبها. ألقت نظرة على مؤشر السرعة. كان يشير إلى رقم، ولكنها لم تعد تعرف ما إذا كان الرقم مرتفعاً أم منخفضاً. توحدت مع الرياح، والسرعة، وأعمدة الضوء الساقطة من برج الإذاعة البعيد. همست وقد أنهكت بالفعل... «يكفي». استجاب لها في صمت، وعاد بالسيارة إلى البلدة، متخلياً عن سرعتها المجنونة.

عندما توقف بالسيارة عند المنزل في شارع أولاند، كان وجهه شاحباً متعباً. أحاطت يد (زاد) بعنقه، ومال هو نحوها.

- أشكرك

قالتها (زاد) بصوت عذب، بدا وكأنه يأتي من بعيد. ثم شعر (هسه) بدفء وجهها، ولهيب أنفاس شفتيها الطفوليتين. كانت شفتا (زاد) قريبة للغاية. مال نحوها وفتح عينيه. لم يتحرك وجهها؛ وكأنها تنظر في لهفة واشتياق إلى شيء لا يراه سواها - شيء بعيد... بعيد للغاية.

- أشكرك

قالتها مجدداً، وهي تخرج من السيارة. ومن دون كلمة أخرى، دلفت إلى داخل المنزل، وبقى (هسه) يتابعها بنظراته...

... نظرات حائرة مفتونة.

الفصل السادس

«وهكذا تحدث أهل الصين: لنقضي على الترك. لا ينبغي أن يكون هناك أتراك بعد الآن. ولكن هكذا تحدثت السماوات عن الترك وعن أرضهم ومياههم المقدسة: «لن يصيب الدمار الأتراك. لنحفظهم آمنين لأجلنا». وبعد حديثها هذا، قبضت السماء على والدي، (إلتيريس خان)، من شعره ورفعته عالياً فوق الناس. ووالدي الخان تحدث. . .»

كانت (زاد) تبذل جهداً في التركيز، وهي تتبع الأحرف الرونية للنقش بإصبعها. وقالت لنفسها «ليكن معلوماً وليس تحدث». كانت منهكة، وبدأت التكوينات المربعة الملغزة لهذا النص العتيق تطفو مشوشة أمام عينيها. منذ آلاف السنين قامت مجموعة همجية من سكان منغوليا البعيدة بنصب شواهد بربرية تخليداً لعظمتهم. وراح الناس، وبقت الشواهد والنصوص. وبقت على منعتها وخشونتها وغموضها تطل على خواء السهول المنغولية لتنعكس صورتها على أنهار باردة بلا اسم. وتداعت الصخور، ومر البدو عليها ناظرين في وجل وخشية إلى آثار نصف مدفونة لمجد منسي قديم. وتاه الرحالة من البلاد البعيدة في تلك الأرض اليباب. ولما عادوا، حكوا عن تلك النقوش

غير المفهومة. وإليها، انطلقت البعثات، لتسجل الأيدي الماهرة نسخاً من علامات يجهل سرها الجميع. وسرعان ما طبعت النسخ على ورق أبيض نظيف، لتكون كتباً مستقرة في مكتبات المثقفين. وداعبت الأيادي النحيلة المخطوطة العتيقة، وطالعتها العيون بدهشة وتعجب. وقليلاً، قليلاً، تبدد ستار الغموض، وتحرر من تلك الرموز المربعة الخشنة عواء ذئاب السهول، ونهض البدو من رقادهم في تلك البلاد القصية، وظهر قائد يمتطي جواداً قصيراً طويل الشعر، وعرفنا حكايات المغامرات القديمة، والحروب، والبطولات. تأملت (زاد) المخطوطة الخشنة في رقة. وبدا لها أنها تقرأ حكاية أحلامها، ورغباتها، وآمالها. واستشعرت حالة مكثفة؛ شيئاً ما ينادي من خلف تلك القوالب والتكوينات اللغوية البدائية. أحست بأسطورة البداية المخفية في أقدام أصوات لبني جنسها. شاهدت طلائع قبيلة طموح، وهي تشق طريقها منذ القدم فوق السهول الثلجية، وهي تصنع من لغز روحها الأصوات الأولى للغتها. تتبعت أصابعها الصغيرة سطور المخطوطة، وقرأت في تمهل: «كان عمر أخي (كول تيجين) ستة عشر عاماً، واسمعوا ماذا فعل! ذهب ليحارب الأناس ذوي ذيول الخنازير وقهرهم. ألقى بنفسه في أتون المعركة، ووصلت يده، يد المحارب، إلى العدو أونج توتاك، الذي كان يقود خمسين ألف رجلاً».

رن الجرس. فرفعت (زاد) رأسها وهي تفرك عينيها المتعبتين. كانت تجلس في غرفة القراءة الصغيرة، ومن حولها يسمع عقلها همسات بالصينية، والعربية الجهيرة، والهيروغليفية التي تبتلع أحرفها الساكنة. قالوا بأنهم قد نجحوا في حل ألغاز

النيل كلها عدا النطق الصحيح لكلمة (أوزيريس).

نهضت (زاد) وألقت نظرة على المقرر. قرأت: «العثمانيون الأوائل... قاعة محاضرات رقم ٨، المحاضر: دكتور ماير». ولما توجهت إلى قاعة المحاضرات، التقاها الأستاذ المجري (زورامي) في الممر وأخبرها بنبرة مأخوذة ـ كان الانبهار واضحاً عليه ـ عن عنصر تركي مكتشف جديد في التراص اللغوي الفينو ـ أجوني. استمعت (زاد) إليه مشتتة الذهن. فهي لم تصادف سوى مرة واحدة في حياتها نموذجاً حياً لجنس الأرجو ـ فين. كان نادلاً بديناً أشقر من هلسنكي، تفوح منه رائحة الروم، ويمتلئ كلامه بسباب لا معنى له. وكم هو مربك لها أن تجد أن مهد بني جنسه هو نفس تلك السهول البعيدة التي انحدر منها العثمانيون الأوائل نحو الغرب.

قال لها الأستاذ المجري:

ـ إنه فعل مطلق. فعل مطلق.

فهمته (زاد). وتوجها معاً إلى قاعة المحاضرات، حيث كان (جوتز) الخبير في اللغة الصينية عاكف برأسه الأصلع على قصاصة ورقية، يشرح الرمز «تو ـ كي» للتتري (رحمن الله). رسم الخطوط المنحنية الجميلة وقال له بصوت جهوري:

ـ تفهم، زميلي أن في مثل هذه الحالات لا يكون المعنى مهماً. بل الصوت. فلا يوجد الصوت «ر» في الصينية. وهكذا تكون «تو ـ كي» علامة لكلمة «ترك» أو «تركي».

جلس (رحمن الله) في مكانه، فاغر الفاه، وقد انعقد حاجباه. نظرت عيناه الضئيلتان إلى الرمز، الذي لا أهمية

لمعناه، في غضب. وجاء (ماير) بوجهه الشاب، وشعره الأشيب، ومقدرته على التحدث بكافة اللغات الشرقية بلكنة أهل سوابيا. تحدث عن جبال أتالي الذهبية، والتي منها انحدر هؤلاء الناس؛ وعن أوجلوس خان، البطل الكبير، وابن كارا خان، الذي جعل الجيش للشعب؛ وعن أرطغرل، سلف العثمانيين، والذي واجه اليونان بأربعمائة وأربعة وأربعين فارس، وأسس الامبراطورية العثمانية. تحدث (ماير) بلكنته السوابية:

- كان لأرطغرل ثلاثة أبناء. عثمان، وجيدوسلاب، وسوراجاتي سافيدشي. وكان أولهم هو المؤسس الحقيقي للحركة، وتلك الحركة هي المهمة التي كرسنا أنفسنا لدراستها.

انتهى من كلامه مع رنين الجرس. كان رجلاً لديه شعور مستمر بالقلق، وبعيداً جداً عن أن يكون أكاديمياً مخضرماً.

هبطت (زاد) الدرج سريعاً. واندست في داخل المكتبة مثل حلزون يلجأ إلى قوقعته. ومن دون أن تختار، سحبت أول مجلد كبير من الرف، وأحبت مفاجأة أن تقرأ العنوان على غلافه: كوداكو بيليك، المعرفة المباركة، أخلاقيات الأوجور في القرن الثاني.

فتحت الكتاب وهي تعطي نفسها أمراً: «الصفحة خمسة عشر، البين الخامس عشر». كانت متشوقة للغاية، وهي تشرع في فك شفرة الجملة الأوجورية الغامضة. كان النص غير منتظم، والأشكال غير مألوفة. كان الجرس قد رن منذ فترة، ولكنها تجاهلته، وهي مستغرقة تماماً في أسرار الماضي. ونجحت في النهاية في حل اللغز: «كل ما يعرض عليك يأتي

ويذهب. ووحدها المعرفة المباركة تبقى. كل ما يعنيه هذا العالم سينتهي ويتبدد. ووحدها الكلمات المكتوبة تمكث في الأرض، بعدما يختفي كل الزبَد».

بدا المعنى كبيراً، ولكنه لم يؤثر مطلقاً على أفكار (زاد). تأملت ترجمتها، وهي تشعر كأنها وبعد كل هذا الجهد مثل من انتزع سدادة زجاجة ليجدها فارغة. احتفظت بالورقة وهي تتلفت حولها. وعندما تأكدت من أنها وحدها في القاعة، قامت بهرش رأسها بحركة سريعة مختلسة. كانت متيقنة من أمر واحد: لن تجري الأمور كما كانت تجري من قبل. سوف ينتظرها (هسه) في كل يوم أمام منزلها ليصطحبها إلى الجامعة. أو إلى «الغرونفالد»؛ تلك الغابة في غرب برلين. سيهديها الأزهار وهو يعلق على بهجة الحياة العائلية. وأحياناً ما يداعب يدها أو يمسح جبينها بشفتيه.

نظرت (زاد) متجهمةً إلى صفوف الكتب الممتدة. كل شيء كان ليختلف لو أنها، متوخية قواعد السلوك القويم، أخفت وجهها أسفل الحجاب. ما كان الدكتور (هسه) ليراها، ولبقت حياتها على بساطتها، وما كانت لتعذب عقلها في التفكير في لغز الحب بدلاً من دراسة الطلاسم التركية.

شرد ذهنها وهي تخدش الخشب الداكن للطاولة بأظفرها. من الخطأ أن يرحل المرء عن موطنه. ولكن والدها هو من حسم الأمر، وها هي الكارثة توشك أن تقع ـ غرام أجنبي مشاعره وأفكاره وتصرفاته مغايرة تماماً لكل ما تعلمته. تنهدت (زاد)، وهي تحتقر نفسها بشدة. فهي تشعر بانعدام تام لحيلتها. (هسه) يطاردها، ولا مهرب من غواية كلماته ونظراته وتلميحاته.

نهضت (زاد) واتجهت صوب الأرفف. نظر أمين المكتبة الأصلع الجالس يقلب في الكاتالوجات نحوها في تساؤل، ولكنها تظاهرت بالبحث عن كتاب بعينه، ومرت نظراتها المرهقة على عنوانين: قواعد اللغة السواحلية، ومقدمة إلى الشعر الفارسي من القرن ١١ إلى القرن ١٢.

«الزواج»، فكرت في حيرة، وهي تعود إلى مقعدها. تناولت ورقة وبدأت ترسم رؤوس شياطين، وأشكال هندسية، ونهايات خرافية لكلمات لم تسمع بها من قبل. ثم أبعدت القلم، واندهشت وهي تتبين على الورقة تلك الأحرف العربية الجميلة: «الأمير عبد الكريم». هزت رأسها وهي تكتب نفس الاسم بالأحرف اللاتينية. شطبت عليه، وكتبت اللقب التركي بالكامل: «شاه ساده عبد الكريم إفندي حظرتلاري»، وأدركت بغتة أنها بقت طوال الفكر تفكر من دون وعي في الأمير الغائب.

لم يسبق لها أن رأته، ولكنها شعرت بحضوره وقت أن كانت في قارب، يمر إلى جوار قصره، ورأت الخدم وحدهم في الشرفة. مؤكد أن ملامحه مميزة بالبشرة الشاحبة والأنف العثماني الطويل المعقوف. وربما كانت عيونه حزينة وفمه مزموم الشفتين. ربما ارتكن إلى الحزن والأسى، مثل السلطان عبد العزيز. وربما كان داهيةً ماكر، محنك، ومتوحش، مثل السلطان عبد الحميد. أو هو مثل محمد راشي، الحالم الهادئ، يعيش في غرفة نوم وحيدة ويغلق عينيه على عالم بأسره.

من أين لها أن تدري؛ وكل ما تعرفه هو أن هذا الأمير، الذي عاش في القصر المطل على البسفور، كان سيتزوجها،

وأن من المحظور عليها أن تهوى غيره، ورغم ذلك فقد وقعت في غرام همجي طويل الساقين مبتسم العينين. رحل الأمير، قبل حتى أن يراها، بل وربما لا يعرف أنها موجودة من الأصل. ربما كانت له يدان ناعمتان معتنى بهما، ويشعر بتوق منهك إلى الموت، وإلى أن يذهب منسياً في هدوء، مثل المرحوم يوسف عز الدين.

غابت الحياة عن منزل العثمانيين المتداعي. بينما (هسه) أقوى، وأشد صحة، وأقرب. هزت (زاد) كتفيها في تسليم. وبقت محتارة. ها هي ذي ترثي أميراً لم يعد بالأمير، ولم يسبق لها أن رأته. تناولت القلم ورسمت شكلاً زخرفياً جميلاً حول اسم الأمير. كتبت تحته: «زاد الساذجة»، وأدركت فجأة أنها ظلت طوال حياتها أسيرة الارتباك بين النصف حلم والنصف حقيقة. أزاحت الشعر عن جبينها في غير تعجل، ثم بحثت في حقيبتها، حتى وجدت كراسة، وأخرجت قلمها الحبر، وانشغلت تكتب ببطء وعن قصد:

«إلى سمو الأمير عبد الكريم إفندي حظرتلاري». توقفت تتأمل تلك الكلمات لبرهة من الوقت، وهي مقتنعة أنها لا تقل جنوناً عن آخر العثمانيين. ثم تناولت القلم مجدداً وعادت تكتب: «جلالتكم! لم يسبق لكم رؤيتي، وربما لا تتذكرون اسمي. كان جلالته، إمبراطورنا المبجل وأمير المؤمنين، قد أمر - بمشيئة الله - أن أدخل قصر سموكم لأكون خادمتكم المطيعة وزوجتكم المخلصة. ولكنني سيئة الحظ للغاية، سموكم، فقد شاء الله خلاف ذلك. وأنا اليوم أعيش في برلين وأتردد على دار الحكمة، حيث أدرس تاريخ أسلاف جلالتكم المجيد. وكلي

أسى، فأنا وحيدة بمعنى الكلمة، ولا أرتدي الحجاب، ويراني الكثير من الرجال الأغراب. ليعاقبني الله القدير! ولكن بالنسبة لامرأة لا ترتدي الحجاب فإن الابتعاد عن الإثم أمر صعب للغاية. أنني ألقي بنفسي على قدميكم المبجلتين واستعطفكم: خذني إليكم أينما كنتم، حتى أكون في خدمتكم وأتنفس هواءكم. ولو كنتم تكرمتم وتنازلتم لتعملوا في مقهى ما، فلسوف أنتظركم مساءً لأدلك قدميكم. ولو كنتم تقودون سيارة أجرة عبر الشوارع الضيقة لبلدة غريبة، فلسوف أحضر لكم ترمس القهوة الساخنة وأودعكم عند المغادرة للعمل. ولكن إن شئتم ألا تشملني رحمتكم، فإنني أتوسل إليكم تحريري من هذا الارتباط حتى أكون حرة وأنا أتردى في هوة الحب، والتي هي مصير كل من لا تلتزم بالحجاب. فأنا صغيرة السن، جلالتكم، ولم تكتمل تنشئتي في دار أبي عندما سلبوا الدار منا. ولهذا فأنا ضعيفة ولم أتحل بعد بالصبر وضبط النفس التي أمر الله أن تتحلى بهما النساء. وكثيراً ما أفكر فيكم، وفي قصركم على البسفور، وفي الأشجار التي تنمو في حديقتكم، والتي رأيتها عندما كنت أمر بالقارب إلى جوار المكان، زمن أن كنت أعتقد أنني سأستظل بظلها عندما أكبر. لا تغضبوا مني، سموكم، فأنا أمتكم، المنقادة بواجب طاعتكم، حسبما تفضل به إمبراطورنا وسيدنا».

وقعت (زاد) الخطاب قبل أن تطويه وتضعه في مظروف. ولكن سرعان ما أخرجته ثانيةً وذيلت الخطاب، وهي محرجة من نسيان ذلك:

«ولو شاء سموكم حرماني من ردكم، فإنني أخشى أن يكون

في ذلك ما ينم عن عدم رضاكم عني، وهو ما سيدفعني أكثر إلى أتون حب أجنبي».

أغلقت المظروف، ونظرت إليه في حيرة. لم يكن أحد يعرف مكان الأمير. تحرك طرف لسانها ببطء من الركن الأيمن لفمها إلى الأيسر. ثم كتبت:

«إلى الأمير المنفي عبد الكريم، عبر حكومة الجمهورية التركية. هام جدا! يرجى تسليمه»!

لم يكن هناك من أمل أبداً في أن يصل هذا الخطاب على وجهته. نهضت وغادرت المكتبة. نظر أمين المكتبة الأصلع إليها باحترام واستحسان. قال لنفسه:

- يالها من طالبة مجدة. أتساءل عما إذا كانت ستثبت جدارتها؟ وسأكون آسفاً لو أنها لم تنجح».

في تلك الأثناء، مشت (زاد) عبر شارع دوروثين. لوح لها (هسه) محيياً. اتجهت نحوه، ودلفت إلى السيارة، وقال لها (هسه) أنه سيكون من الجميل أن يقضوا شهر العسل في التجوال عبر إيطاليا.

- توقف

أوقف (هسه) السيارة.

ترجلت منها، واتجهت صوب صندوق بريد، وألقمته الخطاب. وعندما عادت إلى داخل السيارة، رجعت بظهرها في المقعد متوانيةً، وهي تقول:

- إيطاليا؟ تعتقد هذا؟ أرى أنها فكرة لطيفة للغاية.

بعدها سكتت، وانشغلت بالنظر عبر النافذة.

إنها تحب (هسه).

تحبه حقاً.

الفصل السابع

جلس «أحمد باشا» في مقهى وطن وقد أدرك أن الفوضى قد عصفت بحياته. بينما انشغل الهندي وراء الكاونتر بالتسبيح بمسبحته؛ و«زمرد» الساقي من بخارى يقدم القهوة؛ و«أورخان بك» الشركسي يدلي بدلوه في مسألة أن أقدار الله مستغلقة على البشر.

- الدين لا يحرم هذا.

هكذا قال «زمرد» معلقاً على ما يسمع. فأجابه الباشا حزيناً:

- نعم... الدين لا يحرم هذا.

كان شيخ الطائفة الأحمدية جالساً إلى جواره يداعب لحيته بأصابعه. قال له بنبرة مبهمة:

- الكل واحد وواحد هو الكل. باتحاد الجسد يحقق الإنسان اتحاد الدم.

ارتشف رشفة من الشربات، قبل أن يناول الباشا سيجارة.

نحى الأستاذ الهندي مسبحته جانباً، وهو يقول بوجوم:

ـ لله حديث قدسي ذكره الرسول (ص) يقول فيه: أن تكون عبداً مؤمناً خيراً من أن تكون كلباً كافراً.

بادره «زمرد»:

ـ ولكن هذا ينطبق فقط على الكفرة. لقد كتب إمام بخارى تعليقاً على هذا الحديث.

عادوا جميعهم إلى الصمت، بينما دلف الشركسي إلى الغرفة المجاورة.

وقال الباشا:

ـ للحق أقول بأنه ليس كافراً بالمعنى الصحيح للكلمة. إنه صاحب فكر حر.

أطرق برأسه حزيناً، بينما قال الهندي في لامبالاة:

ـ أنت محق، جنابك، كما أنه غني.

دلف السوري البدين إلى المقهى، وفي الحال قال:

ـ وما المال؟ تراب تحت عرش الوهاب. أين هي ملايين عبد الحميد؟ هل أنقذت له عرشه؟ يقول ولي من أولياء الله في صحراء نيتش...

لم يتم جملته، لأن «زمرد» وضع قدحاً من القهوة أمامه، وقال الأستاذ الهندي بنفس اللامبالاة الحزينة:

ـ كم أنت محق.

مرت دقائق، بعدها طلب الباشا قهوة أخرى بإشارة من إصبعه الأسمر النحيل. كانت عيناه شاردتان، وفكر أنه قد يضطر

إلى العمل في متجر السجاد، في حال لم يرسل إليه ابن عمه في كابول مالاً عما قريب.

وحدها الهمسات كانت تقطع حبال الصمت في المقهى. مغربي يتحدث إلى «زمرد»:

- ... واستل سيفه وقتل به ألف كافر. كان الريف كله إلى جانبه. كل القبائل. وزحف إلى فاس. سيصير الخليفة، ويندحر الكفار.

- صح لسانك.

أمّن «زمرد» على كلامه بحماس، وهو يصب له القهوة.

أتاهم صوت الشركسي من الغرفة المجاورة:

- تفضل، أخي، سيكون الباشا مسروراً.

خرج إليهم، وهو يصطحب معه رجلاً ملتحياً قوي البنيان، له عينان داكنتان ساذجتان. وقا:

- معاليك... أقدم لك «علي سوكولوفيتش»، تاجر من سراييفو.

انحنى البوسني في أدب، وكان السرور واضحاً على وجهه، لكونه في حضرة باشا حقيقي.

قال له الباشا، رافعاً حاجبيه:

- من سراييفو. إنها بلدة معروفة.

أجابه التاجر مسروراً:

ـ أجل، معاليكم.

ـ أملي أن يكون أهلكم متقين ويتبعون تعاليم ديننا؟

ـ هكذا هم، جنابك. وما البشر من دون الله؟

حدثه عن مدارس سراييفو ومساجدها، وعن زمن الحكم التركي، وعن والد الباشا، والذي أقام في البوسنة وقاد الجيوش.

ـ العالم لا يعرف عنا إلا القليل، ولكننا أناس مسالمون ومتقون. لدينا حكماء وأئمة ومساجد. ألا يفكر جنابكم في السفر إلى سراييفو؟

كان «أحمد باشا» يداعب شاربه بإصبعه وهو ينظر في اللا شيء:

ـ ربما... أتعرف عائلة اسمها حسنوفيتش في سراييفو؟

ـ هناك عدة عائلات، سيدي.

ـ أقصد تلك التي انقسمت إلى قسمين. أحدهما يعيش في فيينا.

أومأ التاجر برأسه، ببشاشة يشوبها الحرج.

ـ الخطأ ليس خطأنا، معاليك، فدائماً ما يكون هناك خروف أسود في القطيع. كان هناك رجلاً اسمه «محمد بك حسنوفيتش». سافر من سراييفو إلى موستار. في تلك الأيام التي نعمت فيها بلادنا بحكمة والدكم. وهاجمه في الجبال رجل اسمه «حسينوفيتش» ـ أو أنه هو من هاجم «حسينوفيتش» ـ الله

وحده يعلم الحقيقة. ولكن «حسينوفيتش» هو الذي لقى حتفه هناك. كنا أناس بسطاء، والجبال تشهد الكثير من تلك الحوادث الدموية. وهكذا تورطت العائلة في صراع دموي دام ثلاث سنوات. وبعدها قرر «حسنوفيتش» أن يصطحب كل ما يملك وزوجته وابنه وحاشيته ويرحل إلى فيينا. وهناك وقع في فخاخ الكفر. وصار ابنه ثري وحفيده حكيم. ولكن الله يعاقب المرتدين. فقد ابتلوا جميعاً بزوجات سيئات جلبن العار عليهم.

انتهى التاجر من كلامه. وجلس في هدوء إلى الطاولة، يشرب ويمضغ التبغ، فيتحرك شاربه حركة منتظمة. ثم مضى، بخطوات متثاقلة، وكأنه أجمة على الأرض. وبقي الباشا جالساً في مكانه. ساكتاً، يدخن وهو مستغرق في أفكاره. ثم وجه كلامه للأستاذ فجأة:

ـ هذا ما حدث. هذا ما حدث لأن والدي لم يمتلك قوة شرطة منظمة. ولو كان هناك قانون ونظام، لما هجم «حسينوفيتش» على «حسنوفيتش»، ولكان كل شيء قد جرى على ما يرام. هكذا يرث الأحفاد آثام الأجداد. ومع هذا فإنني سأرفض.

مال الأستاذ نحوه، قائلاً:

ـ لو كنت مكانك، معاليك، لرغبت في أن أرفض، ولكني لم أكن لأعلن رفضي.

ـ لماذا؟

ـ من يرفض يكون بين يديه خيار أفضل. وأنت لا تمتلك ما هو أفضل، باشا.

ـ كل شيء يتغير.

ـ لا بأس، باشا، طالما كانا يحبان بعضهما.

ـ على أيامنا، أستاذ، لم يكن هناك حب قبل الزواج.

ـ على أيامنا، باشا، كانت النساء ترتدي النقاب.

ـ معك حق يا أستاذ. سوف أتحرى ما إذا كان على خلق.

نهض وغادر المقهى. تابعته عينا الأستاذ، بينما علق «زمرد» في حزن:

ـ خمسة أقداح قهوة جديدة تضاف على ثمانية عشرة قديمة... المجموع خمسة وعشرون.

ـ بل هي ثلاثة وعشرين، «زمرد».

دوّن «زمرد» الرقم، وهو يقول بحزن:

ـ ثلاثة وعشرون. إنها هانم جميلة. أيمكن أن تسعد في حياتها مع كافر؟

ـ الواحد لا يتحدث في تلك الأمور، «زمرد». وبوسع أي هانم من اسطنبول أن تفعل أي شيء؛ بما في ذلك أن تكون سعيدة.

سكت وانشغل بأقداح القهوة. كان راضياً عن كونه لم يرزق بابنة تظهر أمام الناس من دون حجاب، وتغرم بغريب.

* * *

مبنى الإمباير ستيت، الجادة الخامسة، نيويورك

مائة طابق وطابقان، به شقة فوق سطحه ذات أرضية دوارة من الباركيه، وفرقة موسيقى الجاز، وفرقة استعراض كلها من الفتيات، وجدران زجاجية، ومن خلفها إطلالة على مانهاتن.

جلس «جون رولاند» إلى طاولة جوار النافذة. كانت الأرضية الباركيه تدور، بينما تحرك الفتيات سيقانها في أداء استعراضي جريء. أعلن «رولاند» عن طلبه، وهو منشغل بسيقان الفتيات:

ـ واحد مارتيني... دوبل.

جرع الشراب المر المثلج مرة واحدة. ونهض وقطع أرضية الباركيه الدوارة. من تحته مائة طابق وطابق لمبنى تمتزج فيه الحياة بالحب، بالعمل، بالنوم ـ وكأنها مدينة وحدها. خرج إلى الشرفة الزجاجية. أمامه أشباح الأبراج المربعة، مرصعة بالأضواء عبر نوافذها. فتبدو طوابقها المنيرة وكأنها معلقة في الهواء، تمسك بها قوة خيالية عاتية. وتبدو الشوارع البعيدة في الأسفل مثل قيعان أنهار جافة، وهناك على البعد تلك البقعة المعتمة وسط المدينة المنيرة: السنترال بارك.

مال «جون رولاند» بجسده إلى الأمام. أتاه نسيم قوي من ناحية ضفة نهر هدسون. تطلع «رولاند» إلى أسفل، بعيداً، نحو الشارع، وشعر بالدوار لثوان. قال لنفسه وهو يتراجع:

ـ كلا... كلا.

عاد يطلب من الساقي كأس مارتيني آخر، ونظر إلى رسغه وأوردته الزرقاء التي تنبض بقوة.

ـ كلا . . . وقت آخر . . . ليس الآن.

عدّل من وضع سترته البيضاء، ونظر إلى المرآة. كانت فرقة الجاز تعزف إيقاعاً عاصفاً. مر «جون رولاند» بيده في حنين على جيب سترته الأمامي. فهناك يقبع حصنه الحصين ضد هذا العالم، ملفوفاً في منديل من حرير: جواز سفر لمواطن أمريكي اسمه «جون رولاند»، سليم وقانوني، ودفتر شيكات لبنك نيويورك تشيس ناشيونال، باسمه.

هكذا يشعر «جون» بالأمان والحماية. تناول كأساً من الويسكي، وهو يعرف أنه سيعاني من الصداع في الصباح التالي. وقد اعتاد ذلك الصداع في كل صباح على مدار سنوات، ولكن هذا لا يعني أن عليه أن يلقي بنفسه الآن منتحراً من هذا الارتفاع. كان يطمح إلى أن تكون نهايته مختلفة عن نهاية أخيه، وأبيه، وجده.

صاح يطلب كأس ويسكي آخر، وقد صارت أفكاره أوضح. هو الآن متيقن تماماً من خطأ أن يسمح للعالم الشاب بالدخول بعد ألف متر فقط. فلابد أن يظهر الشاب في أول مائتي متر، والبقية تكون زووم. ربما على هذا النحو: العالم الشاب في مختبره الضخم، يكافح الملاريا الاستوائية.

أثنى «جون رولاند» على تلك الفكرة، وتمنى ألا ينساها في الصباح. نهض وألقى بعدة دولارات على الطاولة، وتوجه نحو المصعد، وتطلع في مرآته إلى جسده النحيل، وهو يرتدي سترة بيضاء وربطة عنق بنفس اللون. سمع في أذنيه صفير، أثناء الهبوط السريع للمصعد الخشبي. ولما وصل الشارع، فتح باب

سيارته، وقادها ببطء عبر الجادة الخامسة الخاوية إلى السنترال بارك، حيث انعطف وتوقف عند فندق باربيزون بلازا. وناوله موظف الاستقبال مفتاحه وخطابات. نظر «جون رولاند» إلى الموظف، وفجأة بدا التعب والحزن على عينيه. وفي غرفته ارتدى منامته، وصب ـ بعد تردد ـ كأس ويسكي، وجلس إلى مكتبه. فتح الظرف الكبير، وفكر في الراسل، متعهد الأفلام «سام دوث»، واسمه الحقيقي «بريكلس هبتموانيديس»، ولكن تلك قصة قديمة.

عزيزي جون،

مرفق مجموعة من الخطابات التي وصلت إليك. وأهمها خطاب المنتج. وأعتقد أنه ينتظر بعدما دفع ١٠ آلاف دولار أن يتم نقل تصوير مشهد الاختطاف إلى هاواي.

تنهد «جون رولاند» وقرأ خطاب المنتج، وهو يفكر في أن من الأفضل له أن يكتب أشعاراً غنائية ويتركه من سيناريوهات الأفلام التي يتوجب عليه أن ينقل فيها مشاهد الاختطاف إلى هاواي. ثم فكر في المنتج، الذي لديه آلاف المشاهد المصورة في هاواي والتي لم تستخدم، فقرر أن يغير في السيناريو، خاصة وأن ١٠ آلاف دولار مبلغ لا يستهان به.

الآن إلى بقية الخطابات: عروض، فواتير، استفسارات، جميعها في أظرف منتفخة، مطبوع عليها أسماء الشركات المرسلة لها. مظروف وحيد كان مستطيل الشكل، وليس عليه اسم راسل. تناول «جون رولاند» الخطاب، وهو لا يدرك أنه يحمل بين يديه معجزة. وبغتة، احمر وجهه من الغضب

وتضخمت العروق الزرقاء في جبينه. وتصاعدت نبضات قلبه وهو يقرأ... «إلى سمو الإمبراطور».

ألقى بالخطاب إلى ركن الغرفة، وهو ينهض غاضباً

- غبي.

كان يقصد مدير أعماله، وتوجه إلى الهاتف، وطلب رقماً، وانتظر حتى سمع صوته، ثم صاح فيه بكل غضب الدنيا:

- «بريكلس هبتموانيذيس»... كم مرة أخبرتك فيها أن الخطابات من هذا النوع تلقى على الفور في سلة المهملات.

كان مديره سكران. وتمتم بكلام غير مفهوم بلغة أجنبية. سبه «جون رولاند» وهو يغلق الخط بقوة. أخذ يجوب أرجاء الغرفة وهو يرمق الخطاب. وفجأة، قرر أن يلتقطه، وأخرج الرسالة بقوة من الظرف، وقرأ السطور المكتوبة بخط جميل باللغة التركية. كان يهز رأسه في حيرة. وصاح:

- أنباري. أليس هو ذاك الوزير؟ هو لديه ابنة إذن. حسنا، حسنا. لا بأس، أعتقد أنه كانت هناك فكرة كهذه.

أغلق عينيه، وهو يشعر أنه قد بدأ ينتقل إلى عالم خيالي، لا صلة له بالواقع. ثم عاد يهز رأسه، قبل أن يجلس مرة أخرى إلى مكتبه. شعر بالخجل وهو يكتب بالتركية، من اليمين إلى اليسار.

عزيزتي «زاد»،

أنا لم أعد ما كنت عليه، وأتمنى وبكل صدق أن لا تبقي على ما أنتِ عليه للأبد. لقد أراد قائدنا وسيدنا أن

نكون معاً؛ ولكن هذا كان في عالم آخر. ولكِ أن تريحي ضميرك الآن، فأنا اعتبر غير موجود. وهكذا لكِ مطلق الحرية. فليس كل شيء يسمونه خطيئة يكون خطيئة. وربما أكون أنا المخطئ، عندما أعتقد أنني لم أعد أنا الذي كنت عليه. أنتِ تدرسين حياة أجدادي وتحنين إلي. وهو ما يدهشني. فأرجو أن تنسيني. ولو قدر لي أن أعود إلى الحياة ثانية، فسوف أتصل بكِ، ولكن الأفضل لكِ ألا تنتظري. واسعدي. وأنا لن أوقع باسمي في نهاية هذه الرسالة... فأنا غير موجود.

ختم «جون رولاند» الظرف وأغلقه، وألقى به في صندوق البريد الأسود في الطرقة.

ـ لطيف جداً.

لم يكن يعرف ما إذا كان يقصد بوصفه هذا صندوق البريد، أم الفتاة الغريبة التي اسمها «زاد» وتدرس حياة أسلافه. خلع ملابسه، وتمدد في فراشه. وبدأ الألم يزحف متوغلاً في أرجاء جسده. فسارع بتناول كأساً آخر من الويسكي.

ـ هاواي... ألفا متر... أجل.

* * *

احتضن «أحمد باشا» الدكتور «هسه»، وقال له:

ـ أجل. أنت تبدو لي رجلاً طيباً. وإني أهبك ابنتي، رغم أنها كانت لرجل آخر. ليعينها الله على خدمتك. وأنا أعرف أن الأمر ليس سهلاً. وامنحها العديد من الأطفال، فلسوف تحب

هي ذلك. ولقد أحسنت تربيتها، فهي مؤدبة ذات سلوك قويم. وعليك بتقويمها لو أنها أساءت التصرف.

عاد ليحتضن «هسه»، وهو يحبس دموعه، ويكاد يبكي. ونظر «هسه» إليه... محرجاً... وسعيداً.

الفصل الثامن

كانت (زاد) راقدة على ظهرها في الديوان، تتطلع إلى (هسه)، الذي بدا أشبه بطفل ضخم غريب المنظر. مال إليها، فانتبهت إلى عبق بشرته ودفء شفتيه الفاغرتين. يداها مدسوستان في الوسائد، وفي عينيها مزيج من التوق والخوف. اقتربت شفتا (هسه)، أكثر، وصارت أكبر وأكبر. احتوتا فم (زاد)، ومسحت وجهها، وشعرت (زاد) كأن جسدها يذوب في تلك الثغرة الضيقة بين شفتيه المفتوحتين. لامست يد (هسه) عنقها. وشعرت بأصابعه تمر على يديها، فاستجاب جسدها لتلك اللمسة القوية، الغريبة. حولت وجهها جانباً، وضغطت يد (هسه) على نهدها.

ردد (هسه) اسمها، بينما جذبت هي رأسه لتستقر جبهته على خدها المحموم. جسد (هسه) قريب للغاية. ومن وراء أجفانها نصف المغلقة، رمقت (زاد) سترته الداكنة والمثلث الأبيض الظاهر من قميصه. عادت شفتاه لتحتضن فمها؛ واستمعت إلى أنفاسه وهي تنتقل إلى عالم آخر، غريب، عالم من أحلام، فيه الأحاسيس ملموسة وواضحة قوية، وليس كما في العالم الذي نعرفه. وكأن (هسه) ساحر قدير يمتلك قوة غامضة تتحكم في حواسها وتأسرها، من دون أمل في الفرار

منها. شعرت بيديه على جسدها النحيف، وارتاح كيانها بالكامل إلى تلك الراحتين القويتين الغريبتين.

- كفى.

قالتها وهي تقصدها، وتنهدت، تنهيدة محتارة ذاهلة.

نهض (هسه) في حرج، وهو يختلس النظرات إلى (زاد)، فهو لا يعرف كيف وصل إلى الديوان، وكيف صار على هذه الدرجة من القرب من العيون الرمادية، التي تنظر إليه بتمنع ضاحك. بدا أن (زاد) تعرف ذلك تمام المعرفة. أشارت إليه أن يجلس، قبل أن تسند رأسها إلى ركبتيه، وهي تدندن بأغنية غريبة رتيبة الإيقاع. نظرت إلى (هسه)، وشعرت بامتنان لكونها ولدت عند مياه اسطنبول الحلوة، حيث يتعلم المرء الحب بأشكاله، وألغازه، وتعبيراته، وغموضه.

زادت عتمة الغرفة، فأشعل (هسه) مصباحاً صغيراً. سقط الضوء على وجهه، وبدأ يتحدث عن قضاء شهر العسل في إيطاليا. فقالت له (زاد) وهي ترفع رأسها:

- لن أذهب إلى إيطاليا. بعد الزفاف سنذهب إلى سراييفو.

سألها في دهشة صادقة:

- إلى سراييفو؟ ولكن لماذا؟

- أوه... سوف نذهب وحسب.

وكأن هذا الرد كافياً، لأن عيناها رماديتان، ولأن (هسه) مجرد إنسان. مسحت (زاد) خدها على ركبتيه، وهي تحدق بتوق في الظلمة. وفجأة، اتسعت عيناها عن آخرهما.

ـ مربيتي. حكت لي مربيتي أن تيمور لنك عندما استولى على مدينة سيواس، جمع أشجع محاربيها والمصابين بالجذام وأمر بقتلهم جميعاً ـ الشجعان حتى لا تنتقل عدوى شجاعتهم إلى الآخرين، والمرضى حتى لا ينتقل المرض منهم لغيرهم. أمر بأن يدفنوا أحياء. ربطت رؤوسهم إلى سيقانهم، وتم تجميعهم معاً ـ كل عشرة معاً ـ ليشكلوا كرات عملاقة، يلقون بها في الحفر، فيموتون اختناقاً. ونبهتني مربيتي إلى أن الشاهد من هذه الحكاية هو أن أنأى بنفسي عن الإفراط في الشجاعة وكذلك الإفراط في الضعف. ولكنني أرى أنه ليس في ذلك خير كثير.

ـ هل ستخلصين لي؟

سألها (هسه)، لأنه لم يكن يعرف ما ينبغي أن يقوله، كما أنه تذكر ماضيه.

ـ الخيانة لا توجد إلا في الروايات والحكايات، وليس في الواقع. طبعاً سأكون مخلصة لك.

ورفعت رأسها في افتخار، وهي تعقب:

ـ اجمع أجمل مائة رجل في العالم وضعهم معي في جزيرة مهجورة. وعد إلي بعد عشرة أعوام. ولن تجد أن أحداً منهم لمسني. الرجل وزوجته مثل حبتي فول سوداني في داخل قشرتهما، هكذا قال الساعدي الحكيم.

جلست إلى الديوان متبرمة، وقد وضعت ساقاً فوق الأخرى.

ـ هل تعشقينني؟

كانت دهشة (هسه) صادقة.

أحنت (زاد) رأسها، وهي تبتسم:

ـ المرء لا يتحدث عن الحب. اليدان، والعينان، وتلك الطرحة التي تنسدل ساقطة ليلة الزفاف ـ جميعها تتحدث عن الحب. القبلة ليست نقشاً على شاهد قبر ـ هكذا قال حافظ العظيم.

غمغم (هسه):

ـ الساعدي يقول شيئاً، وحافظ شيئاً آخر. فما الذي تقوله (زاد)؟

نهضت (زاد)، وجابت أرجاء الغرفة في خفة.

ـ (زاد) لا تقول شيئاً. (زاد) لا تتحدث عن حبها ـ بل تظهره.

وقفت في ركن الغرفة، ورفعت يداها، وانطلقت في حركات جمبازية رشيقة في أرجاء الغرفة. نهضت ووقفت مجدداً، متهدجة الأنفاس:

ـ هكذا أعبر عن مدى عشقي لك.

ـ سيكون عليكِ أداء نفس هذه الحركات هناك في فيينا، في الحلقة، حينما يسألك أصدقائي عما إذا كنتي تحبينني.

اختلجت أجفان (زاد):

ـ تقصد أن أصدقائك سيسألونني عما إذا كنت أحبك؟

ـ بالطبع سيفعلون.

ـ سأقضم أنوفهم إن فعلوا. لا علاقة لهم بذلك.

وقفت أمام (هسه)، ويدها تلامس ذراعه، وقالت له بنبرة كانت مزيجاً بين المداعبة والاستجداء.

ـ أوه، (هسه)، دعني أرتدي الطرحة. سيكون هذا أفضل.

ضحك (هسه)، فلكزته (زاد) في كتفيه. وصاحت فيه بغضب مصطنع:

ـ لا تضحك كالأبله. أنت محظوظ بزوجة لا مثيل لها.

ركضت نحو ردهة المدخل، وارتدت معطفها. وأخبرها (هسه) أنه سيصطحبها إلى المقهى حيث ينتظرها (أحمد باشا)، وضمت هي إليها حقيبة يدها. ففي تلك الحقيبة ذلك الخطاب من الأمير المجهول.

وصلت إلى المقهى، وجلست إلى المنضدة الرخامية الصغيرة. كان (أحمد باشا) عاقداً يداه فوق المنضدة، ينظر إلى (زاد) بعينيه السوداوين الضيقتين، ويتكلم، بينما تفكر (زاد) في الأمير المنفي، وفي (هسه)، وفي مدينة فيينا الامبراطورية، حيث انكسرت شوكة العثمانيين.

ـ أجل، أحبه.

نظرت أمامها وهي تزم شفتيها.

ـ لا أحد يعلم المكتوب، ولو حدث في الغد أن فقد ساقاً أو عقله أو خمدت نيران حبه لكِ، فماذا أنتِ فاعلة؟

ـ سأبقى أحبه وزوجة مخلصة له.

ـ الرجال متقلبو المزاج. ولا تسهل الحياة على امرأة قدر الله أن يختبر زوجها.

فكرت (زاد) لدقائق، قبل أن تقول له بحسم:

ـ لو ساءت أخلاقه معي فسوف أهجره لفترة وانشغل باللهو مع أطفاله. سيكون لديه العديد من الأطفال ولن تكون الحياة مملة أبداً.

نظر الباشا إلى ابنته في استحسان وقال لنفسه: يالها من فتاة ذكية. تعرف ما تريد أن تفعله.

ـ الرجال أصحاب نزوات، والناس في زمننا هذا يفتقرون إلى أي فهم للأخلاق الحقة. ونسمع عن علاقات زوجية تدهورت لدرجات مرعبة لا يمكن تخيلها. كما نسمع عن رجال متزوجين يحبون الدخول في علاقات غير شرعية ويفضلونها على ما منحهم الله من حلال.

أجابته (زاد)، وهي مشمئزة من الفكرة:

ـ أعرف هذا. يسمونه الزنا. ولكن الناس لا تتصرف على هذا النحو. الحيوانات تفعل. وأنا متأكدة من أن (هسه) إنسان متحضر.

هزت كتفاها وكأنها تطرد عنها كل تلك الأفكار، واستغرقت في النظر إلى المنضدة الرخامية، محتارة. تنحنح (أحمد باشا). لقد رزق بفتاة طيبة، ولكن كثير من الناس حوله ليسوا سوى مجرد حيوانات، وابنته صغيرة لا حيلة لها ولا خبرة.

وكأن (زاد) كانت تقرأ أفكاره، فقد وجدها تقول له في حياء:

ـ كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما غادرنا اسطنبول. وكان من المفترض أن أتزوج أحد الأمراء وكنتم تجهزوني لذلك. وعلمني الخصيان الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقة بين الزوجين. وبمقدوري أن أتحلى بحسن التصرف أمام النساء الكافرات.

نظرت بفخر أمامها، وعاد وجهها إلى شحوبه. شعر الباشا بحرج. يالله ـ إنه لم يقدر ابنته حق قدرها. لا يمكن لهسه أن يخدع مثلها.

ـ نحن أناس محاربون. كان قومنا أربعمائة وأربعة وأربعون رجلاً قادهم أرطغرل إلى الأناضول. ولكننا مغامرون وشجعان، ولذلك كانت مشيئة الله أن نحكم نصف العالم. وعلى نسائنا أن يتحلين بالشجاعة، والجمال، والبراعة، وألا يبكين. لا تنسي هذا. فليس على المرأة إلا واجب وحيد ـ أن تخدم رجلها وتربي وتعلم الأبناء. أما الرجال فواجباته عديدة ـ عليه أن يقاتل ويدافع عن داره، في كل يوم. لذلك لا يمكن لرجل أن ينتمي بكيانه كله لامرأة واحدة. لابد أن تتفهمي هذا إن كنتِ تبغين السعادة. ولكن المرأة الذكية هي التي تخدم وتُخدم، ومن كان مفطوراً على القيادة والسيطرة، سيتمكن من ذلك، ولو من وراء حجاب.

سكت الباشا لبرهة، مستغرقاً في أفكاره وذكرياته. ثم عاد ليقول لها بنبرة قوية:

ـ الزوجة الصالحة هي أثمن كنز على وجه البسيطة. هكذا قال نبينا. وأنتِ لن تجلبي العار لي. ولكن إن حدث وضعفتي أمام الخطيئة فتعالي إلي ـ ولسوف أقتلك بنفسي. لا أريد أن يكون مقتلك على يد كافر. أتتذكرين أمك؟

ـ أجل، أبتاه. صورتها الوحيدة في ذهني وهي تقف عند النبع وقد ارتدت رداءً طويلاً كاملاً. كانت بشرتها شاحبة وفي إصبعها الأول خاتماً.

أومأ الباشا برأسه:

ـ كانت أمك سيدة صالحة. تزوجت وطلقت ثلاثة قبلها، حتى وجدتها. منحتها ثماني حبات ألماس كبيرة، وريع أربع قرى، وهذا لأن النسوة الصالحات أندر من الألماس. وقد ماتت بشرف، قبل أن يحيق الإثم بدولتنا. كوني مثلها، وإلا سيتخلى زوجك عنك.

أحنت (زاد) رأسها. فكرت في عيني (هسه) المسحوبتين، وقوامه في الغسق. وقالت بعزم:

ـ لن يتخلى زوجي عني، ولن يحدث هذا إلا لو طلبت أنا منه ذلك.

ضحكت، بينما لم يفهم الباشا مقصدها، فهو بدوره مجرد رجل، وسبق له أن منح ثماني حبات ألماس كبيرة لزوجة أخذها الله منه بعد ذلك. نظر إلى (زاد) وهو يدرك أنها سرعان ما ستتركه وترحل خلال أسبوع ـ وبطريقة مغايرة لما فعلته زوجته، ولكنه رحيل في نهاية المطاف. اختلجت أجفان عينيه السوداوين الضيقتين، وهو يشعر أنه يتداعى. كان له في الماضي

منزلاً كبيراً بقاعة رخامية ونافورة عند مدخله. كانت له كتيبة عسكرية يفتخر أفرادها بزيهم المزركش والرايات ذات الأهلة. كانت هناك سيدات وقورات، وقصور، وسادة مهيبون يستشيرهم ويستشيرونه. كانت هناك إمبراطورية حكمت أراضٍ في ثلاث قارات وملايين البشر. راح كل هذا، ولم يبق له إلّا الانفصال أو الرحيل، مثلما ستفعل الشقراء (زاد)، التي ستتزوج من بربري، ومثلما فعل أبناؤه، الذين راحوا يدافعون عن العثمانيين ولكنهم لم يعودوا، ومثلما يفعل هو بجسده العجوز وخطواته المتثاقلة، حاملاً ذكريات شمس اسطنبول المشرقة واستعراضات كتائب الزنوج الحمراء في أيام الجمع، في ميدان آك، أمام الجامع الكبير.

قال لها في رقة، وهو ينهض:

ـ كلها أسبوع وتصيرين زوجة.

نظرت (زاد) إلى وجهه المجعد الحائر، وشعرت بغتةً كأنها جندي قرر أن يفر من ساحة حرب؛ من المنفى.

عقب الباشا في تعب:

ـ كوني زوجة مطيعة.

أومأت برأسها، وقالت له في شجاعة:

ـ تأمر . . . معاليك.

الفصل التاسع

اسم الفندق سربسكي كرالي، واسم المقهى روسكي تسار، والبلدة هي بلغراد. تمشى (هسه) في شارع الأمير ميخائيل، وتوقفت (زاد) أمام المتاجر في ساحة تيرابيا، ودخلت في حوارات مطولة مع أصحابها.

وفي المساء تمشيا عبر المتنزه الهادئ بين الفندق ونهر سافي، وفي الشرفة الزجاجية تناولا أطباق المحار الصربية، وأطباق أخرى غريبة، وتوابل طلبتها (زاد)، وعجز (هسه) عن نطق أسمائها. وبعد تلك الوجبة استغرقت (زاد) باستمتاع في تناول قدح القهوة، الذي انتهت منه في رشفات صغيرة، وهي تنظر إلى (هسه) في امتنان واحترام. بعد ذلك مرا على خادم القاعة المتبسم، وعبرا الردهة الكبيرة، وأغلق (هسه) الباب من خلفهما، وبدا جسد (زاد) ضئيلاً هشاً. مدت يداها نحوه، وبدا الشوق واضحاً في عينيها وسط الضوء الخافت لمصباح المنضدة، وشفتاها طفولية فاغرة.

أطفأ (هسه) المصباح، وبدت هي حيية في فضولها الخجول. وبقت شبه مستيقظة، نصف نعسانة، طوال الليل،

تتحدث بكلمات تركية قصيرة في جمل طويلة، لم يفهم منها (هسه) أي شيء، ولكنه شعر بأن فيها سحر لطيف غامض. وفي الصباح الباكر، غادرت الفراش مسرعة بعد أن تجاوزت جسد (هسه)، ودخلت الحمام. تبعها (هسه)، ودلف إلى الحمام رغم محاولاتها اليائسة أن تمنعه، ووقف تحت مياه الدش. بدا الخوف على وجه (زاد)، وتهدجت أنفاسها، وهي ترغم جسدها في شجاعة على أن يقف تحت المياه الباردة المتدفقة.

جففت جسدها، وهزت رأسها في قوة، ونظرت إلى (هسه)، الذي بدا مستمتعاً بالمياه. علقت في سخرية سعيدة:

- همجي.

ارتدت ملابسها، وبدت مثل أميرة حقيقية، وهي تجلس إلى مائدة الإفطار. قال لها (هسه):

- يالأفكارك. لا أحد يقضي شهر العسل في بلغراد.

لكنه لم يكن متضايقاً على الإطلاق، كما أن (زاد) لم تسمع ما قاله بوضوح. فقد كانت منشغلة بالنظر إلى المساحات الخضراء في المنتزه وإلى مياه نهر الدانوب التي تلتمع تحت شمس الصباح المشرقة. تذكرت سليمان باشا، الذي دافع بصحبة مئتي رجل عن هذه البلدة ضد عصابات جورج الأسود، وكيف أنهم انسحقوا جميعاً أمام أسوار هذه البلدة. ولكن هذا تاريخ الآن، في زمن سبق زمنها بكثير، وهي تعرف أن (هسه) لن يفهم أي شيء لو أنها حكت له الحكاية.

- إنها بوابة الشرق

وأشارت إلى رجل يرتدي طربوشاً ونظارة، ويحمل في يده عصا.

- إنني أزور أراضي أجدادي التي كانت لهم وأضاعوها.

أجابها (هسه) في استخفاف:

- الشرق بمساكنه غير النظيفة، وعاداته المتخلفة. إنه يخسر المزيد والمزيد. وما هي إلا مائة عام حتى لا يصبح الشرق سوى مجرد مصطلح جغرافي.

داعبت (زاد) سكينها:

- ممم... ولكن لا يزال هناك الحب...

وظن (هسه) أنها تقصد الشرق بتلك الكلمات الناعمة.

تجولا في الشوارع، و(هسه) يشعر بسعادة وفخر كلما وجد البهجة في عيني زوجته الضاحكة. أخذته إلى أشد الحارات عتمة، ونزلا إلى أدنى الأقبية، وتحدثت هي بالتركية إلى الجميع في اعتقاد غريب منها أن من المستحيل أن ينسى الناس هنا سليمان باشا واللغة التي سادت في عصره. إلى أن توقفت بغتة في شارع عريض خلف البنك الوطني، ونظرت في دهشة إلى بناية مربعة غير مرتفعة، ذات قبة وبرج قصير.

- إنه مسجد.

قالتها وهي مستغرقة في دهشتها السعيدة. توجهت إلى ساحته. وهناك كان عجوز جالس يتوضأ. حدثته (زاد) بالتركية، فأجابها بكلمات متكسرة ونبرة متكبرة.

سكتت (زاد) وأشاحت بوجهها عنه. سألها (هسه):

- ماذا قال لكِ؟

- يقول أن الأتراك قد نسوا الله وأن نساءهم نسين الحجاب. هيا بنا.

أسرعت تخرج من المكان، يتبعها (هسه).

ذهبا إلى مقهى روسكي تسار، ولم يكن الغضب قد ذهب عن (زاد) بعد، وبدت عيناها مستغرقة فى تفكير حزين كئيب. تناولت القهوة، بينما تأمل (هسه) وجهها الطفولي الرقيق. ثم قالت له في حزم:

- يكفينا ما شاهدناه. سنذهب في الغد إلى سراييفو.

تناول (هسه) يدها، وداعب أصابعها الوردية الصغيرة. ونظر بعينين ضاحكتين شبه مغلقتين إلى شفتها العلوية التي كان لها شكل جميل أخاذ، وعندئذ لم يهمه إن كان يتأمل جمالها في بلغراد أو في سراييفو. كانت (زاد) بالنسبة له مثل حكاية من ألف ليلة، يصعب على سامعها أن يفهمها بقوانين المنطق الدقيقة. وهو قد تخلى عن محاولاته المرور عبر متاهات أفكارها، حتى يضع يده على السبب المنطقي لتقلب مزاجها المفاجئ والمتطرف، بين البهجة التامة والتعاسة الساحقة.

- لا بأس. لنذهب إلى سراييفو.

ذهبا إلى الفندق، وأعدت (زاد) الحقائب بمهارة امرأة بدوية اعتادت الترحال من بقعة لأخرى.

- سوف ترى. نحن الآن ذاهبان إلى بلدة مسلمين أتقياء

حيث سيحترمني الناس بالرغم من كونك معي، فأنا أعيش حياة صالحة، بينما أنت زنديق وشديد الكفر. ولكن لا تخف. سأدافع عنك، لأنك زوجي، وأنا مسؤولة عن سلامتك.

ـ لا بأس.

انتابه بعض الخوف من أبناء عمومته الذين يحملون اللقب نفسه، حسنوفيتش، فهم بالتأكيد لن يكونوا سعداء لرؤيته. وفي مقصورة النوم بالقطار، تلك الغرفة الصغيرة ذات الجدران والأستار الحمراء، وقف عند النافذة لفترة وهو يتطلع إلى الأفق الصربي، والحقول، والمنازل الصغيرة البيضاء، والفلاحين ضئيلي الجسد الذين انتهزوا فرصة توقف القطار لينزلوا منه ويشربوا الماء. اقتربت (زاد) من خلفه، ولامست كتفه. استدار إليها، فاحتضنته. تأمل رأسها التي مالت إلى الخلف ونظر في عينيها ذات التكوين الفريد. تركت جسدها يتعلق به؛ جسدها الضئيل الرقيق، الذي صعب عليه فهمه. حملها فوق يديه، وأعادها إلى الفراش، وتركته يغطيها، وبدا أنها استسلمت للنوم في لحظات. خرج من مقصورة النوم. كانت العربة تتأرجح بإيقاع منتظم. تطلع (هسه) عبر النافذة. أشجار تتوالى أمامه لتمرق في سرعة، وهي تحاول أن تخفي ذلك الهلال الصغير في السماء وراءها.

سمع من وراءه صوت خافت. انتبه إلى أن (زاد) تخاطبه:

ـ (هسه)... هل أرتدي الحجاب في الغد؟ سنكون في بلدة مسلمة.

سخر (هسه) من فكرة أنه متزوج من امرأة تتخفى وراء حجاب.

ـ لا أعتقد أن هذا ضروري. سرايفو بلدة متحضرة.

سكتت (زاد) ولم تعلق. كان المصباح الأزرق الصغير فوق الباب هو مصدر الضوء الوحيد في المقصورة. نظرت (زاد) إلى الجدار المغطى بالجلد، ومرت بأظفارها عليه لتصنع ذلك الصوت الذي يبعث على القشعريرة. وصاحت فيه:

ـ اسمع، (هسه). هل يمكنك أن تخبرني بسبب عشقي لك؟

باغته السؤال، فأجابها في رقة:

ـ لا أدري. ربما للأمر علاقة بطبيعتي وشخصيتي.

جلست (زاد) في الفراش، وقالت له بصوت مجروح:

ـ بل أحببتك قبل حتى أن أعرف أي شيء عن طباعك. هل نمت، (هسه)؟

ـ كلا.

مد يده إليها، فتشبثت بإصبعه وكأنه تعويذة. وضعت فمها قريباً من راحة يده، كما لو أنها تتحدث عبر سماعة هاتف. لم يفهم (هسه) كلماتها، ولكن شفتاها رقيقة دافئة وهي تلامس راحة يده. وبكى وهو يحدثها:

ـ (زاد)... الزواج أمر رائع.

ـ أجل، ولكني لا زلت مبتدئة. ماذا سيكون عليه الحال في فيينا.

ـ ستكون حياة رائعة. سنعيش عند الأوبرنرينج. لدي هناك شقة جميلة، ويأتيني كل مغني ومغنيات الأوبرا للعلاج.

ـ مغنيات؟ سوف أكون متواجدة معك وأنت تكشف عليهن.

ـ بالتأكيد لا! أنتِ لا زلتي صغيرة، وسيصيبك القرف من هذه الأمور. يمكنكِ أن تكوني ممثلة لي.

ـ وما معنى هذا؟

هو نفسه لم يكن يعرف.

ـ حسناً... ستكونين معي في السيارة... وتستقبلين ضيوفي... سيكون عملاً متميزاً.

سكتت (زاد). وزادت العتمة في خارج النافذة. بينما يتمايل القطار بإيقاعه التقليدي. أغمضت عيناها وفكرت في فيينا، وفي أطفالها الذين ستكون لهم عيون أبيهم. وقالت:

ـ في بلادي يكون الرجل إما ضابط أو موظف. فما الذي جعلك تختار هذه المهنة غير العادية؟

ـ اليوم صار من الغريب أن يكون الرجل موظفاً. مهنة الطبيب مرموقة. فأنا أساعد البشر.

قالها بنبرة فخر، وهو يفكر ـ كما اعتاد في كل مرة يتحدث فيها عن مهنته ـ في أن متوسط عمر الإنسان قد ارتفع مؤخراً من خمسين إلى خمسة وخمسين عاماً. ويشعر (هسه) أنه مشارك في هذا النجاح.

لا تعرف (زاد) أي شيء عن متوسط عمر الإنسان. تجد كلام (هسه) غير مفهوم ولكنه مألوف، مثل ماكينة تمتلكها ولكنها لا تعرف أي شيء عن مكوناتها.

كان راقداً في الفراش الذي فوق فراشها، ويمكنها أن تسمع صوت أنفاسه الهادئة.

ـ لا تنام! فزوجتك وحدها هنا. هل دخلنا أراضي البوسنة الآن؟

أجابها بصوت نعسان:

ـ أعتقد هذا.

دب الحماس فيها بغتة، فنهضت من الفراش مسرعة. وأمسكت بالدرج المفضي إلى فراشه بالأعلى، ورأى (هسه) أصابعها تحاول أن تمسك بحافة فراشه. وذلك قبل أن يظهر رأسها صاعداً، وبعده البيجامة الزرقاء، التي بدت له سوداء في العتمة. ساعدها (هسه) لتصعد، وقربها منه، وتسللت قدماها العاريتان إلى أسفل أغطيته. لاصقت جسدها بجسده، وهي تقول له في حماس:

ـ كان جدي يحكم هذه البلاد.

قالتها وهي تضع رأسها على وسادته، وتعقب في أنفة:

ـ سأبقى معك فوق. لا أرى أي شيء تحت.

غطت في النوم في ثوان. وضمها (هسه) إليه بقوة، حتى لا تسقط من فوق عند أي انعطاف للقطار. بقي راقداً لساعة أو ساعتين، فهو لا يعرف كم مضى من وقت.

استيقظت (زاد)، وقالت له بصوت ناعس:

ـ انزل تحت، (هسه). يالها من فكرة... أن تبيت في فراش غريب ليلاً.

شعر (هسه) بالخجل من نفسه، وهو ينزل السلم إلى الفراش السفلي الفارغ، ويرقد فيه، حيث لا تزال الوسادة تحمل عطرها. وراح في النوم.

حينما استيقظ صباحاً، وجد (زاد) تقف عند النافذة المفتوحة، وتمد جسدها إلى هواء الصباح المنعش في الخارج. نادته:

ـ تعال إلى هنا... تعال!

اقترب (هسه) من النافذة. كانت الشمس تشرق، ليسقط ضوءها وردياً على الصخور. كان القطار يعبر سلسلة جبلية، وعلى جانبي سكته صخور وعرة هابطة، وفي الوادي بالأسفل بدت البيوت مربعة بيضاء، وكأنها مكعبات أطفال متناثرة. وترتفع قباب المساجد في التلال، بينما تحاول مآذنها مناطحة السماء، وبدت في نور شمس الصباح وكأنها مصنوعة من مرمر وردي. هناك أشخاص يرتدون ألواناً زاهية يقفون في شرفات المآذن ويصنعون بأيديهم أبواقاً أمام أفواههم؛ يؤذنون للصلاة. خيل لزاد أنها تسمع الآذان، رغم أن ضجيج القطار يجعل من ذلك محالاً: «حي على الصلاة»!... «الصلاة خير من النوم»!. تقف سيدات محجبات ترتدين أحذية لا كعوب لها. تراقبن القطار وهو يمضي في طريقه؛ بينما يجلس الأطفال الحفاة فوق العشب، يحاكون الكبار في حركات الصلاة، في حركات هي مزيج من المرح والجدية والإخلاص.

وضعت (زاد) يدها فوق كتف (هسه). وصاحت بنبرة انتصار:

ـ انظر! انظر!

كانت تشير إلى المساجد، وإلى رجال الدين بزيهم المميز المنسدل، وإلى الشمس المشرقة. سألته وهي تلوح إلى الوادي:

ـ أفهمت الآن؟

ـ فهمت ماذا؟

هو لم يكن يرى سوى أطفال في ملابس رثة، ومنازل صغيرة فقيرة، وماعز نحيفة فوق المنحدرات الجبلية.

ـ كل هذا الجمال. لا شيء أجمل من هذا في الدنيا. لقد بنى المسلمون كل هذا.

صعب عليها أن تكبت مشاعرها أكثر من ذلك التفتت بعيداً عن النافذة، وهي تعض على شفتيها. ولكن (هسه) لم ير دموعها. كان منشغلاً بالتقاط الصور لهذا الوادي الخيالي في نظره، مهتماً بضبط إضاءة الكاميرا.

لامس خدها وجهه، ومر على شاربه، وهي تقول له بصوت عميق:

ـ (هسه)... (هسه)... لقد كنت أتوق طوال خمسة أعوام لرؤية بلاد تشبه بلادي.

أبعد (هسه) الكاميرا، وهو يقول لها:

ـ أجل. كم هو لطيف أن يراقب المرء الدنيا من نافذة غرفة نومه. عندئذ يجدها مختلفة للغاية عن ما هي عليه في الواقع. ولكنكِ رومانسية للغاية، وهذا طبع لا بأس به. فأنتِ أشبه ببطلة من أبطال حكايات ألف ليلة وليلة.

استمعت إليه (زاد) وهي تجهز الأمتعة، مع تباطوء سرعة القطار. قبل أن تقول له، وهي تلف رأسها بالحجاب:

ـ إنني مجرد فتاة من اسطنبول... لا أكثر ولا أقل.

وتوقف القطار...

٥

في محطة سراييفو.

الفصل العاشر

بعد ثلاثة أيام من وصول ذلك القطار الهادر الذي ينفث دخانه كمصاب بالربو إلى محطة سراييفو، كان (أحمد باشا) يدلف إلى متجر السجاد في شارع كانط. رائحة الأبسطة والسجاد القديم مريحة. ولم يكن لديه أي شك في أنه قد اتخذ القرار السليم، بأن يقبل بهذا العمل، حتى ولو كان في خطوته هذه مهانة مؤكدة. مثلت له خيوط السجاد الناعمة ذكريات عالم غابر، حيث تشي الخطوط السلسة المنحنية للتصميمات العتيقة عن صور الحدائق، ومناظر الصيد والقتال، والمحاربين القدماء، وعن إيماءات التوق والحنين من عذراوات رقيقات ذوات عيون استطالت ووجوه بلغت المنتهى في رقتها.

جلس (أحمد باشا) أمام كومة من السجاد القديم في الغرفة الخلفية للمتجر. تداعب يداه تلك النعومة التي تعددت ألوانها.

همس وهو يتفحص سجادة، ويسجل سعرها:

ـ هذه كرمان.

كان السجاد يمر سجادة تلو الأخرى سريعاً عبر أصابعه: سجاد من سميرنا، كشمير، وكوشانت. سجاد ذو ألوان شتى،

يعكس ثراء وبهاء الشرق. ارتسمت الجدية والإخلاص على وجهه الذي تجعد في تركيز، وهو يسجل الأسعار ويدون وصفاً قصيراً لكل سجادة، حتى يعرف أولئك الهمج الأثرياء أسرار تلك الأبهة اللونية الكامنة في ذلك السجاد؛ مثل هذه السجادة وارد بخارى، والتي عليها ارتسم منظر كلاسيكي من المعارك التي حكاها الفردوسي.

وعند تمام الثانية عشرة ظهراً، خلع نعليه، وتناول سجادة صلاة وارد تيكين، وصلى الظهر في ركعات طويلة خاشعة. ثم جلس خلف رف صغير، وبيده عدسة مكبرة، أمام مجموعة من التماثيل الفارسية الصغيرة، وأخذ يشرح للتاجر:

ـ يبدو لي، سيدي، أن هذا الرسم ينتمي إلى مدرسة أحمد الفبريسي في القرن السادس عشر. ولكن عليك أن تنبه الزبون. فهو ليس من صنع الباهسادة العظام. حيث عمد أسلوبهم إلى أن تكون خلفية صورهم تصميمات غاية في الانتظام. فيقوم الفنان مثلاً برسم حدائق ومن خلفها بحيرات ومن خلف البحيرة يظهر غزال. أما هذه فهي من صنع فنان أقل مرتبة ولكن من نفس المدرسة.

ـ آه. . . طبعا

قالها (بغداديان)، وهو يدون في الكاتالوج: «رسم للباهسادة. نادر للغاية».

لمح (أحمد باشا) الوصف، فزم شفتيه في قلق. من الواضح أن هذه هي الطريقة التي تثري بها الأمم الأخرى وتقوى في ذات الوقت الذي تضمحل فيه الإمبراطورية العثمانية وتذوي.

انشغل بالعمل في الغرفة الممتلئة بالسجاد حتى قرب المغرب. ثم قصد بيته، ووجد على المنضدة خطاباً عليه طابع من سراييفو. قرأه، ويداه ترتجفان قليلاً، وعرف منه أن سراييفو بلدة مسلمة نقية، وأن مسجد زارسكا دياميتش فيها يشبه الجامع الأزرق في اسطنبول. وكذلك عرف أن (هسه) أفضل زوج في العالم، وأن أقاربه أناس طيبون يعرفون كيف يقدرون أميرة من اسطنبول حق قدرها. وكذلك عرف أن الزواج هو أفضل حالة يمكن أن يعيشها الإنسان، وأن أفضل بقعة لقضاء شهر العسل هي سراييفو. كانت رسالة قصيرة، تميل أسطرها المكتوبة نحو أعلى صفحتها.

- جميل... جميل.

قالها الباشا وهو يطوي الرسالة.

* * *

- جميلة... جميلة.

قالها (جون رولاند)، وهو جالس في بالوعة حارة ضيقة في غرينتش فيليدج. كان يحاول أن يصنع ربطة جميلة في عصاه من ربطة عنق مدير أعماله البيضاء. «جميلة»، قالها مجدداً، وحاول أن يجعل عصاه تقف منتصبة من دون أن تستند إلى شيء. تطوحت العصى ووقعت. وضحك (سام دوث) بصوت عال، وضرب (جون رولاند) على كتفه. ثم نظر كلاهما في صمت حزين إلى العصى الواقعة. وأتاهما من خلف أبواب تلك البارات الصغيرة في حي الفنانين في نيويورك صياح مروع. كانت المصابيح التي لا تكاد تنير شيئاً معلقة فوق مداخل

البارات، وعبر شرطي الشارع، وهو ينظر في تفهم إلى السيدين الجالسين عند البالوعة، يمازحان عصى.

أزاح السيدان قبعاتهما لمؤخرة رأسيهما، ووضع أحدهما راحته اليسرى خلف أذنه. وفتح فمه، لينطلق عواء فظيع شق سكون الليل.

ـ أماااااان... أماااااان... أماا

كان يحاول أن يغني، بكل حماس الدنيا. فنظر إليه الآخر في سعادة، قبل أن ينضم إليه.

ـ جاااشيكا أمااااااان أمااااا...

كان يحاول أن يصل بصوته إلى القمر. واندمج كلاهما في ذلك النوع الغريب من الغناء، وكأنهما يخاطبان النجوم.

ـ آي ديريبييييه... واااااي ديريبييييه...

انفتح باب أحد البارات التي تعمل طوال ساعات الليل، وأطل منه حارس يزين زيه شريط ذهبي. واقترب الشرطي من السيدين، ولامس بعصاه كتفاهما.

ـ ما الذي يجري هنا؟ لماذا تصرخان؟

ـ سيدي، نحن نغني، ونهوى الموسيقى.

حدجهما الشرطي بنظرة صارمة. عيناه في زرقتهما المخضرة امتداد لمياه المحيط وسواحل آيرلندا الخضراء. قال لهما بنبرة آمرة:

ـ هذا ليس بغناء. إنه ليس سوى صراخ. عودا إلى المنزل.

فأجابه أحدهما:

ـ يا صاح. هذه أغنية من المقام الهندي الصيني. وهو يختلف كثيراً جداً عن الإيقاع الآيرلندي. ولا يمكنك أن تنكر أن هناك ملايين من البشر الذين تنتابهم شتى المشاعر، بدءاً من الأحاسيس الجنسية وحتى السمو الإلهي، عند سماع هذا المقام.

فقال الشرطي، وهو يخرج دفتره، ويقول بلهجة آلية وهو يكتب:

ـ حقاً. إذن غرامة عشر دولارات.

ناولهما الإيصال.

دفعا الغرامة. وعانى أحدهما قبل أن يصلب طوله واقفاً، قبل أن يعين الآخر على ذلك. وتعثرت خطاهما وهما يبتعدان عن المكان، في اتجاه ساحة واشنطن.

احتضنا بعضهما في الطريق، وهمس أحدهما في أذن الآخر:

ـ هذه بلاد همجية. إنهم لا يعرفون هنا أي شيء عن الموسيقى.

توقفا في ساحة واشنطن. أتاهما من ناحية غرينتش فيليدج صوت موسيقى جاز رخيصة. وظهر أمامهما في ضوء المصابيح شباب طوال القامة عقدوا شعر رؤوسهم في ضفائر مجدولة. ومن حين لآخر، تمر سيارة داكنة اللون عبر الشوارع الضيقة المرصوفة، وتلوح من نوافذها عيون تنظر في فضول واحتقار.

ومن بعيد سمعا صوت زجاج يتهشم، وأنثى تصيح بصوت عال:

- جو. شراب.

فقال (جون رولاند):

- إنها جلَطة. بالتأكيد جلطة. أو هي تاتوالا. لن يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك، ولكن الوضع لا يمكن أن يختلف كثيراً. عليك أن تدرك هذا، (بيريكليس).

زم (سام دوث) شفتاه في غطرسة، قبل أن يقول في كبرياء:

- إنني لم أزر عاصمتكم الحقيرة. فقد ولدت في فنار، عند المقعد البطريركي. فحتى في عصر ميخائيل بيرفيروجينيتوس، كان المنتمي لعائلة هيبتومانيديس بطريركياً.

أجابه (جون رولاند) في تحفز:

- كذاب. أنت مولود في حي المجرمين في تاتوالا. كيف تسنى لك إذن أن تعيش على عشرة في المئة من دخلي؟

رد عليه وهو يفتح راحتيه في لامبالاة:

- وما أهمية النقود. المهم هو راحة البال - هذا هو الشيء الوحيد المهم. وبالمناسبة، أنا آخذ من الباقين خمسة عشرة في المئة.

تناول زجاجة معدنية مسطحة من جيبه، وناولها لشريكه وكأنه يصالحه. جرع (جون) منها، قبل أن تميل رأسه للوراء، وتتبع عيناه في اندهاش تلك الصفوف التي لا نهاية لها لنوافذ

ناطحات السحاب. بدا قوس النصر وسطها حقيراً ضائعاً. لقد بني وقت أن امتلك البيورتان مدفناً في وول ستريت، وزمن أن كان لشوارع المدينة أسماء قبل أن تتحول إلى أرقام.

قال (جون رولاند) وهو يعيد الزجاجة إلى صاحبه:

- الهولنديون قوم مغالون. لقد دفعوا للهنود الحمر خمسة وعشرين دولاراً مقابل مانهاتن. هذا كثير جداً.

تطلع (سام دوث) إلى المنظر الجليل الذي كونته تلك البنايات الضخمة:

- عليهم أن يطالبوا باسترداد نقودهم، أو مقاضاة أولئك الهنود بتهمة النصب.

ووضع يده على كتف رفيقه، قبل أن يردف:

- لكني أعتقد أنها تهمة سقطت بالتقادم منذ زمن بعيد.

تنهد، وهو غير موقن مما إذا كان قد ولد فعلاً في حي المجرمين في تاتوالا أم في فنار؛ ذاك الحي الراقي. وبزغ الفجر، ومعه التمعت الوحوش الخرسانية المعتمة في الساحة بلون هو مزيج بين الفضي والوردي.

- هيون هو

قالها (رولاند) بغتة، وفي عينيه لمعان غريب.

- هيون هو... يسمونهم الهونز في أوروبا. كانوا قوماً، وسمى الصينيون أحد قبائلهم «تو كي»... فصارت تركيا.

صمت، بينما كانت الحافلة الأولى تمر عبر الساحة.

ـ تو كي. . . كانت قبيلة قوية وحاربت الصينيين. في ذلك الوقت كان يحكمها امبراطور حكيم، اسمه شي هوان دي. هو الذي بنى سور الصين العظيم، ليحمي شعبه من الهمج خارج دولته. ولكنه لم ينفعه. فقد نصب الهمج سلماً على السور، وصعدوا منه إلى داخل الصين، وهناك تعلموا المقام الهندي الصيني.

ضبط (جون رولاند) ربطة عنقه، وشعر أنه مستعد ليواجه الحياة من جديد. وسقطت أول خيوط لأشعة الشمس على أرض ساحة واشنطن.

ـ تلك الأصوات الغريبة هي التي جذبت الأغراب إلى سواحل المتوسط. وبعد ذلك الزمان بزمان ظهر آل عثمان، وشيد قصر النجوم على البسفور.

نظر (سام دوث) بفخر، وكأنه من ابتكره ويملكه، وقال له في إعجاب:

ـ أنت شاعر غنائي، جون. لابد لنا من استخدام المقام الهندي الصيني في أحد أفلامنا. شيء من الشرق الأقصى ـ تعرف قصدي. ربما يكون عنوانه «بناء السور العظيم». سيكون فيلماً تاريخياً رائعاً. فكر في ذلك.

أجابه (جون رولاند) مطيعاً:

ـ سأفكر. الشمس تشرق على المرتفعات الرملية، والناس يبنون السور العظيم. ولكن الصداع سيتملك مني. وسأتناول الأقراص المسكنة وأجلس إلى آلتي الكاتبة وأنا لا أرتدي سوى سروالي الداخلي، وفي المساء أشرب الويسكي، فتعود الحياة حلوة من جديد.

تأمل (سام دوث) وجه (رولاند) الضئيل الشاحب. هم كلهم مثله ـ آخر العثمانيين. مزيج من الحياء وحب التآمر، الوحدة والرقة، وكذلك الوحشية في ذات الوقت، وأجساد رقيقة وخيالات غريبة، يمكن أن تتحول ـ بفضل مدير أعمال ماهر ـ إلى دولارات كثيرة. وأدرك (سام دوث) سبب أن الإمبراطورية تذوي بينما تلقى أفلام (رولاند) رواجاً. فهما لم يكونا من رجال الإمبراطورية، أولئك الحكام الذين جلسوا إلى العرش العثماني ليحكموا ثلاث قارات. هما من المبدعين أصحاب المثل والأفكار.

قال (رولاند) وهو يميل نحوه:

ـ هيا بنا. أتدري شيئاً: لقد كنت سجين قصر البسفور، والآن صرت سجين القلاع الحجرية في هذه المدينة.

فتنهد (سام):

ـ هذه هي الحياة. ولكن معك المال. ربما أحببت أن ترتحل لمكان ما، وترى العالم. فأنت لم تعرف سوى البسفور وفندق باربيزون بلازا. ولسوف أرافقك. سأتولى أمر ذلك.فأنت لا تجيد التعامل مع الموظفين بأي حال.

مشيا عبر الساحة. وعند شرفة ذاك المقهى في الجادة الخامسة، يقف السقاة في انتظار الزبائن، بأعين لم يرحل عنها النوم بعد. يتوهم من تقع عيناه على طاولات المقهى الخضراء أنه أمام قطع خضراء من مرج غطاه الندى. لا أحد يجلس إليها الآن. قصدا المقهى، وجلسا إلى إحدى تلك الطاولات، في تثاقل وتعب.

قال (رولاند)، بصوت من استيقظ بغتة:

ـ قدحا قهوة، مركزة جداً.

ومال إلى صديقه:

ـ موقع التصوير سيكون في الصين. والسيناريو يمزج بصرياً بين الحاضر والماضي. والسور هو رمز السلام... السلام المحدود الباعث على الرضا والقناعة.

فنظر إليه مدير أعماله...

... في امتنان وتقدير.

الفصل الحادي عشر

«كان هورسيف باشا رجلاً ثرياً وقوياً»

وقفت (زاد) في بهو الجامع الكبير. يغطي وجهها حجاب شبه شفاف. كانت تنظر لأعلى متتبعة زخارف المآذن.

ـ رجل قوي بالفعل. لما وصل إلى هنا، كانت هناك ثلاث قرى. هدمها وبنى سراي مكانها، ومن هنا كان اسم البلدة: سراييفو.

جلست على العتبات الرخامية عند مدخل الجامع، وتأملت النافورة التي تزينها نقوش عربية. يلهو أطفال عند النافورة، ويمشي رجل دين يرتدي عمامة بيضاء عبر ساحة الجامع. وقف (هسه) في ظل صف الأعمدة، ينظر إلى ساقي (زاد) والحمام الذي يتبختر فوق البلاط الرخامي ـ فتذكر فيينا. كل شيء مختلف تماماً عن أيام كان يتمشى عبر ميدان سان مارك مع (ماريون)، التي كانت تطعم الحمام وتعده هو بأن تخلص له للأبد. أما (زاد) فهي لا تطعم الحمام؛ وها هي جالسة هناك، مستغرقة في أفكارها، ونور الشمس يتوج شعرها.

ـ المكان جميل هنا.

سكت (هسه)، واكتفى بالنظر إلى ساقيها. كم رائعة هي الحياة. استند إلى أحد الأعمدة وهو يقول لنفسه أن الزواج كان خطوة سليمة، وأن حياته كلها قد مرت ما بين الكلية والامتحان الأخير. كان في الثلاثين، وعرف جامعة فيينا، ومستشفيات أوروبا، و(ماريون). والآن هو مع (زاد). رغب في أن يميل عليها ويخبرها أن هناك التهابات أنسجة phlegmons سببها مرض يصيب التجويف الأنفي، وأنه يود أن يتقدم بتقرير عنه إلى الرابطة الطبية. ولكنه لم يخبرها، فلن تفهمه (زاد) وسوف تسأله فقط عن الأصل الإتمولوجي لكلمة phlegmon.

دلف إلى المسجد عجوز، محني الظهر منهك. خلع حذاءه، وشرع يصلي، بكل جدية وخشوع. إنه عالم غريب لا يسع (هسه) أن يدخله. تذكر أولاد عمه الأغراب، الذين أتوا إلى الفندق، وتناولوا الشاي معه، وهم يحدقون فيه وكأنه حيوان نادر. وأبدوا الكثير من التبجيل لزاد ـ انظروا؛ إنها ابنة باشا! وتقبلت (زاد) هذا التبجيل بكل أنفة. زارت زوجات أولاد العم، وتحدثت إليهن حديثاً طويلاً عميقاً حول روح الشرق. صبت تلك النسوة القهوة وهن يتأملنها، فهي ابنة باشا وتتحدث بحكمة وبكلمات لا يفهمن أغلبها.

قالت لهن بخيلاء:

ـ كل المسلمين أخوة. وأرضنا بدايتها البلقان ونهايتها في الهند. ولنا نفس العادات والأذواق، ولذلك أشعر معكن أني في بلادي.

النسوة يحدقن فيها في امتنان وصمت، وانشغال بصب القهوة لابنة الباشا.

ـ تعال.

نادته (زاد) وهي تنهض. سارا عبر حارات سرايفو الضيقة، ينظران إلى الأبواب الزرقاء لمحال البازار وإلى تلك الحمير الصغيرة، ذوات الآذان المتدلية المتأرجحة، التي تشق طريقها عبر الساحات الصغيرة.

قالت له وهي تنظر إلى الحمير:

ـ أعجبني المكان هنا، فالناس فيه سعداء.

قصدا مقهى صغير. فوق الكاونتر الرئيسي بالداخل طبق كبير ممتلئ بالزيتون وأطباق صغيرة فضية بها قطع جبن انغرست فيها خلات أسنان. عرف (هسه) مندهشاً أنهم يستخدمون تلك الخلات محل الشوكات ـ فكرة منطقية بل وصحية أيضاً. اقترحت عليه (زاد) أن يطلب شراب الراكي، الذي يقدم في أواني صغيرة لابد أن يشرب منها. مذاقه مثل خليط من الماء ومعجون الأسنان ومنقوع عشبة الأفسنت. كانت (زاد) تتناول حبات الزيتون من فوق الخلات في استمتاع. كم هو جميل أن ترى العالم بصحبة (هسه)، بكل راحة بال، وأن تتأمل المساجد وهي تأكل الزيتون.

اعتاد أهل البلدة رؤيتها في سعادة، ولا شك في أن (هسه) أفضل زوج في العالم، حتى ولو لم يكن ضابطاً أو موظفاً.

قالت قبل أن تلفظ بذرة:

ـ أقاربك لطفاء.

اندهش (هسه) منها. فقبيلة حسنوفيتش تبدو غريبة عنه.

ـ إنهم أتراك من الناحية العملية. وقد ساد الأتراك بلادهم وفرضوا عليها نمط حياتهم الآسيوي الذي لم يألفوه.

حدقت فيه (زاد) في دهشة. وضحكت ضحكة غاضبة، لتظهر أسنانها اللامعة.

قالت له وهي تهز رأسها:

ـ مسكين يا (هسه). حقيقة الأتراك أفضل كثيراً مما أشيع عنهم. فنحن لم نستول على هذه البلاد. بل هي من دعتنا إلى الدخول. ثلاث مرات، في حكم محمد الأول، ومراد الثاني، ومحمد الثاني. فلقد مزقت الحرب الأهلية البلاد، ودعا الملك تورتكو السلطان كي يفرض القانون والنظام. بعدها صارت إقليماً مسلماً ضمن الإمبراطورية. بل أشد أقاليمها تمسكاً بالإسلام. وبذلنا جهدنا حتى تسود الحضارة هذه البلاد. ولكنها أبت ذلك.

كان دور (هسه) ليضحك:

ـ الكل يعلم أن التراك يرفضون أي مظهر من مظاهر التقدم. علمونا هذا في المدارس.

قالت له (زاد) في حنق:

ـ اسمع. في الحادي عشر من ذي القعدة عام ١٢٤١ هجرية ـ يوافق السادس من يونيو عام ١٨٢٦ ـ قرر السلطان مراد الثاني إصلاح هذه البلاد. وهكذا فرض دستوراً ليبرالياً، «تانسيماتي هايريه» وكان ذلك الدستور أكثر ليبرالية من بقية دساتير عصره، ولكن الشعب البوسني لم يرغب في أن يكون حراً. وقاد حسين أغا بربرلي انتفاضة ضد الوالي؛ الكافر. وغزا

ترافنيتش، مقر مارشال علي باشا، حاكم البوسنة. وسجنوا القائد وهو بزيه العسكري الذي كان يساير أحدث الموضات الأوروبية. وقام هؤلاء الثوار الورعون بتمزيق زيه الذي يعتبرونه إثماً وجعلوه يستحم ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حتى يطهروه من رائحة أوروبا. بعد ذلك قدموا له ملابس تركية قديمة، واجبروه على تلاوة مزامير بالنهار وبالليل حتى يتوب عن آثامه. والآن قل لي، (هسه): من كان عدو الحضارة هنا؟

جرع (هسه) شرابه. زوجته مثقفة، ولا فائدة من الجدال معها.

- هيا نعود. نحن مجرد همج لدينا معرفة بالطب.

نهضت (زاد) على مضض. ومشيا إلى الفندق، وفكر (هسه) أنه سيكون من اللطيف لو أنها سألته شيئاً يمكنه أن يأتيها بإجابة عنه. أسئلة من قبيل: ما الذي تفعلونه بالضبط عندما تستئصلون اللوزتين؟ ولكنها لم تسأله أي شيء، وهو ما أحزن (هسه). مشت إلى جواره مثل تلميذة ذكية مطيعة في مدرسة، تميزها شفتها العلوية الصغيرة. كان من الواضح بالنسبة لها أن علوم الطب غريبة عنها تماماً مثلما يجد هو غرابة في كلمات لغتها التي يعتبرها همجية.

داخل الفندق، وتحت أضواء الشمعدانات، جلس عدة رجال ذوي لحىً سوداء، وأنوف معقوفة، وعيون سوداء لامعة. رحبت عائلة حسنوفيتش بقريبها الأجنبي. وطلب (هسه) قهوة، بينما كانت (زاد) تترجم أسئلة أقاربه البسيطة.

- أجل... أحببتها كثيراً... كلا... لا توجد مساجد في فيينا.

كانت هناك همهمات غير مفهومة من أبناء العمومة، ولكن (زاد) ترجمتها له وهي تبتسم. كانوا يتساءلون عما إذا كان طبيب جيد.

ـ أتمنى هذا.

قالها في حرج، وأعد نفسه لاحتمال أن يضطر لتقديم وصفة طبية لأحدهم.

ولكنهم التزموا الصمت، وهم يتناولون القهوة، متأملين الشارع، ومستغرقين في أفكارهم. وفجأة، بكى أكبرهم، وسالت دمعتان على خديه الأمردين. مسح دموعه وتحدث بنبرة حزينة لفترة ليست بقصيرة، وأنصتت (زاد) إليه باهتمام متوتر. قبل أن تترجم ما قال:

ـ في هذه البلدة... عاش حكيم اسمه علي كولي. عجوز جداً. درويش مشهور من إخوان بكتاش. أحبه الناس ووقروه، فقد كان صالحاً وهب حياته للعبادة.

عاد الضيف ليتحدث بنفس النبرة الحزينة والجمل المسهبة.

ـ غير أن قدر الله أحاق بالرجل الصالح. اضحى مريضاً وراحت الدروشة. زاره الأطباء، ولكنهم كانوا من الكفار فلم يسعفوه.

عاد الضيف ليتحدث، و(زاد) تتأمله في خوف. اضطرت إلى الترجمة، وفي صوتها نبرة تسليم ناعمة:

ـ صار شبه أعمى. وخارت قواه. يمضي نهاره نعسان. شحب لونه وكأنه ميت. (هسه)... أنا لا أعتقد أنك قادر على

مساعدة هذا المسكين. إنه يحتضر ويكاد الله يقبض روحه.

نظر (هسه) إلى (زاد)... تلك العينان الحزينتان... والشفة العلوية القصيرة. وقال للرجل في حزم:

ـ سوف أفحص الرجل الصالح.

انطلقت بهم سيارة عبر الشوارع المعبدة وحتى ضواحي البلدة. كانت يد (زاد) تحتضن يد (هسه).

ـ أنا خائفة. كيف يمكن لأحد أن يساعد رجل اختاره الله.

هز (هسه) كتفاه ولم يعقب. فزوجته تعتقد أنه من الهمج.

ـ بوسعي القيام بأمور لا يمكن لخبيرة اللغة أن تقوم بها.

نظرت إليه (زاد) في شك. نظرة الشرق المتشككة في مهارات الغرب. فهي ترى أن عمل زوجها بلا أهمية من دون تطبيق، ولا يقارن بعملها. وهي لا تعترف إلا بثلاث أعمال للرجل: المحارب، ورجل الدين، ورجل الدولة.

توقفوا أمام منزل صغير أبيض. في ساحته رجل جالس أسفل شجرة وارفة الظلال، يداعب مسبحته. لون بشرته شاحب مثل الرخام، وليس في وجهه الكثير من الشعر، وعيناه مثبتتان على السماء. فوق رأسه قبعة الدروايش المعروفة، وعليها نقوش بالعربية، قرأتها (زاد) مأخوذةً... إنها حكمة قديمة من حكم البكتاش: «كل ما هو كائن فات، ويبقى هو أبداً. القوي القدير، وبيده كل شيء». قبل الرجال يد العجوز، الذي نظر إليهم بعيون خاوية مذهولة.

مالت (زاد) على الدرويش، وقالت له في رقة:

ـ أبتاه! عليك أن تثق في معارف الغرب. فالله العلي القدير موجود حتى في يدي طبيب منهم.

وقف (هسه) بعيداً عن الجمع بعض الشيء. تأمل وجه الدرويش الشاحب، وهو يسمعهم يتهامسون بلغتهم الغريبة. فكر في (زاد)، محبوبته، التي يريد أن يكسب احترامها. في تلك اللحظة، أومأ الدرويش برأسه، ورفع يده. نادته (زاد) في تردد:

ـ تعال... افحصه.

اقترب (هسه). سأل أسئلة أربكت (زاد)، وعرف منها أن العجوز تلقى علاجاً لفترة طويلة لمرض السكري وللكلى وللعينين، من دون جدوى.

شعر (هسه) بالغضب، خاصةً لما عرف أن الرجل ينام أكثر من ثماني عشرة ساعة في اليوم.

خلع الدرويش ملابسه. نظر (هسه) من خلال عينين شبه مغلقتين إلى جسد العجوز الضاوي.

ـ اطلبي منه أن يرفع ذراعيه.

لاحظ أن شعر ابطيه غير موجود ولم يبق منه سوى الجذور. قال له الدرويش:

ـ لم أعد أرى أي شيء تقريباً.

فحص (هسه) عينيه:

ـ بايتمبورال همیانوبيا... عمى نصفي صدغي مزدوج.

ظن الدرويش أنه قد نطق للتو بتعويذة سحرية.

فكر (هسه) في الحالة، بينما وقفت عائلة حسنوفيتش من حوله، وهي تراقبه في أمل. ارتدى الدرويش عباءته وعاد ليجلس إلى سجادته، في لامبالاة وإنهاك.

ـ سأعرفكم في الغد إذا ما كنت سأتمكن من علاجه أم لا. علي أن أدرس الحالة.

نهضت (زاد). اتضح لها أن لا حيلة للغرب أمام أقدار الله. سوف يموت الرجل الصالح سواءً درس (هسه) الحالة أم لم يدرسها، فتلك هي مشيئة الله. صاح (هسه) وهو يمسك بذراع زوجته:

ـ هيا بنا.

استغرقه الصمت في طريق العودة. وانشغل بأفكاره.

في الفندق، تنهدت (زاد)، قبل أن تقول له:

ـ أمر محزن. محزن جداً. ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئة.

ـ أجل... بالطبع. اتصلي بالمستشفى، من فضلك. أريد أن أسألهم بعض الأسئلة.

توجهت (زاد) إلى الهاتف وترجمت بآلية:

ـ دكتور (هسه) هنا. هل يمكن أن نتحدث إلى المدير، من فضلكم؟ يسأل زوجي عما إذا كان هناك من... لحظة سيدي... لحظة من فضلك! ما كان هذا؟ ... حسناً... معذرة، هذا صعب نطقه... هل هناك من يمكنه أن يجري جراحة ورم في الغدة النخامية. لا تعتقد هذا، سيدي؟ أجل، سوف يحضر الدكتور (هسه) لزيارتكم.

هرع (هسه) إلى الباب، تتبعه (زاد) بخطوات لاهثة.

يرتدي طبيب المستشفى البالطو الأبيض، وانهمكت (زاد) في الترجمة من دون أن تفهم أسرار تلك المسميات اللاتينية الطويلة.

وفي النهاية أومأ المدير برأسه، وصافحه (هسه) في امتنان.

بعد برهة، كانا في غرفتهما في الفندق مجدداً. تشرب (زاد) القهوة، متفائلة ومتحمسة. قال لها:

ـ تفهمينني... إنه «المِكور التركي»... سيا تورشيكا. حيث تكمن الغدة. تسمى النخامية. لابد أنه ورم. لابد من إجراء أشعة إكس. ولكن التشخيص قاطع. سأجري الجراحة بمنظار عبر الأنفز على طريقة هيرش. الاحصائيات الحالية تشير إلى أن إثنى عشر وأربعة من عشرة في المئة تقريباً من الحالات هي الخطيرة. ولكنها ما تزال واحدة من أصعب العمليات. تفهمينني؟

تناول ورقة ورسم رسماً تشريحياً لمقطع رأسي لجمجمة.

ـ ها هو ذا... الغور النخامي، وهذه هي الغدة النخامية.

حاولت (زاد) جهدها أن تفهم هذا الكلام الغريب. فقالت وهي ترفع حاجبيها في حيرة:

ـ المكور التركي.

جذبها (هسه) من خصرها، ورفعها عالياً في الهواء. يحتضنها بين ذراعيه، ويدور بها عبر الغرفة.

ـ المكور التركي.

يداه قويتان ثابتتان. أنزلها أرضاً، فشعرت بأن الغرفة تدور بها. رمت نفسها على السجادة وهي تحدق في (هسه).

ـ يا الله، مثل الدراويش... الإخوان الذين يسمون أنفسهم مولاوي ـ إنهم يرقصون هكذا. وهذا ما تسميه بالغدة النخامية؟

ـ كلا، هذا هو المكور التركي.

وقف أمامها وأخذ يشرح، مثل جنرال أمام كتيبة عسكرية صعبة المراس:

ـ هناك احتمال يصل إلى ثمانية وثمانين وستة من عشرة في المئة أن أكون قادراً على علاج الدرويش. مرضه هو الأندر في العالم. ولكن عليكِ أن تساعديني، وإلا عاقبتكِ لعدم ثقتك فيّ. ومن دونك لن أتمكن من التواصل مع أي أحد خلال العملية. لابد أن ترتدي بالطو أبيض وتقفي إلى جواري. هل يمكنكِ القيام بذلك؟ أم أنكِ ستصرخين وتصرخين قبل أن يغمى عليكِ في غرفة العمليات؟

كانت (زاد) لا تزال راقدة على السجادة، فرفعت رأسها نحوه، وقالت:

ـ لطالما كنا محاربين. لن أخشى شيئاً.

نهضت ولامست وجه (هسه). وقف في منتصف الغرفة. وجدته أكثر ألفة وقرباً منها. نظرت إلى يديه، تلك اليدان بوسعهما القيام بما لا يمكن لأي يد أخرى في سراييفو أن تفعله، فشعرت بالخجل منه:

ـ هل تعتقد حقاً أن بوسعك أن تقهر هذا المكور التركي؟

ـ أملي هذا... إن صح التشخيص و...

ـ الله أعلم

شعرت (زاد) بالخوف. شردت نظراتها، وهي ترى في حلم يقظة فرقة من الفرسان ذوي الملابس الزاهية، يمتطون السُرج التركية، ويكرون ويفرون. وبيد (هسه) رمح وسرجه مميز بأحرف من الذهب. رفع يده، وضرب بقوة، ليغرس رمحه في وجه العدو.

ارتمى وجه شاحب فوق السرج، وصاح صوت غريب... «الله أعلم».

ـ الله أعلم

قالتها مجدداً، وهي تفرك عينيها. راح الحلم. ووقف (هسه) عند الحوض يغسل يديه.

تنساب من بين أصابعه قطرات الماء...

كبيرة... شفافة.

الفصل الثاني عشر

جلس العجوز المريض في فتور ولامبالاة إلى الكرسي، واختفى وجهه خلف قناع تعقيم قماشي. انشغلت الممرضة بأدوات العملية. رأت (زاد) فتحة أنف الدرويش، وسمعت أوامر (هسه) وكأنها آتية من بعيد:

ـ من فضلك أيتها الممرضة، محلول الكوكايين والإفدرين، ومحلول شليش للارتشاح.

قامت بالترجمة، وبعدها امتلأت الغرفة برائحة الغاز واليودوفورم. نظرت إلى يدي الدرويش الشاحبتين التي استسلمت فوق ذراعي كرسي العمليات، وتخيلت ظهر يديه وكأنها تلك الحقول الصيفية بالقرب من أماسيا.

كان السلطان أوركان ينطلق بجواده عبر الحقل، وبصحبته مدربو الصقور، والعبيد، والوزراء. أداة مثل أنبوب تلتمع في يد (هسه) اليسرى. ومالت الممرضة على العجوز. قال لها (هسه):

ـ استئصال جزئي بالجراحة على طريقة كيليان.

ثم رأت (زاد) أداة معدنية أخرى. وقطع (هسه) الجلد،

ليظهر خيط من الدم على القماشة. ما أن رأت (زاد) الدم، حتى شعرت بجفاف وحرارة في شفتيها. رأت على القماشة قرية سوليدشي، والسلطان أوركان يدلف إلى منزل البكتاشي المبجل، الذي أساس الجماعة. يرتدي البكتاشي المبجل عباءات واسعة، وسأله السلطان أوركان أن يباركه ويبارك جيشه الذي يجهزه. واقترب محارب عريض الصدر من البكتاشي، الذي وضع كمي عباءته فوق رأس المحارب، ليباركه.

في تلك اللحظة، طلب (هسه) منظاراً ليمسك بالغشاء المخاطي. ترجمت لها (زاد)، فناولته الممرضة أداةً طويلة لامعة. كان (هسه) صامتاً، ويداه تتحركان في سرعة وحيوية. حملت ممرضة أخرى وعاءً على مقربة من وجه الدرويش. تباعدت شفتا (زاد) في ترقب. أطلق الدرويش آهة واهنة. ترغب (زاد) في أن تغلق عيناها، ولكن (هسه) طلب إزميلاً صغيراً. فترجمت وهي تفتح عيناها.

حملت الممرضة مطرقة صغيرة في يدها.

ـ مطرقة

هوت المطرقة الصغيرة على الإزميل. ودخلت في الجرح أداة أشبه بالصنارة. غطت خطوط عريضة من الدم الكمامة البيضاء، واستقرت شظايا من العظم في الوعاء الذي يحوي الدم. لامست (زاد) كتف (هسه)، وهي ترجوه:

ـ كفاية... كفاية... دع العجوز يموت في سلام.

كان وجهها أحمر اللون، وبرز وريد أزرق في جبهتها. رجع (هسه) بكرسيه إلى الوراء، ورفعت الممرضة الكمامة عن

وجه الدرويش. كان وجهه شاحباً غائراً. عيناه تنظران إلى بعيد، وقد أثر فيها الألم. ظلت (زاد) تكرر الكلمة، وهي تنظر إلى الأدوات التي غطاها الدم. تطلع (هسه) فيما حوله لثوان. عيناه شاردتان منشغلتان.

- أجل... أجل... لقد انتهت العملية التمهيدية. والآن سنبدأ في التدخل الجراحي الحقيقي. اطلبي منهما أن تسرعا في تغيير الكمامة. سوف أجري فتحاً تجريبياً في الجافية الدماغية.

شعرت (زاد) وكأنها طفلة صغيرة ساذجة. الدرويش جالس في الكرسي، والغرفة تبدو مثل غرفة تعذيب في سجن من سجون العصور الوسطى. و(هسه) هو الجلاد والساحر العظيم، يهشم العظام الحية ويقطع الجلد كما لو أن من حقه أن يعذب هذا الرجل الصالح.

توارى وجه الدرويش من جديد خلف الكمامة. شعرت (زاد) بمذاق مالح في شفتيها، ووجدت عيناها تختلج في سرعة. وبعينيها الدامعتين رأته؛ رأت المحارب جاثياً على ركبتيه أمام البكتاشي الكبير. بارك المحارب وهو يقول في رقة:

- ليكن اسمهم الإنكشارية. ولتكن وجوههم بيضاء، وأياديهم أيادي النصر، وسيوفهم ماضية، ورماحهم خارقة. وليكن النصر والمنعة لهم دوماً.

غامت الدنيا أمام عيني (زاد). وانعقفت السكين واضطربت في يد (هسه) بغتة.

- إنه كيس.

صوته عميق، ويحمل السكين في يده كأنه ريشة.

سيوفهم ماضية، ورماحهم خارقة

تحولت يداها الصغيرتان إلى قبضتان، وانتشر جيش الإنكشارية في أنحاء أوروبا. يرتدي المحاربون قبعة الدروايش البكتاشية، وبدلاً من الشريط هناك ملعقة خشبية. في الليل يجلسون في ساحة الثكنات الانكشارية حول القدر الضخمة التي يطهى فيها اللحم. يرتدي الشيخ البكتاشي قبعة أشبه بوعاء عليها نقوش بيضاء تدون أسماء تسعة وتسعين فرقة منتصرة. جففت (زاد) عيناها. شعرت أنها تقف في مكانها منذ دهر، أمام هذا الجسد الذي ينزف حتى الموت، والذي لا ينفك (هسه) عن تقطيعه، وعرفت أن عليها أن تبقى في مكانها ربما لأيام ولأسابيع، إلى أن ينتهي (هسه) من فعلته الدموية.

الآن في يد (هسه) أنبوب مطاطي، ويبدو أنه يلاعب كرة مطاطية.

ـ امتصاص.

قالها وهو يضغط الكرة. حرك العجوز أصابعه وأنّ بصوت عال.

ـ صوف قطني، لفتحة التصريف.

كان يمسك بأنبوب زجاجي. رفع رأسه بغتة، وقال لزاد:

ـ ربما يكون الكيس متصلاً بالبطين الثالث. ولكن الأدوات سليمة وحادة.

أومأت برأسها، ولكنها لم تترجم. أدركت أنها وحدها المقصودة بتلك العبارة غير المفهومة بالنسبة لها، وربما كان (هسه) يريد لها أن تعرف أنه متحير. لفت الممرضة الحشوات. سمعت (زاد) صوت أنفاس الدرويش الثقيلة. ذات مرة، جلس ثمانية أخوة من جماعته لأيام وليال في ثكنات الانكشارية، يدعون الله ليسدي رحمته وغفرانه على التسعة وتسعين فرقة التي ارتدت قبعات الدروايش البكتاشية، متحلقين حول قدر اللحم. وحلت بركات الله على الجيش إلى أن غمر غضب السلطان محمود الأبطال والدراويش على حد سواء. فقد جمع السلطان أربعين ألف رجل عند ساحة الحلبة في اسطنبول. وأعدمهم جميعاً، ولم ينج أحد منهم من غضب الحاكم. ومنذ ذلك يوم أضحت الامبراطورية ضعيفة عاجزة عن أن تدافع عن نفسها. وهرب البكتاشي الأخير إلى دير بعيدة في الجبال، ولكن عندما عفا السلطان عن الجماعة كانوا قد أصبحوا ذئاباً بلا أنياب.

نهض (هسه)، وهو يقول:

- يمكن إزالة الصوف القطني خلال يومين. قد يحدث انخفاض في درجة الحرارة في اليوم الأول. ولكنه لن يتحول إلى التهاب سحائي.

نقلتا الدرويش العجوز. ومشت (زاد) إلى جواره، تحدق في وجهه الشاحب. وعندما عادت إلى رشدها، التفتت إلى (هسه) في تساؤل، وقد احمر وجهها، واحمرت عيناها من البكاء. كان (هسه) يغسل يديه، وهو يفكر في أنه قد يكون ورماً داخل الجمجمة وليس كيساً، وأنه كان محظوظاً بالفعل، لأن العظم في الحفرة النخامية لم يبد أي مقاومة.

رجعا إلى الفندق. وتحدثا عن الشقة التي تنتظرهما في فيينا، وتلك الأمسيات في جرينتسينج وقت الغروب، والناس تقصد الحدائق الصغيرة الممتلئة بالكرم في أطراف البلدة، حيث يباع النبيذ الأبيض للمتحابين الجالسين إلى المصاطب الخشبية الطويلة، يغنون ويضحكون تحت النجوم.

تناولا القهوة في ردهة الفندق، وتأملت (زاد) يدي (هسه)؛ تلك اليدان اللتان تعرفان كيف تتعاملان مع أسلحة تختلف تماماً عن أسلحة الإنكشارية. سألته في وداعة، وكأن أمر الدرويش لم يعد يهمها على الإطلاق:

- هل سيتحسن؟

- بالطبع. ولكن إذا أصابه التهاب سحائي، فسيموت.

نبرة صوته مسيطرة حازمة. تلقت (زاد) رده بتسليم. حدثته عن والدها، وعن الجامعة، وعن الحكمة، والتي هي أقوى بكثير من القوة المتوحشة. لم يبرح وجه الدرويش الملطخ بالدم مخيلتها، يتحرك أمام عينيها، فباغتها خوف شديد. أصابها الشك فجأة في قدرة سكين (هسه) على أن تعيد للرجل بصره، وأن تعيد إلى جسده قوته. كان إثماً أن يتحدى زوجها القدر على هذا النحو. لا يمكن أن يكون لسحر (هسه) الأسود الدموي أي مشيئة أمام مشيئة الله. رغبت في أن تهرب من المكان قبل وقوع المحتوم، وفقدت إيمانها في قدرات زوجها تماماً.

قالت له متوسلة:

- بوسع الأطباء هنا أن يعتنوا به من الآن، صح؟ هيا

لنسافر إلى دبروفنيك في الغد. الجو حار جداً هنا، وأريد أن أكون عند البحر.

وافقها (هسه) الرأي. ولكنه لم يدرك أن زوجته تريد أن تهرب، ولكنه وجد في عينيها توسلاً وفي شفتيها ارتجافة، كما أن لا بأس من الاستلقاء على شاطئ دبروفنيك والتأمل في الأفق الإدرياتيكي الأزرق.

وهكذا انطلقا وكأنهما يفران من مسرح جريمة. واستغرقا على مدار أسبوعين في جمال أمواج المتوسط، واستلقيا على رمال شاطئه الساخنة، وانغمست (زاد) في تأمل البحر صامتةً؛ نفس البحر الذي يرسل بأمواجه لتصطدم هناك، عند بلادها.

قال لها (هسه) بنبرة ذنب:

ـ حري بي أن استفسر عن حالة الدرويش.

عندئذ بادرت (زاد) بتغيير الموضوع، وأخذت تعرض عليه فكرة نزهة جبلية وسط الجبل الأسود، وصولاً إلى سيتينيي. وأخذتهم السيارة عبر اللوفرن. كان خليج كاتارو الزرق هناك في الأسفل، والسايرة تعبر بهم طريقاً متعرجاً وعراً، بينما كانت (زاد) تخاف طريق العودة، وتخاف سراييفو، حيث تنتظرهما بالتأكيد أخبار غير سارة: أن العجوز الصالح قد مات، وأن عملية (هسه) قد فشلت.

قالت له، وهما عائدان في القطار:

ـ لنمر عليها من دون توقف. لا حاجة بنا للتوقف في سراييفو.

ولكن حينما ظهرت أمامهما مآذن الجامع الكبير من بعيد، وجدت نفسها تجمع الأمتعة، وتسحب (هسه) من يده، وتنزل على رصيف المحطة.

ـ ما الذي جرى، (زاد)؟

لم ترد عليه، وانطلقا بالسيارة إلى وسط البلدة لتناول الإفطار في الفندق. بعد ذلك تمشيا عبر حارات البازار.

في حديقة المقهى التركي، كانت مفاجأة سعيدة لهما أن وجدا الدرويش العجوز، علي كولين، جالساً يدخن الأرجيلة، ومن حوله جلس ملتحون تشي عيونهم بالورع. وجلست عائلة حسنوفيتش إلى الطاولة المجاورة، يرتشفون القهوة.

نهض الدرويش، واقترب من (هسه)، قبل أن ينحني في احترام بالغ. وخاطب (زاد):

سيدتي، التي أسعدك الحظ بالزواج من هذا الرجل الحكيم... ترجمي له هذا الكلام!

تحدث وكأنه يخطب، ولاحقته (زاد) بالترجمة.

ـ أيها الحكيم، لقد أعدت إلي نظري، وأعدت إلى جسدي الحياة والقوة، وعاد شعري لينمو. سوف أدعو الله أن يبارك حياتك، وأن تنعم بها، وأن يرزقك النجاح، وأن تكون زوجتك أهلاً لك.

انحنى له (هسه)، وقد تأثر للغاية. وأحاط به الرجال. يتأملونه بوجوههم التي تملؤها السكينة، ووقفت عائلة حسنوفيتش إلى جواره، سعداء بهذا المديح. ولم تجد (زاد) لنفسها مكاناً، فتراجعت لتقف عند سور الحديقة.

نسي الكل أنها ابنة الباشا الذي حكم ذات يوم البوسنة. صارت مجرد امرأة، غير قادرة على أن تأتي بمعجزات مثل تلك التي تحققت على يدي (هسه)؛ امرأة عاجزة عن أن تعيد البصر للعين، والقوة للجسد، والشعر للرأس - بل هي مجرد أمة متواضعة لرجل قدير.

نجح (هسه) بعد جهد في الفكاك من كل ما يحيط به من ثناء وتوقير. وتناول يد (زاد) وغادرا المقهى، يبتسمان في حياء. ذهبا إلى الفندق، وكانت (زاد) صامتة، مستغرقة في أفكارها ومشاعرها. ولما وصلا إلى هناك، أخبرت (هسه) المندهش أنها بحاجة إلى الاستحمام. أغلقت عليها باب الحمام، وسمع (هسه) صوت الماء الجاري. ولكنها لم تستحم. بل جلست بملابسها كاملة، خلف باب الحمام، عند حافة حوض الاستحمام، والدموع تسيل على خديها. ولما وجدت أن الحوض قد امتلأ بالماء، أغلقت الصنابير، ثم جلست على الأرض تبكي. بكاءً طويلاً بلا صوت، ومن دون سبب. لقد انتصر (هسه)، وهي الآن في ألم وبهجة حقيقة أنها لم تعد ابنة الباشا، ولكن زوجة رجل بوسعه أن ينتصر على الموت.

مسحت دموعها بيديها. كان الماء في الحوض نقياً ساخناً. قربت وجهها من صفحة الماء وهي تحبس أنفاسها للحظات. بالفعل، لقد مات الشرق. ها هو ذا (هسه)، الكافر، ينقذ حياة رجل دين من جماعة البكتاشي، ويثبت أنه أكثر من مجرد رجل أحب ابنة الباشا. نهضت وجففت وجهها. ثم فتحت الباب ودلفت إلى الغرفة على أطراف أصابعها. كان (هسه) راقداً على الديوان، يتأمل السقف. إنه لا يقترب حتماً من صورة البطل

المنتصر التي رسمتها في خيالها. جلست إلى جواره ووضعت يده في يديها. الرضا على وجهه الذي اسمر، ومعه بوادر نعاس. لامست أجفانها خديه، وهي تشم رائحته.

- (هسه). أنت بطل. كم أعشقك.

- أجل. لم يكن سهلاً أن نهرب منهم. لقد هرعوا جميعاً إلى المقهى مثل الشلال.

مد إليها يديه، وشعر بسعادة الدنيا وهو يتلمس جسدها الرشيق إلى جواره، يرقد في وداعة وضعف، وطاعة، وتوق. احتضنها، ونظر إلى وجهها. كانت عيناها مغمضتان... وعلى شفتيها ابتسامة.

الفصل الثالث عشر

كانت شقة كبيرة في الطابق الأرضي من بناية أنيقة في الميدان. قامت على رعايتها سيدتان عجوزتان، بشوشتا الوجه، طوال غياب (هسه) عنها. لاقت (زاد) استحسانهما، وهو ما أدركته من تلك الحركة التي قامتا بها بخفة. تلك الحركة التي تعلمتها أيام الحرب، وقت أن كان سيتم تقديمها للدوقة؛ أن تنزل بجسدها في حركة سريعة خفيفة قبل أن تنهض في لمح البصر.

إطلالة الشقة على شارع عريض وأشجار خضراء في برجارتن. طلت (زاد) من النافذة واستنشقت نسيم فيينا العليل، وعبق الأزهار والغابة البعيدة ومرتفعات النمسا الخضراء. تجولت في غرف الشقة، ومنحتاها المدبرتان بسعادة مفاتيح كل الخزائن والغرف، والقبو كذلك. وتجول (هسه) بدوره في الغرف، ينظر بعيني طفل يعيد اكتشاف دمية فقدها منذ زمن. اصطحب (زاد) إلى غرفة الطعام بأثاثها الجلدي الداكن. ثم إلى المكتب في ركن الشقة، والذي تشغل جدرانه نوافذ كبيرة، ويميزه أثاث زاهي الألوان. وبعد ذلك أخذها إلى العيادة ذات الجدران البيضاء، ووجدت بها أدوات ومعدات لا تحصى، تلمع

داخل خزائن زجاجية. وفي غرفة الانتظار صحف ودوريات جديدة، وعلى الجدران صور أناس أنقذ (هسه) حياتهم، مع شهادات منهم. ينظرون إلى (زاد) بعيون سعيدة مشرقة.

وصلا إلى الحمام، فتوقفت (زاد)، متعبة، ولمحت وجهها المنفعل المرتبك منعكساً على المرآة.

ـ ماء. ماء، من فضلك. هذا أثاث كثير جداً.

فتح (هسه) الصنبور وناولها كوب ماء. ارتوت ممتنة إليه، وارتسمت الجدية على وجهها، وهي تقول:

ـ مياه عذبة للغاية! هي الأفضل بعد مياه اسطنبول!

لمحت حيرة (هسه)، فأردفت:

ـ تعلم أننا الأتراك لا نشرب الخمر. ولكننا خبراء في المياه. ويمكن لوالدي أن يميز الفارق بين مختلف مياه العالم. وعندما أتى جدي إلى البوسنة، كانوا يأتونه بالمياه من اسطنبول في جرار ضخمة. وهذه المياه هنا هي الأفضل في أوروبا.

أخذت رشفات ثم رشفات منها، وفكر (هسه) أن أجدادها كانوا يشربون من آبار في منازلهم يقصدونها بعد طول التجوال في الصحاري.

وضعت (زاد) الكوب، وهي تشرح:

ـ في بلادنا، لا يوجد في الغرف من أثاث سوى السجاد والكليم والديوان. توضع الدواوين جوار الحائط، وفوقها المفروشات والوسائد، وقد تجد في بعض الغرف مناضد صغيرة. ونحن ننام على الأرض، فوق مفروشات معدة لذلك.

وخلال النهار توضع تلك المفارش في خزانة في الجدار. أما في الشتاء فنضع طستاً به فحم مشتعل في الغرفة حتى تكون دافئة. فأنا لست معتادة على كل هذا الأثاث. وبالتأكيد سأتعثر في كل تلك الطاولات والخزائن، ولكن لا يهم. هيا نكمل!

مشيا عبر الممر الطويل المعتم، وفتح (هسه) باب غرفة النوم. دعاها في فخر لتدخل. ودخلت (زاد). هناك فراشان عريضان إلى جوار بعضهما، وستارة، وديوان، ومناضد إلى جوار كل فراش.

- تفضلي

تذكر (ماريون)، التي اختفت، والتي كانت تنام على هذا الفراش، تحلم برجال غيره. أغلق الباب في سعادة. ووقف في وسط الغرفة ينظر إلى الفراش، وإلى (زاد)، وإلى المناضد، وبدا على وجهه الحزن. لامست (زاد) خده، ونظر إليها بعينيه المسحوبتين، راجياً. احتضنها، وكأنما يريد أن يتوارى عن أنظار كيان خفي، عفن، حاضر في الغرفة.

أحنت (زاد) رأسها. على عنق (هسه) العريض وذراعيه القويتين. شعرت بتعاطف معه. (هسه) القوي يقف متحيراً في منتصف الغرفة - كيف يتحول إلى شخص مسكين قليل الحيلة في عالم من كلمات لا يبوح بها أحد ومشاعر لا يكاد يشعر بها أحد! داعبت خده، وهي تقول لنفسها أنها ستفعل كل شيء حتى يبقى (هسه) في نظرها صانعاً للمعجزات، حكيماً وقوياً في عالمه الذي يَخبُره. أرادت أن تقول له: «لا تخف. سوف أبقى زوجة مخلصة لك». ظلت تطوق عنقه، ووجد (هسه) في عينيها

ذلك الصدق والتواضع الذي يميز الآسيويات. وقالت له:

ـ تعال. لنفرغ الحقائب.

رقدا ليلاً في الفراش الرحب، إلى جوار بعضهما البعض، وداعب (هسه) شعرها وهو يحكي لها عن أصدقائه، وعن مسرح بيرج ذو الدرج الرخامي المذهب، وعن الحياة التي تنتظرهما ما أن ينتهيا من ترتيب كل شيء في الشقة.

أنصتت (زاد) إليه، وهي تتأمل السقف الأبيض وتفكر في (ماريون)، التي سبقتها إلى رؤية نفس السقف، بينما كانت تحلم برجال آخرين. رغبت في أن تسأل (هسه) عن (ماريون) ولكنها خافت. كان الفراش ناعماً دافئاً، و(هسه) يرقد في منامته داكنة اللون، ويسند خده إلى ركبة (زاد).

ـ ابق معي، (هسه).

قالتها له، رغم أن (هسه) لم يكن ينوي الذهاب إلى أي مكان آخر. اعتدلت، تنظر إليه بعيون السعادة. ها هو ذا، راقد إلى جوارها، وعلى وجهه شبح ابتسامة صغيرة، وتملأه قوى غامضة تحكمها وتحكم حياتها. قربها إليه، وفشعرت أنها طفلة صغيرة بين يدي ساحر عظيم.

أغلقت عينيها وهي تشعر بيديه، وجسده، وأنفاسه؛ قريبة ودافئة. اعتراها خوف امتزج بالسعادة. وفتحت عينيها ببطء وخشية. لمحت على البعد تلك الزخارف في السقف الأبيض، ووجه (هسه) الذي أضحى متوتراً جاداً، وقد ضاقت عيناه أكثر، فبدا غريباً فيه توحش...

راح (هسه) في سبات عميق، وقد ضم ساقيه إلى جسده مثل الطفل، وقد أسند خده إلى ركبتيها. أما (زاد) فلم تنم. بقت تحدق في الظلام. هذه الشقة مثل جزيرة، وهي مثل غريق نجا ووجد فيها ضالته من محيط هائج اسمه الحياة. في الخارج مقاه لا تعرف عنها أي شيء، وفيها رجال ونساء تفكيرهم مثل تفكير (هسه)، ولكنهم ليسوا سحرة مثله، ولا سيطرة لهم على أحاسيسها ومشاعرها كما يسيطر هو. هناك وفي مكان ما توجد (ماريون)، التي حلت هي محلها، والتي لا تعرف عنها إلا أنها تتنقل مع رجل في بقعة ما من العالم، واستحقت كل غضب الله وعذابه الذي أعده للخائنات أمثالها.

نادته وهي تداعب شعره. وأيقظته.

تنحنح في دهشة وهو نعسان، فقالت:

- هناك مساحة كبيرة بيننا. كن بقربي، (هسه).

- حسنا

غط في نومه ثانيةً. وأغلقت (زاد) عينيها. تتمنى لو دامت تلك الليلة إلى الأبد، لتكون كل حياتها. وتمنت لو استمر (هسه) إلى جوارها، مثل طفل نائم، ليس عليه أن يتركها إلى خضم عالم غريب وأناس لا تعرفهم، وأفعال وأمور تجهلها.

استغرقها النوم، فاستسلمت له في هدوء وارتياح. كانت يد (هسه) فوق صدرها، فتشبثت بها وكأنها تعويذة حظ، أو سحر يحميها من ذاك المحيط...

... الذي يضرب بأمواجه أطراف جزيرتها.

الفصل الرابع عشر

لا يتوقف رواد مقهى رينج عن تصفح الجرائد. وكان كبير السقاة أول من تعرف على (هسه). رحب به ونادى على الساقي:

- الطلب المعتاد للدكتور... قهوة مع كريمة، والدورية الطبية.

ظل واقفاً مع انحناءة بسيطة، قرب الطاولة الرخامية:

- عودة للديار مرة أخرى؟

- أجل. ومتزوج كذلك.

- أطيب الأمنيات، هر دكتور. عرفنا أن السيدة أجنبية.

- بلى، تركية.

أومأ كبير السقاة برأسه، وكأن من البديهي أن يتزوج الطبيب تركية. وحكى للطبيب عن أخيه الذي كان في تركيا أيام الحرب، وأنه أخبره أن الأتراك أناس عاديين، مثلهم مثل غيرهم من البشر. ثم أحضر رزمة من الصحف والدوريات. تصفحها (هسه) وهو مشغول البال. الشمس مشرقة في الساحة أمام

المقهى. وتتمشى سيدات بصحبة كلابهن الصغيرة عبر الشارع، بكل ثقة وأنفة. وترتفع الأشجار وقد امتدت أغصانها في أرجاء الشارع، وبدا مبنى الأوبرا داكن اللون على البعد مثل حصن. وتوالى قدوم أصدقاء ومعارف، ينظرون، فيرون (هسه)، فيبادرون بالمرور على طاولته للترحيب بعودته بحرارة واضحة.

يصافحهم (هسه) وهو يشعر بالسعادة لعودته إلى بلده. ها هم ذا ـ الأشخاص الذين يشكلون حلقة الأصدقاء والمعارف، والذي قدّر مصير غامض أن يكونوا جميعاً معاً، يجلسون، يتحدثون، ويتندرون. أناس ارتبطت حياته بحياتهم، وحرصوا هم في شيء من الفضول على تتبع مستجدات حياته، مثل مشاهد يتفرج على عرض حي من بعيد. هذا الدكتور (هالم)، طبيب أمراض النساء؛ وهذا (ناتوشيك) أشيب الشعر، الذي اخترع نظم الحمية الغذائية الشهيرة والتي يرى أن لا جدوى منها؛ و(ساكس) جراح العظام، والذي لا يعمل إلا شتاءً، خلال موسم التزلج على الجليد؛ والجراح (ماثيس) ذو الساقين الطويلتين هاوي اللوحات الصينية؛ وخبير الأعصاب الدكتور (كيرتس)، مدير المصحة النفسية الذي يعتقد أن الحب مرض يصيب الجهاز العصبي.

جلس الأصدقاء إلى طاولة (هسه)، وبدأوا يسألونه أسئلة لا تختلف كثيراً عن أسئلة الساقي. كانوا يهزون رؤوسهم، ما بين استحسان وقلق، وقال أحدهم في غبطة:

ـ إذن فقد تزوجت قطة من أنغورا... أيها الشقي.

أومأ (هسه) برأسه، وهو يشعر أنه يعيش حلماً متكرراً ـ

متأكد من أنه قد سمع تلك الأسئلة وأجاب بتلك الردود في عالم آخر، غير حقيقي.

تكاثرت أقداح القهوة فوق الطاولة. وسال خيط من الماء من كوبه فوق سطح الطاولة الرخامي، وسرعان ما صنع خلجان وبحيرات دقيقة، كان مصبها أسفل قدح الدكتور (كيرتس). حدثهم (هسه) عن حماه الباشا السابق، والذي هو اليوم مدير متجر سجاد كبير في برلين، وحكى لهم عن ذلك القصر على البسفور، والذي وجد نفسه يعرف الكثير عنه من دون وعي منه بذلك. وحدثهم عن تلك الدراسة الغريبة لزوجته في الجامعة، وحكى لهم حكاية علاجه للدرويش الشهير علي كولي في سراييفو.

أنصتت له الدائرة من حوله، في تعجب وغبطة. وعندما نطق المصطلح «الغدة النخامية» استرخت الوجوه وتحولت الأفكار والكلام إلى الحديث المهني الطبيعي. فقال الدكتور (كيرتس)، وكأن ورم الغدة النخامية ليس بالشيء الخطير:

- كانت لدي حالة من يومين. فقد أصابت رجل الأعمال (دانسكي) زغطة عصبية. ولم تتوقف طيلة ثلاثة أيام. فما الذي يمكن للمرء أن يفعله مع حالة مثل هذه؟

توقف، ونظر إلى من حوله ليرى وقع سؤاله عليهم. ثم أردف بنبرة تعكس قسوة مهنته:

- أبقيت رأسه تحت الماء قرابة نصف الساعة وأنا أطلب منه أن يحبس أنفاسه. ونجح العلاج.

فقال له جراح العظام، وهو يتذكر الأنهار الجليدية خلال موسم التزلج:

ـ ممكن أن يبتلع قطعة ثلج.

استطرد دكتور (كيرتس):

ـ جربت التنويم المغناطيسي، ولن تصدقونني لو قلت لكم أن الزغطة عادت إلى الرجل ما أن استيقظ.

صار الحوار شيقاً. وتحدث (كيرتس) عن الصدمة النفسية. وبادره (ماتوشيك) بصوت عال متحمس:

ـ خلل في الأعصاب المحركة لأوعية الحجاب الحاجز.

كان كبير السقاة العجوز واقفاً يستند إلى أحد الأعمدة الرخامية، يتابع في هدوء ما يجري على طاولة الدكتور. وقال لنفسه، «مناقشة علمية، صرنا مقهى من الدرجة الأولى».

قال (هالم)، طبيب أمراض النساء، ساخراً:

ـ عليك بالذهاب إلى متخصص في علاج الجهل الطبي. لقد نسيت التفكير النظري. تقول إنه مجرد اضطراب في الحجاب الحاجز. فما الذي يتحكم في الحجاب الحاجز إذن؟ إنه الجهاز العصبي. هاه! ألم تسمع من قبل بشيء اسمه «لوكوس سيسلباخ»؟ حسناً ـ ها قد سمعت به. وليس أمامك سوى شيء واحد تفعله...

لم يكمل جملته. فقد انتبهوا إلى وقوف شقراء عند طاولتهم، تنظر بعينين خائفتين إلى كل هؤلاء الأطباء المتجادلين، وتتأمل المياه التي تجمعت أسفل قدح الدكتور (كيرتس).

ـ أنا (زاد).

قالتها الفتاة، فتوارت زغطة رجل الأعمال في غياهب الحكمة العلمية. ونهض الأطباء سريعاً عن مقاعدهم. وصافحتهم (زاد). وهي تنظر في حياء إلى (هسه)، الذي أومأ لها مطمئناً. هؤلاء إذن الرجال الذين عليها أن تصافحهم، وعليها أن ترد على أسئلتهم؛ هؤلاء هم جزء من عالم (هسه) الغامض.

قالت لهم في شرود وهي تجلس:

ـ أجل. فيينا مدينة جميلة للغاية.

راقبها الأطباء في فضول وهم يطرحون عليها الأسئلة. أجابتهم (زاد) بكل صبر. خيل لها أنهم حينما يبتسمون فإن وجوههم تتشوه بعبوس غريب عليها. جلست وسطهم بعينيها الرمادية وشفتها العليا الأصغر من قرينتها، وعلى محياها ذلك التعبير الساذج، بينما شعروا هم بأن العالم صار أجمل، وأنه يستحق أن يعيشوه، وأنه مليء بالأسرار الغاوية، وفيه ما يختلف كثيراً عن زغطة رجل الأعمال (دانسكي).

كان الدكتور (كيرتس) خبيراً بالمشاعر، وفهم روح السيدة الجالسة أمامه:

ـ سوف نذهب إلى الهيريجين الليلة. لم يسبق لكِ الذهاب إلى هناك من قبل، سيدتي؟

ـ كلا، ولكني أعرف عنه. إنه مكان في جرينتسينج، وعند الغروب يقصد الناس حدائق الكرم ليغنون.

ـ صحيح.

أثنى عليها (كيرتس)، وأومأ الأطباء في استحسان. أجل، لسوف يذهبون جميعاً في تلك الليلة إلى الهيريجين، إلى حدائق الكرم الشابة الخضراء، وحقول العنب في الضاحية، والحارات الضيقة الممتدة فوق المرتفعات تحت نور القمر. نهضوا. كانوا عليهم أن يقصدوا منازلهم على عجالة! لإلقاء نظرة على العيادة، ودردشة قصيرة مع الزوجة أو الرفيقة، قبل أن يستقلوا السيارة التي ستأخذهم إلى حقول العنب وسط صمت الليل!

قالت لهم:

ـ حسناً، لنذهب إلى الهيريجين.

وقفت إلى جوار (هسه)، رشيقة، أجنبية، هادئة. ترك (هسه) ذراعه لها لتتعلق به، ومشيا باتجاه الباب. تتبعهم كل العيون في المقهى.

ـ إنها موجعة.

قالت له بعد أن صارا في الشارع.

ـ ما هي؟

ـ النظرات. ينظرون إلي كأنهم يريدون تقبيلي.

ـ ربما كانت تلك هي رغبتهم.

ضربت الأرض بقدميها:

ـ اسكت. هذه ليست طريقة لائقة لتتحدث بها مع زوجتك. تعال. هيا بنا إلى الهيريجين.

شموع في شمعدانات زجاجية فوق طاولات خضراء ممتدة.

أغصان الشجر تتدلى فوق الطاولات وكأنها أشباح تحجرت. تتجول فتيات في تنورات زاهية الألوان في أنحاء الحديقة، وهن يحملن قناني النبيذ فوق صواني خشبية. الناس جلوس، مبتهجي الوجوه، تنيرها أضواء الشموع. يهب عليهم نسيم دافئ من جهة حقول العنب، وبدا أن الناس والأشجار والطاولات تمتزج جميعها تحت نور القمر المتضائل. تسود الحديقة أجواء بدائية ساحرة؛ وكأن هناك طقس غامض يقام، أو هي صلاة للنبيذ.

تفرغ القنينة تلو الأخرى. وتغيم دنيا الطاولات والأشجار في عيون السكارى. وتتحول الحديقة الهادئة إلى معبد قديم تقاد فيها الشموع لإله مجهول. ومن بعيد يأتيهم صوت سيدة تشدو برقة وحزن. الكلمات تجد طريقها إليهم عبر طيف من النغم المختلج. يسندون رؤوسهم على أياديهم، يستمعون إلى صدىً غامض في ذلك النغم الحزين؛ صدى أحلامهم وأفكارهم، وحنينهم. يجلس رجل بدين وحده، مستند إلى شجرة عتيقة. بدا وكأنه يتأمل كل معاناة العالم.

جلست السيدات في أحضان رجالهن، تنظرن من حولهن في أدب. الكل يغني، وتلك الفتيات لا يتوقفن عن إحضار المزيد من النبيذ... كانت (زاد) جالسة إلى الدكة الخشبية بين (هسه) والدكتور (كيرتس). من حولها أطباء ونساء، وهي تائهة وسط كل هذه الأسماء المربكة. ولكن حتى من دون أسماء، ومن دون أي أسئلة، كانت تربط بين كل سيدة وزوجها أو رفيقها، وحدست من يراقب من في تغزل أو فضول... عمدت إلى تأمل وجوه السيدات التي أبهجها النبيذ؛ رؤوس شقراء وسمراء وحمراء، مالت فوق الطاولات بينما ترتفع الأيادي بكؤوس النبيذ إلى أفواهها.

سألها أحدهم من عند الطاولة:

ـ لماذا لا تشربين؟

هزت رأسها، مبتسمة. كلهم لطفاء، ولكنها لا يمكن أن تشرب. كانت ترتشف من كوب ماء:

ـ انا لا أشرب النبيذ. ديني يحرم علي هذا، كما تعلمون. ولكن مياهكم طيبة جداً. الأفضل في أوروبا.

ارتشفت مجدداً منها، ووضعت إحدى الفتيات شرائح كبيرة من النقانق واللحم البارد والخبز فوق الطاولة. ألقت (زاد) نظرة إلى ذلك اللحم الذي امتزج فيه اللون الدهني الأبيض بالأحمر الشاحب، وشعرت ببعض الطنين في أذنيها.

ـ هل هذا لحم خنزير؟

أجابوها وهم يأكلون أن نعم.

فتحت فمها واحتبست أنفاسها في وجل. تلك هي اللحظة التي توقعتها وكانت تخشاها. إنهم يأكلون لحم الخنزير في أوروبا. لم يسبق لها أن رأت خنزيراً حياً، ولا تعرف مذاق لحمه. ولكن هناك في عروقها يجري خوف غامض وقديم، ومقت واشمئزاز لذلك اللحم الذي حرمه الله على المسلمين. تعمدت أن تلوك في فمها قطعة خبز في بطء، بينما نظرت إليها السيدة التي ترافق الدكتور (ماثيس) في شفقة:

ـ ألم يصبك الملل من الجلوس هنا من دون شرب أو أكل؟

ـ كلا، أشكرك، فهي حديقة جميلة.

ابتسمت لها الأجنبية. شعرها أشقر، وشفتاها صغيرتان حمراوتان.

رغبت (زاد) في التلطف إلى السيدة:

- هل لديك العديد من الأطفال؟

نظرت إليها السيدة في دهشة:

- أطفال؟ ليس لدي أي طفل.

ضحكت (زاد)، في استغراب:

- أوه... إذن لم يمر على زواجك الكثير من الوقت؟

ضحكت السيدة التي بدت مبتهجة للغاية:

- في المجمل عشر سنوات، ولكن مع ثلاث أزواج مختلفين. لقد تطلقت مرتين.

احمر وجه (زاد) بشدة، وأشاحت وجهها في حياء:

- أوه... أفهم هذا، طبعاً.

أنهت كوب الماء، ونظرت إلى السيدة في شفقة. مسكينة! لم يتسن لها أن تنجب.

ابتسمت لها الفتاة اللطيفة الجالسة مع الدكتور (ساكس):

- تناولي شيئاً من الجبن.

ناولتها شريحة جبن. بدت فتاة لطيفة هادئة، ولكن من الواضح أن من العيب أن تسأل امرأة أوروبية عن أطفالها.

ـ كلا... أمي هي التي تدير شؤون المنزل.

ـ أوه... والدتك تعيش معكِ.

رمقت (زاد) الدكتور (ساكس) في استحسان. الرجل الطيب هو من يقبل بأن تعيش حماته معه في منزله.

ـ كلا، أمي لا تعيش معي. أنا التي أعيش مع أمي.

لم تستوعب (زاد) ما تقصده الفتاة. ربما هي سكرانة. يقولون أن الخمر تصنع المعجزات:

ـ وزوجك موافق على هذا؟

وجدت الجميع يضحك على ما قالته، ويتندرون وسط الضحكات والبهجة الشملى. لم تعد (زاد) تفهم أي شيء مما يجري حولها، وقد تبين لها أن من بين السيدات الأربع الجالسات إلى هذه الطاولة فإن هناك اثنتان فقط متزوجتان. وكنوع من التعويض، فإن هاتين المتزوجتين قد مرتا بأكثر من تجربة زواج سابقة.

لاحظت الفتاة ذات الشعر الأحمر حيرة (زاد)، فمالت نحوها:

ـ يمكن للمرأة أن تحب رجل من دون أن تتزوجه، أليس كذلك؟

أومأت (زاد) برأسها. هذا يحدث فعلاً، ولكن من المحال أن تحب من دون أن ترغب في الإنجاب. محال تماماً. أكيد أن كل إنسان ناضج يعرف هذا. وضحك هؤلاء الناضجون. ومعهم ضحك (هسه)، ووضع يده فوق ركبة (زاد). فجفلت في

خوف. هذه الحديقة ليست فراش زوجية، ولكنها حدست أن (هسه) سكران. هذا ما يحدث للأوروبيين، والغلطة ليست غلطتهم. ضحكت السيدات الأربع اللاتي تزوجن كثيراً من دون أن تنجبن، وأدركت (زاد) أنهن لا يلقين بالاً لمسألة الزواج من الأصل.

همست في أذن (هسه):

ـ سأعود خلال دقيقة.

مشت بسرعة عبر الحديقة، ومرت على الطاولات الممتدة. لطمها أحد الأغصان، فشعرت بأنها وحيدة، وحيدة بدرجة مخيفة وسط هذه المتاهة من السكارى.

وصلت إلى الشارع الهادئ. شعرت أن كل من في الحديقة مجرد أقنعة وسط كابوس. لا وجود لنسوة مثل تلك النسوة إلا في حي المجرمين في تاتوالا، أو في حارات السكارى في غلطة، ولكنهن غير مرتبطات بمثل هؤلاء السادة الأطباء. شعرت بألم أجوف رتيب في صدرها. مشت إلى جوار صف السيارات المتوقفة، حتى عثرت على سيارة (هسه)، فدلفت إليها، ولجأت إلى مقعد السيارة الناعم، وانزوت، وهي تشعر بضآلتها. الشارع معتم وغامض، مثل حياة هؤلاء الأجانب، ومثل ظل عالم غريب لا يمكنها الوصول إليه.

حدقت (زاد) في البعد، في خيالات حقول العنب أسفل سماء مقمرة. ومن بعيد أتاها صوت الغناء. سمعت أول كلمات في الأغنية:

«أنا عائدة من جرينتسنج، ومعي قرد صغير نحيل...»

الكلمات ملغزة، مبهمة، مثل كل شيء في هذه البلدة الغريبة. كيف لفتاة تركية أن تعرف أن «قرد صغير» في لهجة أهل فيينا تعني «السكران»؟

قالت لنفسها في حيرة، «لابد أن الوجه الحقيقي لهذا العالم متوارٍ في مكان ما». هناك في جرينتسنج قردة صغار تتقافز من غصن إلى غصن، مروضة ورقيقة، ويمكنها أن تعيش في المنازل. تطلعت من حولها. لم تجد أي قرد. واعتراها حزن عميق. مشت عبر عبق اللحوم والنبيذ؛ وأجبرها ضعف غريب على أن تغلق عينيها وتسند رأسها إلى المقعد. مرت نصف ساعة قبل أن يعثر (هسه) عليها. كان مفزوعاً. مدت يدها إليه وهي تهمس:

ـ (هسه). لقد تهت، وأنا خائفة من القرود... انقذني... (هسه)!

الفصل الخامس عشر

ـ تناول بعض الكافيار، (جون).

كانت الأضواء مبهرة، والبوفيه البارد بواجهته التي تعرض أطيب الأطباق وسط أضواء متنوعة مثل قوس قزح. كانت حبات الكافيار السوداء ناعمة طرية، والاستاكوزا الحمراء أشبه بفلاسفة متأملين، والفطائر حاضرة مثل الحصون، بينما يحمل المحار في المياه المثلجة عبق المحيط داخل أصدافه البيضاء.

تناول (جون) مطيعاً بعض الكافيار، بعد أن عصر عليه بعض الليمون. زاد الطنين في أذنيه.

علّق (سام دوث) وهو يمضغ قطعة من الفطيرة في لذة وبهجة:

ـ يالها من قوة عاصفة. غريب، أليس كذلك، أن البحر يتلاعب بالسفن الكبيرة مثلها مثل القوارب الصغيرة.

عقب ذلك، نحى (رولاند) صحنه بعيداً، وأسرع إلى الخارج. نطق جملة بلغة أجنبية، ففهمها اليوناني على الفور. ابتسم وتناول المزيد من الكافيار، ولكن (رولاند) كان على

سطح السفينة بالفعل. المحيط رمادي والأفق يستدير ويستدير أمام عينيه. تضرب الأمواج جدار السفينة تدفعها الرياح وكأنها غمام يتساقط في البحر. اقترب منه خادم ووضع غطاءً صغيراً على ساقيه.

- قهوة؟ ويسكي؟ كونياك؟

أومأ الخادم متفهماً، فلقد كانت العاصفة قوية.

شعر (جون رولاند) بمذاق آسن حامض في فمه، وأحس وكأن هناك من يلقي به في هاوية بلا قرار. ونجح بعد مكابدة في إشعال سيجارة، قبل أن يلقيها بعيداً على الفور. فلو أنه أخذ نفساً واحداً منها لحدث شيء مريع لم يكن ليتجنبه.

نظر (جون رولاند) إلى علبة السجائر في غضب، وقال لنفسه أن الغلطة في غلافها، الذي يظهر جملاً غبياً واقفاً وحده وسط الصحراء. كان بوسعه أن يجلس مع نفسه في بار فندقه، وعندئذ كانت الأرض من تحته ستبقى ثابتة لا تتأرجح.

منذ ستة أيام مضت، فتح علبة سجائر مثل هذه، كما يفعل في كل يوم، وعيناه ترمقان ذلك الوجه المبتسم للجمل الغبي. وفجأة، تضخم أمامه وجه الجمل، وأخذ يدور ويدور تحت قدميه، وضربته رياح صحراوية جافة في وجهه، ورأى الأخفاف الناعمة المرتجفة لحيوانات الصحراء، وشعر بملمس وبرها القاسي المغبر. فداعب برقة مفاجئة غلاف علبة السجائر.

- (بيركيليس)، ابحث عن صحراء بها جمال ومساجد. أنا ذاهب في رحلة، وأنت آت معي.

بعدها راح في النوم، وفي اليوم التالي كان (سام دوث) واقفاً أمامه، وبيده تذكرتان إلى الدار البيضاء، وعيناه اليونانيتان تبتسمان.

حرك (جون رولاند) قدميه أسفل الغطاء، وهو يراقب وكيل أعماله يقترب منه على سطح السفينة، يدخن السيجار في رضا عن نفسه. فقال له بمرارة ساخرة:

- كيف لك أن تكون سعيداً، بينما الكل يعرف أن هناك آلاف من البشر مضطرين إلى سكب كأس المرارة في أودية الدموع؟ أنت لم تفهم آلام العالم.

أومأ (سام دوث) برأسه دون أن يعقب، وجلس، قبل أن يطلب لنفسه قدح موكا. وقال له:

- فيلم «سور الصين» مستمر في العرض في برودواي للأسبوع الرابع. فكيف لا أكون سعيداً؟

- أنا من كتبه، وقد يقتلني الحزن كلما فكرت في مصير تلك المرأة الحامل في الهند.

أجابه وهو يرتشف الموكا:

- طبيعي أن تفكر في مثل هذه الأمور وسط عاصفة مثل هذه. أما أنا فهذه هي ثامن مرة أعبر فيها المحيط.

شعر (رولاند) بالإهانة. وفكر في أن ينهض ويعنف اليوناني، ويخبره أن قدماء اليونان كانوا برمائيين، وأن عوليس كان قرصاناً، ناهيك عن آرغون. وفكر في أن يقول لسام دوث أن أسلافه لم يفارقوا اليابسة، وأنهم برغم سيطرتهم على ثلاث

قارات إلا إنهم لم يعرفوا حرية العيش في البحر، وأن البشر الحقيقي لا يعبر المحيط في مركبة وزنها أربعين ألف طن، وأنه لن يناديه (سام دوث) بعد ذلك، بل «النبتوماني». ولكنه بدلاً من ذلك نهض عن كرسيه،وقال له مبتسماً:

ـ عزيزي (سام)، أنا ذاهب لأنام. ستجد وصيتي الأخيرة عند موظف الاستقبال في الباربيزون بلازا.

تركه ومضى، يتعثر في مشيته قليلاً، ويستند بقوة إلى درابزين السلم، قبل أن يفتح الباب المفضي إلى قمرته.

* * *

رقد على فراشه، وأغلق عيناه، وهو يشعر أن جسده يغوص ويغوص في هاوية، وأن هناك من يسحبه لأعلى مجدداً. عقد يديه فوق الغطاء، وفكر في زمن أن كان في السادسة من عمره وهو جالس على ركبتي السلطان عبد الحميد. تميز السلطان عبد الحميد شفتان مسحوبتان، وعينان خبيثتان، وأنف أبجر كأنه يتدلى من وجهه، يداه مخضبتان بالدم، والعالم كله يخشاه. ولكن (جون رولاند) يجلس في حجره، والسلطان المتعطش للدم يداعب خديه ويطلب منه أن يسمعه قصيدة فارسية، لا يتذكر منها الآن سوى بيت واحد:

تازي بيتازي أون بيم... أعذب وأعذب، أصغر وأصغر...

ـ لم أعد عذباً ولا صغيراً.

هكذا قال (جون رولاند) لنفسه وهو يغلق عيناه. ومرت

دقائق، ولكن تلك الدقائق شهدت عزل السلطان الدموي، وتنصيب سلطان جديد، ليحمل سيف العثمانيين، وعاش (جون رولاند) في قصر وسط الخصيان والهوانم. يرتدي أحياناً زياً يمتزج فيه الأحمر بالأزرق، ويصافح الجميع في كبرياء.

ثم وجد نفسه جالساً فوق سجادة كبيرة، يقرأ في كتب، ويكتب الشعر، بينما يقوم على خدمته عبد نحيف، يعرفه أسرار الحب. غاص جسده في الهاوية من جديد، ورأى (سام دوث) يعطيه عصير البرتقال وهو يبتسم في مكر. ثم مرت دقائق أخرى، أشرقت فيها الشمس من الشرق قبل أن تغرب ملتهبة في الغرب. اشتدت قوة العاصفة. وكان (سام دوث) جالساً في قمرة (جون رولاند)، يدندن بأغنية يونانية عن عامل ميناء اسمه شوردادشاكي، الذي أغوى أرملة قبل أن يهرب إلى سولانيكي بعدما سرق مالها.

نهض (جون رولاند) لبضعة دقائق، وهو يشعر بالأسى على أرامل الهند وكل النساء الحوامل في أمريكا. رغب في أن يعود إلى الكتابة، فوراً، ولسوف يكتب فيلماً وثائقياً عن الجمال، ورغب أيضاً في مقاضاة شركة سجائر شهيرة بتهمة التعدي عليه. ولكن العاصفة أضحت أشد قسوة، فعادت ذكريات (جون رولاند) إلى تلك الغرفة اللطيفة الهادئة التي تركها في نيويورك، ممتلئة بآلام العالم.

سمع أمواج المحيط الغاضبة، وهو يحاول استحضار مياه البسفور الهادئة، ولكن تلك الصورة استعصت عليه.

ثم غشا القُمرة ضوء الشمس الشاحب.

أغلق (جون رولاند) عينيه، قبل أن يفتحهما مجدداً، واندهش لما أدرك أنه نور القمر، وليس ضوء الشمس. استسلم للنوم، وهو يفكر في أن يكتب فيلماً اسمه «الأرض الجافة». ولكنه استيقظ تماماً بغتة. كانت السفينة ساكنة بلا حراك، مثل جندي يقف انتباه في الحراسة. اتجه (جون) إلى النافذة وشاهد شريطاً من اليابسة يمتزج فيه اللون الأخضر بالرمادي، في بلدة منازلها مربعة الشكل، وبها مآذن، وقباب مساجد، وهناك وجه أسمر واقف عند الشاطئ، وهو ينظر في توق إلى ناحية قمرته.

قال له (سام دوث)، الذي دلف إلى قمرته:

ـ وصلنا أفريقيا. لقد حجزت غرفتين في فندق سبليندديد بالاس في الرباط. لاحقاً سنذهب إلى إحدى الواحات، نسيت اسمها، ولكن الفندق هناك اسمه ميديترينيان. وهو فاخر بالطبع.

حلق (جون رولاند) ذقنه، ولمح عبر النافذة وجه جمل عابر. فأسرع يصعد إلى ظهر السفينة. استقبلته الرياح، وسعف النخيل المتمايل يكاد يلامسه.

ـ هيا بنا إلى أفريقيا.

أمسك وكيل أعماله من ذراعه. هبطا من السفينة، ووقف فوق التراب المغربي وهو يأخذ نفساً عميقاً.

ثلاثمائة خطوة، وممر ضيق، وبصحبة دليل مسكين ذي ذقن مجدولة يتلمس أحجار برج الحسن في رقة. بالأسفل مدينة الرباط. قال لهما الدليل:

ـ هذه البلدة مثل فتاة بيضاء في أحضان عبد أسود.

لم يعلق (جون رولاند). تأمل البلدة البيضاء، والمحيط، وشريط الرمال الرمادية عند الأفق.

قال لهما العربي وهو يتطلع إلى بعيد:

ـ بنى الحسن هذا البرج، وهو نفسه من بنى الجيرالدا في جرانادا.

سكت. هناك غبار في طيات عباءته. نظر (جون) إلى الرمال، وإلى الوجه المتغضن، وأحجار البرج العارية.

ـ هنا... في هذه البقعة... أمر الخليفة الحسن أن يبني قصراً مثل قصر الحمراء. وأمضى الحسن أياماً وليال هنا، على السطح. وذات يوم رغب الخليفة في سبر أغوار تأملات الحكيم فصعد البرج ـ ليجد الحسن في أحضان زوجة الخليفة. وهكذا لم يكتمل بناء المسجد والقصر.

وقف العربي عند حافة البرج وأشار إلى أسفل:

ـ هنا، فوق هذا الحجر، تحطم جسد الحسن.

نظر (جون رولاند) إلى أسفل. شعر بحرارة الدم في جبهته. وبغتةً، بصق نحو تلك الهاوية، وصرخ بالعربية وبكل حرارة:

ـ ياله من ابن سافلة! حتى يغوي زوجة الخليفة!

سمع العربي تلك الشتيمة العربية فذهل. ربت (سام دوث) على ظهره، وأشار خلسة إلى رأسه، قائلاً:

ـ انتبه! فالسيد الشاب ليس على ما يرام.

اصطحب (جون رولاند) إلى أسفل؛ وتمشيا في البلدة، ووسط الحارات الضيقة في البازار. تمر عليهم الجمال، ورؤوسها تهتز بإيقاع رتيب.

داخل أحد المقاهي، طلب (رولاند) قدحي قهوة، وأرجيلة. كان صامتاً حانقاً، وأسنانه تضغط على المبسم الكهرماني. بدأ (سام دوث) يشعر بالخوف. وقال له:

ـ لنذهب إلى الفندق.

أطاعه (جون) دون تعليق.

في المساء، جلس في بار الفندق، يرتدي سترة تناسب العشاء، ويشرب كأس هينيسي، ويدردش مع من يجلس إلى جواره، رجل أعمال فرنسي، ويعرفه أنه أمريكي، ولا يتحدث إلا الإنجليزية، وأنه هنا في أجازة.

ـ تبدو لي هذه البلاد غريبة. وأهلها كأنهم لا يعرفون شيئاً اسمه الاستحمام.

ـ معك حق. إنهم قذرون للغاية.

ـ هل يتحدثون الفرنسية، أم أن لهم لغتهم؟

ـ بل لهم لغتهم طبعاً، ولكنها بربرية لدرجة يستحيل معها تعلمها.

شعر الفرنسي أن من واجبه تنوير هذا الأجنبي الجاهل بأي شيء عن المكان وأهله. وأردف مبتسماً:

أتدري أنهم وقبل أن نصل نحن إلى هنا كانوا همجاً تماماً.

ولكن منذ مائتي عام فحسب كانت هنا دولة ولها خليفة اسمه مولاي إسماعيل. تخيل أنه قد ترك ألفاً ومائتي ابن وثمانمائة ابنة! قبيلة بحالها!

ضحك الفرنسي بصوتٍ عالٍ، ومعه ضحك (رولاند).

- لابد أنه كان من المستحيل عليه ألا يخلط بين كل هؤلاء الأولاد. أيام مولدهم وحدها كا. . .

- ولكن هؤلاء الناس لا يحتفلون بأعياد الميلاد. همج. لقد أمر ذلك الخليفة بربط أكبر أبنائه وأجملهم إلى لوحين من الخشب وأن يتم نشر جسده ببطء إلى نصفين على أيدي زنجيين من تيمبكتو.

- فظيع! مثل ساندويتش. من حسن الحظ أنه لم يعد هناك أي خلفاء في هذا الزمان.

- بقي قليل منهم. ولكنهم بلا أي أهمية الآن. مجرد منظر وحسب. بالمناسبة. . . غداً هو يوم الجمعة. وهنا يقيم الهمج عرضاً أشبه بالمهرجان. احضر إلى ساحة القصر. ولسوف تنبهر.

- سوف أحضر.

رمق (سام دوث)، الذي كان يأكل اللوز، وعلى محياه ترقب وحذر.

* * *

في العاشرة والنصف حضر (رولاند) إلى الساحة الكبيرة للقصر الأبيض. يمشي (سام) وراءه حاملاً الكاميرا، في قلق.

من الأفضل لجون ألا يزور أي قصور أو خلفاء. ولكن (جون) عنيد ومصر على أن يفتح جراحاً شفيت منذ زمن.

يقف حول الساحة المشمسة حشد من النبلاء. وفي منتصفها مجموعة من الحرس يمتطون الجياد. هناك زنوج ذوي أجساد ضخمة، وجوههم مشرقة، وشفاههم زرقاء، يرتدون سراويل حمراء، وعمائم في بياض الثلج، فوق جياد عربية أصيلة، ثابتين، وكأنهم جلاميد من الصخر.

همس (جون):

ـ زنوج تيمبكتو.

تذكر ذلك الأمير الذي شطره أسلاف هؤلاء إلى شطرين. صاح بوق قوي في المكان. فالتمعت السيوف في أيدي الحراس الزنوج. وانخفضت الرايات والسيوف. وانفتح باب القصر في بطء. وجثا النبلاء على ركبهم. لامست الطرابيش الحمراء عشب الساحة. ظهر ضابطان من حرس الشرف من عند القصر. ومن خلفهما زنجيان، يشدان لجام فرساً أبيض، يمشي في تؤدة ونبل، وعلى ظهره سرج ذهبي. يقترب الحصان في خطوات بطيئة منتشية. ومن خلف الحصان يظهر الوزراء ـ محنيي الأكتاف، طويلي اللحى، في عباءات بيضاء. ثم ظهرت عربة كبيرة، فخيمة، ذات نوافذ كريستالية مغلقة. ومن خلفها تظهر عيون سوداء ضيقة، ويدان رقيقتان، تداعب مسبحة لؤلؤية ـ إنه مولانا الخليفة.

انطلقت صيحة عالية من الضباط السود. وانتبهت صفوف الفرسان.

ترتفع راية الإسلام الخضراء فوق المسجد في بطء.

وفجأة، خرج أحد المتفرجين عن الحشد، وركض مسرعاً عبر الساحة الخضراء، وجسده يتحرك بحركات غريبة. ومن خلفه يركض رجل يحمل كاميرا. وقف الرجل المحموم عند بوابة الخروج. يصرخ بعبارات أجنبية، وقد ظهر بياض عينيه المتسعتين.

صاح البدين:

- سموك... سموك... اهدأ، سموك!

ولكن جذبتاه يدان طويلتان قويتان من ياقة ردائه، وهي تهزه في عنف، وظهر الزبد من فمه. اقتربت العينان الرماديتان المحمومتان من وجه البدين، وصرخت فيه بصوت غريب:

- ابعد! ابعد! فورا! لم يعد هناك خلفاء! ولا حماقات! ولا مساجد! ولا جمال! ولا سجائر! ابعد... بسرعة!

دلف سريعاً إلى سيارة أجرة، وتبعه صديقه. سأله البدين بصوت كسير:

- إلى أين؟

- إلى المطار.

وفي أقل من ثوان، تحول المجنون المحموم إلى طفل لا حيلة له. أسند رأسه إلى كتف صديقه، وجسده كله يرتجف، بينما ينتحب.

- لم يعد لكل هذا وجود.

كان يبكي الامبراطورية التي اندثرت، وخلفاء البسفور، وكل الأمراء الذين عاشوا من قبله، والأمراء الذين نظموا الشعر، وعاشوا في القصور المنيعة، وتركوه في هذا العالم الغريب البارد وليس معه إلا ذكريات السلاملك عند البسفور، وقد تذكر كل هذا وهو يرى الحرس الزنجي الفخيم، وخطوات الوزراء الهادئة، وعربة الخليفة الذهبية.

ـ سوف نسافر إلى باريس. هناك لن نجد أي مساجد أو خلفاء.

ـ هل لي أن أعرفك وبكل تواضع ـ ولأجل صحتك ـ أن هناك مسجد رخامي كبير في باريس. وبخلاف ذلك، فإن الشاهنشاه يعيش هناك، وإمبراطور إيران الذي عزلوه عن العرش. كما أن هناك مجموعة من أقارب الأمير عبد الكريم . . . الذي لم يعد أحد يعرف مكانه.

شدد كثيراً على العبارة الأخيرة.

ـ إذن لا نذهب.

عدّل (جون رولاند) من ربطة عنقه، وكأنه بذلك ينفي أي تشابه بينه وبين كونه الأمير المنفي:

ـ لنذهب إلى مكان آخر. دولة طبيعية عادية ليس فيها أشباح ولا زنوج. أريد أن أمضي وقتاً طيباً في أوروبا ـ تفهمني؟ وقتاً طيباً.

ـ ما رأيك في برلين؟

أومأ (جون) موافقاً، في تعب ولا مبالاة.

ـ فليكن. . . إلى برلين.

وتوقف التاكسي بهم عند المطار.

الفصل السادس عشر

في المساء، تريض (جون رولاند) في شارع كرفرشتندام، يتأمل أضواء برلين الخلابة، ثم طلب مشروباً بارداً في مطعم كمبينسكي. قال لسام دوث:

ـ سأبدأ حياة جديدة... حياة صحية محترمة.

أومأ (سام) برأسه دون أن يعلق، فهو قد سمع منه هذه الجملة من قبل أكثر من مرة.

هكذا، بدءا حياة جديدة. ففي الواحدة من بعد منتصف الليل غادرا كباريه باربيرينا. يتحدث (جون رولاند) متلعثماً، وهو يحاول إقناع سائق تاكسي بأن الزهد في كل شيء هو أفضل حياة. كان سائق التاكسي يستمع إليه في وجوم، وهو يلقي نظرات على وجه (سام دوث) الداكن وهيئة (رولاند) ذات الملامح الشرقية، وأقلهم إلى مطعم الشرق في كايزرال. دلفا إلى المطعم عبر الستائر الحمراء التي تغطي مدخله.

الساعة الآن الواحدة والنصف. جدران القاعة وأرضيتها مغطاة بالسجاد، وكانت مزدحمة. يجلس شاب إلى بيانو ليعزف العديد من المقطوعات الراقصة، ما بين التانجو والفالس.

تتحرك الرؤوس، التي بدت أشبه برؤوس الفجل الأحمر في ذلك الضوء الأحمر الخافت، على إيقاع الموسيقى؛ بينما يشق السقاة طريقهم في خفة مثل عرائس في مسرح الظل التركي. القاعة بأكملها مثل فك أحمر قاتم تملأه أسنان ذهبية صناعية. وسرعان ما ظهرت الفواتير، ووزعت فوق الموائد على أطباق، وكأنها طلبات استرحام من صاحب المكان لضيوفه، وبعدها صارت القاعة خاوية شيئا فشيئا. ولم يبق سوى حفنة من السكارى، يجلسون في صمت، وقد شحبت وجوههم، مثل شخوص في متحف الشمع. استمر عازف البيانو، رغم أن أحداً لم يعد يسمعه. ولم يلحظ أحد أن الإيقاع الصاخب قد أضحى أهدأ كثيراً، ليتحول في النهاية إلى نغم أجنبي غريب مثير. بدا مثل ترنيمة في هذه القاعة المعبقة بالدخان، وبدت تلك الترنيمة لجون رولاند تليق بمشية راقصة معبد فارسي.

شعر بالعطش، فطلب كوكتيل، ورمق (سام دوث)، قائلاً وهو يغمز له:

- إيقاع هندي صيني.

نادى (سام دوث) على الساقي، وما هي إلا خمس دقائق حتى كان العازف جالساً إلى طاولتهم. صب (جون رولاند) النبيذ في أحد الكؤوس، وحدثه بالإنجليزية بنبرة محترمة جداً:

- موسيقاك تتنوع في إيقاعاتها. وتلك النغمات غريبة. وكأنها وضعت لتعزف على الفلوت.

قال له الموسيقي، وقد تجاهل كأس النبيذ:

- أجل، إنها توليفة موسيقية مختلفة تماماً. النغمات قائمة

على مجموعة ثلاثية. نغمية، ودون سائدة، وسائدة. والتناغم بأكمله ظاهر من خلال الاستخدام المفرط لها.

ظهر الوجوم على محيا (جون رولاند) لما سمع منه هذا الكلام. قال لنفسه: «ها أنا ذا؛ سكران حقير. في كاباريهات أوروبا بدلاً من أن أعمل على الارتقاء بعقلي وحضور محافل الثقافة».

دندن الموسيقي الغريب بلحن أغنية، وأصابعه تضرب إيقاعها على سطح الطاولة. أنصت إليه (جون رولاند)، منتبهاً تماماً:

- في كل تكرار يرتفع إيقاع الأغنية. فالأوتار الإيقاعية هي التي تحدد النقلة الطبيعية.

غنى، وسمعه الموسيقي في إعجاب.

دفع (رولاند) بالكأس تجاهه:

- اشرب

- أشكرك. ولكني مسلم. شركسي من اسطنبول. كنت في السابق ضمن الحرس الامبراطوري.

سمعه (سام دوث)، فبادر بدفع الفاتورة، وانصرف الاثنان في سرعة.

أقلهما التاكسي إلى فندق إيدن، وعند مدخل غرفته كان (رولاند) يقسم من جديد أنه سيبدأ حياة جديدة من الغد. تأمل (سام دوث) أرضية المكان وهو يومئ برأسه مصدقاً على كلامه.

استيقظ (جون رولاند) عند الظهر. وهو يشعر بثقل رأسه، تراوده ذكرى غائمة لموسيقى جميلة. قال لنفسه: «هذه أوروبا. وبرلين مدينة عمل وثقافة. ولا بد أن أثبت لنفسي أني أهل لزيارتها».

ارتدى ملابسه، وخاطب (سام) بنبرة غير مبالية:

ـ أنت يا هيبتومانيديس، أنا ذاهب إلى متحف. أنت ابق هنا. فالمتاحف لا تروق لك. أما أنا ففي حاجة إلى إلهام وتفاعل ثقافي.

وقف في الشارع محتاراً، فهو لا يعرف مكان أي متحف، كما أنه يخشى تلك العتمة الباردة في القاعات الكبيرة.

انعطف يساراً، فوجد أمامه كنيسة كبيرة، فقصدها، وهو يشعر أن في ذلك نوع من التفاعل الثقافي. تأمل الأعمدة الرومانية، وهو راض جداً عن نفسه. سأل خادم الكنيسة:

ـ القرن الرابع عشر، أليس كذلك؟

ـ كلا، هذه من زمن القيصر فيلهيلم جيداختنس كيرش. في بداية القرن العشرين.

غادر (جون رولاند) الكنيسة بخطى مسرعة. ومشى عبر الشارع العريض، والذي لاحظ أنهم سموه على اسم الفيلسوف العظيم كانط. شعر برقي روحي وأنه يدخل عبر بوابات حضارة أرقى.

«بلدة جميلة»، فكر وهو يقف أمام واجهة متجر. هناك العديد من أنواع السجاد زاهي الألوان ذي النقوش والأشكال

السلسة. ومن بينها ما عليه نقوش فارسية متقادمة ورسوم مصغرة عتيقة: أمراء لهم عيون لوزية، يشربون من كؤوس ذهبية، بينما هناك في خلفية المشهد غزال خائف، يرفع ساقاً في رشاقة.

تأمل (رولاند) المشهد باهتمام. «جميل». كان يعرف أنه يألف هذا العالم من المخطوطات والرسوم المصغرة. وفكر في ذاك الهمجي الجالس هناك داخل المتجر، والذي ربما كانت معرفته بالمخطوطات الفارسية مثل معرفته هو بالطرز المعمارية الرومانية. اعتمل في نفسه شعور ملتبس يدفعه إلى الانتقام، وقرر أن يحرج الهمجي الذي يبيع هذه البضاعة، تماماً كما أحرجه خادم الكنيسة.

نهض له رجل عجوز حزين العينين لما دلف إلى داخل المتجر. فقال له بالإنجليزية:

ـ أريد أن أرى بعض الرسوم الفارسية المصغرة.

أومأ العجوز برأسه، وانهمك يعرض على عيني (جون) العديد من الأبسطة التي تحمل صور لوحات لمناظر طبيعية ومشاهد من الصيد والولائم. قال له وهو يشير إلى صورة مجموعة من الملائكة في سماء بها بعض السحب:

ـ هذه نسخة من لوحة للبخاري الكبير، من مدرسة أحمد فابريزي الفنية.

ـ لا تناسبني. أنا أميل أكثر إلى المناظر الطبيعية التي تعكس التأثير الفني الصيني مع الجو الفارسي. مثل تلك التي أبدعها الدجاني للشيخ إبراهيم الجلشاني.

تأمله العجوز، قبل أن يجيبه بإنجليزية متداعية:

ـ أنا آسف، ليست لدينا. ليس لدينا الكثير من أعمال القرن الخامس عشر. ولكن لدينا ما يعود لعصر عباس الكبير. انظر... أشجار الخريف الصفراء في وقت الغروب. ربما صنعها ماني، بتلك الألوان الرقيقة.

تأمل (جون) الصفحة، وهو يداعب بأصابعه صورة النبي يونس وهو يرتدي عباءة أمير فارسي.

ـ سوف أشتري هذه. ولكن هذا فن متدهور، تلك المدرسة الهندية. أريد عملاً أكثر إيجابية وتفاؤلاً، مثل أعمال شدشاه دوليه. تعرف قصدي؟

ـ اعرفه تماماً، يا صاحب العزة الامبراطورية. أعرف تماماً مبتغاك، ولكنه ليس عندي.

رفع (جون رولاند) رأسه في ذهول، فقد كان العجوز يخاطبه بالتركية. كان العجوز واقفاً أمامه وقد انحنى تماماً أمامه، قبل أن يغلق باب المتجر. تحرك (جون رولاند) سريعاً، وكأنه يحاول الهرب. نظر حوله: سجاد وأبسطة، وتماثيل ولوحات صغيرة، ورائحة مميزة للمتجر ـ تمزج الواقع بالخيال، والحاضر بالماضي، في رؤية مباغتة طافت أمام عينيه.

ـ سموك. إنه خطأي. عاقبني. كان لا بد لي أن أعرف... أنك ستأتيني ذات يوم وتسألني عما فرطت فيه بكل حماقة. ليس لدى النساء عقل أو صبر. ولكني رجل عجوز، وكان علي أن أعرف. لم يكن لي أن أتركها تذهب.

أشكال وألوان عابرة أمام عيني (جون رولاند). ما هذا الذي يتحدث عنه هذا العجوز؟ ما الذي يريده؟ لماذا ترتجف يداه، ولماذا انكسرت عيناه؟

ـ خطأي يا سمو الأمير. لقد تزوجت (زاد)، وأنا وافقت. لك أن تقتلني!

اكتسى صوت (رولاند) بنبرة ملكية. ونسي جواز السفر القابع في جيبه، بل ونسي ذاك الاسم... (رولاند). شعر وكأن تلك الغشاوة قد راحت عنه:

ـ من أنت؟

سأله بالتركية الراقية... تركية أصحاب القصور.

ـ أحمد باشا الأنباري. و(زاد) هي ابنتي.

ـ أوه.

عندئذ، تذكر تلك الرسالة الغامضة التي أرسلتها إلى ذلك الأمير المنفي الذي لا يعرف أحد مكاناً له.

ـ ما الذي جرى للمرأة التي اختارها الامبراطور لي؟

بقي (أحمد باشا) راكعاً. كله تواضع وابتهاج، لكونه يخاطب أحد أمراء البيت العثماني. حكى له عن (زاد)، وذلك الأجنبي، في جمل طويلة مستفيضة. عبر الأمير عن سخطه، ولمح سجاداً على الجدار يصور قصراً على البسفور.

ـ يا للعار!

صاح وهو يشعر أن هناك من سلبه حقه.

كان يضرب بيده على سجادة:

ـ أنت يا من تجلس في الرواق العالي على سجاد من فضلنا، نحن الذين ربيناك ورفعنا من شأنك بتعطف منا! قررنا نفيك ومن معك إلى الصحراء!

ولكنه تذكر فجأة أن اسمه (جون رولاند)، وأنه كاتب سينمائي يعيش في نيويورك. وأن كل هذا الذي يعايشه الآن ليس سوى سخف وعبث.

بادر العجوز الذي كان يوشك أن ينهار مغشياً عليه:

ـ لا بأس.

مد له يده، فقبلها العجوز تقبيلاً محموماً. قال له (جون رولاند) بنبرة أربكته:

ـ هيا، لنذهب إلى حيث نأكل شيئاً. هيا.

كان (رولاند) قد سئم جو المتجر، والبقاء وسط السجاد وردي اللون والتماثيل الرقيقة.

نظر الباشا إليه في حيرة.

ـ شرف عظيم.

قالها وهو يفكر في نوع السم الذي سيضعه الأمير في طعامه، وفي ذاك الموت الذي بالتأكيد يستحقه. ولكن الأمير لم يكن يفكر في أي سم؛ وذهب به إلى كمبينسكي، حيث طلب طعاماً على الطريقة الإمبراطورية، خالياً من لحم الخنزير، وليس معه أي خمور. فقد أدرك الآن الإتيكيت الذي يليق به.

قال له الباشا وسط الطعام:

ـ إنها مهنة الملوك. فالعديد من الفنانين القدامى كانوا من الأسر الحاكمة.

ـ أنا لست فناناً. وكل إنسان مقدر له أن يحمل إرثاً عن أبيه. والهدف من الفن هو التعبير عن ذلك الإرث الخفي عبر وسيط ظاهر ملموس. وإن لم يسع الإنسان تحقيق أكثر من هذا الفهم وهذا العرض ـ وهذا هو الشيء الوحيد الذي يسعني القيام به ـ فإن فنه يبقى سطحياً بلا معنى. وإذا سعى، عبر الأفكار المجردة وحدها، إلى أن يعرض إرث الآباء فإنه بالتالي لا يبدع فناً بل ما يسمونه الميتافيزيقا. والسحر كله في إظهار الخلود الكامن فينا. لا بد للكلمة من امتلاك معرفة بالمادة، تماماً كما عرف آدم حواء. ولكن ليس لكلماتي تلك القوة.

أجابه الباشا، الذي تغضن حاجباه في أسى:

ـ ذلك لأنها كلمة أجنبية، بلغة أجنبية. إعتقادي أن اللغات الأوروبية تفقد بالتدريج تلك القوة الكامنة في الكلمة. تصير إلى شيء تقني، وكأنها تعبير بسيط عن مكنون العقل، ووسيط معلوماتي فحسب. أما نحن في الشرق ففينا تلك النزعة الحيوانية، ولا زلنا نشعر بقوة الكلمة، وهذا هو الفرق بين الشرق والغرب.

ـ كلا.

لم يكن (رولاند) يوافقه الرأي. وتحدث بتؤدة ونبرة أعجبت العجوز، .وهو يشعر فجأة وكأنه في قاعة أحد قصور الشرق، جالساً وسط جمع من الحكماء.

ـ في مفهوم الوعي الغربي، صار للفرد الأهمية القصوى. أما نحن فنعتقد أن كلنا متحدين مع الكون في كيان لا يتبدد. الغرب معزول عن الكون، وقد تمزق الرابط فيما بينهما. يحاول الغرب أن ينعزل بذاته عما حوله، ويتعمد عدم الخروج من تلك العزلة. أما الشرق فيعيش في اتحاد مع الكون. لذلك تجد في فنون الشرق دوماً عنصرا عدم الاكتمال واللا حدود، بينما للفن الغربي حدود دقيقة، لها سمات شخصية. ولو كنت من درجة أدنى وأتيح لي أن أبدع، فسيكون على روحي أن تنبثق أولاً من محيط كوني ينبع من داخلي. على العكس من الفنان الغربي. ولكن هذا الجانب غير جوهري بالأساس، فما نحن إلا أقنعة شفافة للواحد غير المرئي.

أجابه الباشا بجدية:

ـ سموك لا يمكن أن تكون أدنى درجة. إنك سموك لا تمتلك ثقة في الأب. وعليك يا سموك أن تضع في اعتبارك أن فكرة الأب هي السائدة في الشرق، أما في الغرب فهو الابن. ويسعى كل فنان جهده حتى يجد الأب في كل محفل.

ـ لا يمكنني هذا، فأنا جبان. أخشى عالم المرئيات. ولو كان لي أن أصنع فناً بحتاً، فسوف تتحول الشهوة إلى صورة جمالية. غير أن الفن الحقيقي سام. إنه السحر الحق، حيث تجتذب الكلمة النسمة الخفية وتحفظها، وتطوعها لتكون جسداً متجسداً يعرض ذاته علينا نحن البشر. لهذا يكون بوسع الفنان الحقيقي أن يبدع، تماماً مثل الإله. ففي البدء كانت الكلمة.

سكت (رولاند)، وتطلع حوله وكأنه في حلم. تأمل

الأسنان المنهمكة في المضغ، والوجوه المنكبة على أطباقها، في قاعة مطعم كمبينسكي الكبيرة. وفكر أن تلك الأمنية تناقض ما قاله للتو، وشعر بعطش شديد. رغب في الشراب حتى تنمحي الأشكال الداخلية للعالم المرئي فيختلي بنفسه من جديد، من دون رغبة في تلك الصحراء الموحشة الكبرى. كبح تلك الرغبة الجامحة، فهو أمير من البيت المقدس، ويجلس أمامه باشا عجوز منهك، تستجديه عيناه.

هكذا استمر في الكلام، بنبرة رتيبة، والباشا ينصت إليه وهو يفكر في تلك الطامة التي حلت بالبيت العثماني، والمصيبة التي أحاقت بابنته، التي كان بوسعها أن تساعد الأمير، ولكنها الآن بعيدة، فاعتراه شعور طاغٍ بالعار والأسى.

كان وجه الأمير بمثابة قناع شفاف لامرئي، ورأى الباشا في القناع أشياء أكثر مما كان الأمير يعرفه أو يشك فيه.

قال الباشا لنفسه أن على الأمير أن يتزوج بزوجة صالحة، ولكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك، وهذا لأن وجه (رولاند) عاد إلى تلك الملامح الباردة الأنفة. كان يربت بأصابعه على سطح الطاولة، ويقول:

- جميعكم تخليتم عني. البيت، الامبراطورية، والحكم. ومنح خدم العرش العجائز إلى رجال آخرين نساءً هم ملك لي.

صمت الباشا، وهو يفكر في (زاد) الشقراء، وفكر أنه لو كان أميراً، لاسترد المرأة التي يمتلكها بالسيف. ولكنه ليس بأمير، بل مجرد عجوز جالس في متجر بشارع كانط، وليس له أي نساء.

ـ هيا بنا.

قالها (رولاند) وخرج إلى الشارع، يتبعه العجوز بخطى متعثرة، ليمشي إلى جواره، وكأنه شبح حزين. حدثه مجدداً عن (زاد)، وعن زوجها، وعن فيينا، ذات المياه العذبة الرائعة، بينما كان (رولاند) يستمع إليه في غير اهتمام، فهو لا يرى المرأة إلا دمية مزعجة صاخبة، ولا تتجاوز قيمتها قيمة زجاجة من الويسكي الفاخر. وعند ناصية كرفرشتندام، ودع الباشا وعاد أدراجه إلى الفندق في هدوء.

الشارع عريض ونظيف. وتأمل (رولاند) في طريق عودته وجوه المارة، والتي بدت له راضية لا تنقصها الصحة. شعر بخواء يتصاعد في داخله ـ ورغبة في الاعتداء على كل هؤلاء الناس، الذين واتتهم الجرأة كي يعيشوا بكل هذا الرضا، بينما هناك امبراطورية قديمة تندثر، وتتلاشى. فكر في الباشا، وعينيه الكسيرتين، وظهره المحني، وغمره شعور بالوحدة. أراد العودة إليه، ليحدثه عن التماثيل الفارسية الصغيرة، وعن اللا مرئي، الذي يتجلى من خلال أقنعة شفافة لكيانات دنيوية.

ولكنه لم يعد، ولماذا يعود، وقد أضحت الإمبراطورية القديمة خراب، فليترك الميت ينعم بسكينة الموت في صمت. قصد الفندق، ولمح (سام دوث) يطالع الصحيفة، فلامس كتفه، وهو يميل عليه، ويقول له جملة فاجأته هو نفسه:

ـ انهض، (بيريكليس)، سوف نذهب إلى فيينا.

الفصل السابع عشر

تنطلق السيارة في الطريق الرئيسية المتعرجة. وعلى اليسار، في الوادي، ترتفع أبراج الكنائس البيضاء في القرى. المروج الخضراء تتألق تحت أشعة شمس الصيف. وتقف الأبقار المفعمة بالصحة وسط الحقول على جانبي الطريق، تتأمل السيارة بعيونها الواسعة. بينما يجلس الأطفال متسخو الأقدام أسفل الشجر، يلهون بالأغصان الجافة. أما على اليمين، فتمتد التلال سهلةً رحبة. غطت الألوان الزاهية للصيف الهندي الأرض، وبدت الشمس قريبة، حانية، مثل صديقة حميمة. كانت (زاد) تقود ببطء، وقدمها تضغط على دواسة البنزين وكأنه دمية هشة. ضغطة واحدة، وكانت السيارة تندفع إلى الأمام مثل حصان هائج انفك قيده. وبحركة خفيفة أخرى من قدمها عادت بالسيارة إلى تباطئها، وكأنها استحالت حيواناً أليفاً مطيعاً. تأملت (زاد) المنظر من حولها، والمروج الخضراء، وأبراج الكنائس في الوادي، ومنحنيات الطريق. يراودها إحساس غريب: أن تتمكن من التحكم في هذه الكتلة التي تتكون من هيكل حديدي، وإطارات، ومصابيح، وأنابيب، بمجرد ضغطة من قدمها. قادت السيارة وهي تسند ظهرها إلى ذلك الجلد الناعم، وقد توحدت

عيناها ويداها وقدماها مع المحرك. أحياناً تبتسم (زاد)، فترتاح تقاسيم وجهها. تعبر المنعطفات في حذر، وقدمها على الدواسة. ولكن أفكارها كانت أسرع من أي سيارة، وتأخذها بعيداً، إلى حيث فيينا، وإلى تلك الشقة، و(هسه) جالساً فيها، يتصبب عرقاً، وقد أرهقه قيظ الصيف.

وهذا ما كان الحال عليه:

في تلك الأيام كانت ستائر المنزل في الاسحة مسدلة دوماً. تقصد (زاد) الشواطئ والمقاهي، وتعود للمنزل، وتلتقي أغراباً ينتظرونها في الصالون، وتتصفح الجرائد. وفي غرفة المكتب الصغيرة ذات النوافذ المقوسة يفوح عبق الأدوية الخفيف، وفي الغرفة المجاورة لها يكون (هسه) منشغلاً بأدواته.

أحياناً نسمع صوته العالي:

ـ إثنان وعشرون... أتسمعني؟ إثنان وعشرون!

فيجيبه مريض:

ـ أربعة عشرة.

ومن ثم نسمع صوت الأدوات من جديد. وبعدها يخرج (هسه) متعرقاً في البالطو البيض ليطبع قبلة سريعة على وجنة (زاد). ولكن عينيه شاردتين لدرجة أنها تخشى أن يخاطبها بعبارة «إثنين وعشرين» وهو يقوم بالتشخيص. ولكنه لا يفعل. بل يجلس لدقيقة، ويد (زاد) بين يديه، قبل أن يغيب ثانيةً داخل غرفة الفحص.

ـ قل آه

ـ آآآه

تروح (زاد) إلى غرفة المعيشة الكبيرة. هناك تكومت الكتب والدوريات فوق المكتب، تلك الدوريات اللغوية ذات الأغلفة الخالية من الرسومات، وكأنها عانسات غاضبات.

تشعر بذنب كبير، فتفتح إحداها وتعرف منها أن التوافق النغمي في اللغة الجورجية يمتد من المرحلة الصامتة إلى المرحلة الهائجة. قد لا يفهم غير اللغويين هذه العبارة، ولكن (زاد) فهمتها واندهشت من أن هذه المعلومة لم تؤثر فيها. تشعر بالملل، فترمق بضع صفحات أخرى من دون اهتمام. ولكنها تجد في آخر صفحة إعلاناً يقول أن البروفيسور شانيدس اكتشف لوح كتابة أثري عليه نصوص حاميّة عند ساحل بحيرة وان. تغلق الدورية في سخط. فهي بعد أن تزوجت فقدت أي اهتمام بتلك القوالب الملغزة للكلمات الغريبة. تبدو لها الآن قديمة عتيقة عندما تسمعها، ولا تجعلها تستحضر أي من صور أولئك البدو مسحوبي العينين، كما كانت تفعل من قبل.

يرن جرس الهاتف.

ـ أجل. يمكنك الحضور اليوم. في السادسة والنصف.

لن تغلق العيادة قبل الثامنة. وهكذا قصدت المقهى لتقرأ الصحف، وتنتظر الدكتور ساكس أو الدكتور كيرتس. وفي الثامنة والنصف ظهر (هسه)، وقررا قيادة السيارة إلى بارتر أو كوبنتسل. الأشجار تتمايل في كوبنتسل، ولا تزال مجموعة العربة النجمية ظاهرة وسط الغسق، بينما تشرب (زاد) لبناً رائباً، وتسمع (هسه) وهو يتحدث عن مرضاه، أو عن المسرح، أو في

السياسة. بقيا هناك حتى حلول الليل. تأملت (زاد) أضواء المدينة الممتدة أسفلها، وقالت لنفسها أن الحياة الحقة ممتعة ولكنها جادة جداً أيضاً، ومختلفة تماماً عما تخيلتها.

ـ عندما يكون لدينا أولاد، فلسوف نحضرهم معنا إلى كوبنتسل. ويجلسون بيننا ليأكلوا الكيك. أرغب في خمسة أولاد.

أجابها (هسه) وذهنه مشغول:

ـ أجل. أكيد سيكون لدينا أولاد ـ يوماً ما.

سكت بعدها. والحقيقة أنه يخشى من وجود هؤلاء الأولاد الذين سيجلسون بينه وبين (زاد). أخذ يدها في يديه. إنه يعشقها...

عادا بالسيارة عبر ضواحي المدينة. سألها (هسه):

ـ ما رأيك في أن نذهب إلى زيمرنج في نهاية الأسبوع؟

وافقته (زاد) الرأي. لم يسبق لها الذهاب إلى هناك.

أتى يوم السبت، وفي السادسة اتصل مغني الأوبرا مؤكداً أنه يعاني من التهاب اللثة. حضر مسرعاً، وتبين أنه لا يعاني من أي التهاب، ولكن المغني تشبث بأكمام (هسه) في ألم، وجحظت عيناه، واختلجت معدته، واضطر (هسه) إلى أن يذهب للمسرح ليسكب الكوكايين على أحبال المغني الصوتية خلال الاستراحة. طمأن (زاد):

ـ سوف نذهب في الصباح الباكر، وسنبقى هناك حتى مساء الإثنين.

كان محرجاً منها، مثل طفل أخطأ. ثم حل الليل، واضطر (هسه) إلى مفارقة الفراش، لأن هناك طفل يعاني من الدفتريا.

- برونكوتومي.

ولم تتفاجأ (زاد) حينما اتصل بها في السابعة:

- اذهبي وحدك. وسوف ألحق بك بالقطار. اتصلي بكيرتس، واطلبي منه أن يأتي ليرافقك.

واتصلت (زاد) بكيرتس، الذي أخبرها أنه سيأتي. يمكن لمرضى الهيستيريا والاكتئاب الانتظار.

وهذا ما جرى.

نظرت (زاد) إلى صورة العذراء مريم على جانب الطريق فراح عقلها إلى (هسه)، وإلى ذلك الطفل المريض الذي لا تعرفه، وإلى الحياة، والتي هي رائعة ولكنها جادة جداً. خلفها يجلس الدكتور كيرتس. هو بدوره مشغول البال، فهو الرجل المثقف ذو العقل المنظم الذي خلق ليفكر. كان يفكر في الأبقار، الواقفة على جانبي الطريق وفكر في الكنائس، القريبة، وفكر في المرضى النفسانيين؛ لقمة عيشه. ورمق عنق (زاد)، وفكر فيه. وقال لنفسه: «عنق جميل، وياله من شعر أشقر! (هسه) محظوظ مع النساء. ولكن هذا في البداية فقط، فهو لا يحتفظ بحظه الحسن. غريب أنها تنادي زوجها (هسه) من دون ألقاب. لا بد أنها تشعر في أعماقها أنه غريب عنها. جسدها جميل. ربما لن يحضر (هسه). شيء رائع أن يكون للمرء مهنة تشغله. وهو لا يمتلك سوى تلك المهارة التقنية. لسوف أطلب شامبانيا في المساء وأتحدث كثيراً عن (هسه). وأثني عليه

بالطبع. هذا أسلوب ناجع دوماً. لأنها عندئذ ستثق بي. وهذا أهم شيء. كما أنها تحن إلى وطنها. وربما تعاني أيضاً في اللا وعي من عقدة الأب. سوف أعرف هذا أيضاً. أوه... ذلك العنق! أنا متأكد من أن (هسه) أقل من أن يناسبها. أما إذا كان مزاجها غير معتدل، فلربما أمكنني الليلة أن...».

هكذا تلاعب الفكر بالدكتور كيرتس، فهو الرجل المثقف ذو العقل المنظم الذي خلق ليفكر. توقفت السيارة أمام فندق سودبان. يمكن للمرء من نوافذ ردهته الكبيرة أن يرى تخوم الجبال والوادي العميق الواسع.

- منظر جميل.

علقت (زاد). راحت إلى الشرفة، واعتمرها حب شديد للحياة. الهواء بارد وجاف، والجبال الزرقاء تغلف الأفق. والوادي يحتضن السرمدية. لا بد أن الإقامة هنا رائعة، بعيداً عن هموم الحياة، وقريباً من تلك الحصون الجبلية الوعرة.

* * *

أما في المدينة، فكان (هسه) جالساً قرب فراش الطفل المريض، ينصت إلى تردد أنفاسه اللاهثة؛ في نفس اللحظة التي كان فيها مغني الأوبرا يجوب أرجاء غرفة الانتظار، بعد أن تولدت لديه قناعة راسخة أنه يعاني من سرطان الحنجرة؛ وفي بقعة أخرى من المدينة يدق جرس الهاتف، فترفع مديرة المنزل السماعة لترد على متصل بأن السيدة قد سافرت إلى زيمرنج. وفي بقعة أخرى في نفس المدينة يتساءل أجنبي عن مكان زيمرنج. ولكن (زاد) لا تدري أن كل هذا يحدث، وحتى لو عرفت، ما كانت لتهتم.

ـ لنخرج نتمشى.

قالت لكيرتس، فتبعها. تمشيا عبر شارع صغير حتى وصلا إلى فندق بانهانز. الغابة على يمينهما حاضرة وغامضة، تغلفها تلك الظلمة العتيقة.

ـ أتعرف، إنني دوماً أتخيل تلك الجبال جدراناً عالية أو بقايا حصن قديم.

نظر إليها كيرتس في ترقب. قبل أن يتحدث إليها بصوت ناعم مخلص. لم يتوقف عن الكلام، وقد أعجبه عمق تفكيره، وهو يقول لنفسه: «تلهمني هذه المرأة». لكنه لم يدرك أن (زاد) لم تكن تنصت إليه.

هبطا في الوادي. هناك كنيسة قديمة على تلة صغيرة.

اقتربا منها، وقرأت (زاد) تلك الأحرف المتداعية على مدخلها: Maria Schutz steht allen Feinden zum rutz. «بيت مريم العذراء هنا ليحمينا برغم كل الأعادي». تأملتها لفترة طويلة، فشعرت بروح التسامح. عالم بأكمله يتبدى من وراء الكنيسة الصغيرة ذات النقش القديم. ربما كانت هذه الكنيسة شاهدة على مرور الجيش التركي المظفر. ربما اخترق الفرسان الترك تلك الجبال فوق جيادهم الأصيلة، ليشعلوا النار في القرى. ربما أوقدوا ناراً أمام الساحة الصغيرة لمدخل هذه الكنيسة، ليدفئ الجنود أنفسهم خلال ساعات الليل، وهم يفكرون في معركة الحسم التي تنتظرهم خلف أسوار فيينا. كان باب الكنيسة مغلق، ولكن العبارة المنقوشة تطل عليهم في هدوء وسكينة، فهي التي انتصرت على الجيش الأجنبي، وعلى العثمانيين.

تطلعت (زاد) حولها. سلام عميق يؤطر كل هذا المشهد. تنهدت وقالت:

ـ أنتم أناس سعداء، ولديكم بلداً رائع.

غلف الأسى وبعض الغيرة صوتها. ولكن كيرتس لم يلحظ ذلك. لم يلحظ إلا شفتها المميزة وعينيها النادرتين. استمر في الكلام، بينما استغرقت (زاد) أكثر وأكثر في أفكارها، فهي لم تدرك إلا في تلك اللحظة أنها قد أضحت جزءاً من هذا البلد الأخضر الجميل، وأن عليها أن تسعد لحقيقة أن قوة العثمانيين قد تبخرت أمام هذه الكنيسة الصغيرة. ولأول مرة، تشعر أنها لم تعد تلك الفتاة التركية، وتعرف أن أولادها وأحفادها لن يكونوا أتراكًا. عادت إلى الفندق برفقة كيرتس، وهي شاردة في أفكارها. قال لها:

ـ سيكون هناك حفل شاي في تمام الخامسة مساء. إنه حفل راقص. وهناك أجانب كثر. هل تسمحين لي بهذا الشرف؟

وافقته (زاد).

في الخامسة، جلست مع كيرتس في القاعة إلى واحدة من الطاولات الصغيرة. تعزف الفرقة لحناً غريباً على أذنها. الأزواج الراقصة تتحرك في رشاقة وخفة فوق الأرضية الباركيه، وأذن (زاد) تلتقط عبارات وكلمات حلوة ودودة بمختلف لغات العالم.

انحنى لها كيرتس، وهو يطلب منها أن تشاركه الرقص، وعلى الأرض يلقي إيقاع الموسيقى الغريبة بتعويذته عليها. كان من الجميل أن ترقص في القاعة المضيئة، وهي ترى الجبال الزرقاء على البعد. يمرق إلى جوارها الرجال والنساء، وكل

زوج يحتضن بعضه. كانت (زاد) ترمقهم، وهي تسمع أنفاس تلك الأفواه الغريبة عنها. بالكاد تلامس يد كيرتس خصرها. وهو ما جعلها تراه رجلاً نبيلاً يجيد التصرف مع زوجة صديقه. أجل، هي بلد جميلة، وفندق جميل، والحياة ذاتها جميلة ولكنها جادة بحق.

ـ كفاية.

قالتها فجأة، وتركت كيرتس واقفاً في مكانه مثل مانيكان في واجهة محل. عادت متهدجة الأنفاس إلى الطاولة وجلست إليها. حدق كيرتس فيها، فتشاغلت بالانتهاء من قدح القهوة. لا بد أن يأتي (هسه) الآن، فهي ترغب في أن ترقص معه عبر أرجاء هذه القاعة، لتشعر بيديه القويتين، وتتأمل عيناه المسحوبتان وهي تنظر إليها، مبتسمة وراضية...

في الطرف الآخر من القاعة، نهضت سيدة طويلة نحيفة واقتربت منهما متجنبة دائرة الرقص. لاحظت (زاد) أن شعرها الكستنائي يتألق تحت الأضواء، وقد عقصته فوق رأسها في كعكة، وكان لها وجهاً بيضاوياً مميزاً بعينين نبيلتين وأنف حاد. ولا تخلو شفتاها من نبل، يتماشى مع حاجبيها وجبهتها الناعمة العالية.

اقتربت منها الغريبة في بطء. فنظرت (زاد) نحو كيرتس، فوجدته غارقاً فجأة في حرج وسخط، وقد احمر وجهه واختلجت عيناه في اندهاش. فمه نصف مفتوح، وكأنه متردد بين أن يبتسم أو يعطس. وقفت الغريبة عند الطاولة، في فخر وجمال. وتكلمت، لتظهر أسنانها الصغيرة اللامعة:

ـ مساء الخير، دكتور كيرتس، جميل أن أراك هنا ثانيةً.

صوتها ناعم منغوم. ونهض لها كيرتس. والعرق يتبدى على جبينه. كانت السيدة لا تزال واقفة، وقد ارتسمت ابتسامة نبيلة متعالية على شفتيها.

تنحنح كيرتس:

ـ هل لي...

خرج صوته مبحوحاً.

اندهشت (زاد). بدا لها وكأنه قد سقط لتوه في ماء مثلج.

ـ هل لي أن أعرفكما ببعض... فراو ماريون هسه... فراو زاد هسه.

أغلقت عيناها للحظات. وشعرت بألم عميق في صدرها. وجفاف في فمها. وكأن هناك من يدفعها دفعاً للسقوط في هاوية سحيقة. وفي عمقها السحيق تعزف تلك الفرقة الموسيقية. تسمع أصواتاً تقرع أذنيها. وفتحت عينيها. وجدت ماريون وقد جلست وتبتسم لها في ثقة.

ـ كم أنا سعيدة. يالها من مصادفة.

الصوت لا يزال ناعماً، ولكنه لم يعد منغوماً.

ـ هل أليكس هنا أيضاً؟ أم أنه في فيينا.

ـ من، معذرة؟

ضحكت:

ـ أليكس، زوجنا.

ـ أوه، لا. (هسه) في فيينا. أنا أناديه (هسه) دوماً.

نهضت. وخرجت مسرعة من القاعة، وهي تشعر كأن مئات من الإبر تنغرس في ظهرها. هكذا الأمر إذن. «زوجنا». فراو ماريون هسه ـ فراو زاد هسه. كانت تنام في فراش غريب. وامتلكت اسما غريبا. وجلست في نفس الغرفة ذات النوافذ المقوسة التي جلست فيها ماريون من قبل، و(هسه) قبّل تلك العيون المختالة من قبل. إذن هناك بالفعل امرأة اسمها ماريون؛ امرأة حلت هي محلها. ركضت (زاد) عبر الساحة، وقد تسمرت عيناها في ما أمامها، وانعقد حاجباها.

ـ السيارة، من فضلك.

فتح لها الحارس المرآب. وأدرات هي المحرك. قبضت يداها على المقود وكأنه عنق ماريون. انطلقت بالسيارة، وهي تطلق بوقها في عصبية، ونظرت بمقت شديد إلى طفلين فزعين قفزا إلى الجانب في اللحظة المناسبة.

قالت لنفسها: «على أحدهم أن يلقي قنابل تدمر هذا الفندق»، وزادت من سرعة السيارة. السيارة تنهب الأسفلت نهباً أمام عينيها. بكت للحظات ومسحت دموعها سريعاً. الأتراك أناس ضعاف. هذه البلاد لا تستحق هذا الجمال، ولا الأبنية ولا المروج ولا الأبقار. لا بد أن تستحيل صحراء، رمادية يباب، مثل سهول تركيا. أصدرت محاور السيارة صريراً مزعجاً. لقد ضغطت (زاد) على المكابح. فتوقفت إطارات السيارة في مكانها على الطريق. عادت تعدل سرعة السيارة

وتحاول التحرك بها، ولكنها بقت ساكنة. «هيا! هيا! وهل يهم أن يكون ماء الرادياتور موشك على الغليان؟». وعند المنعطف التالي ظهرت أمامها سيارة. لم تلحظها (زاد). كانت قابضة على المقود وتحاول الانطلاق بالسيارة مجدداً.

ولكنها لم تتحرك. نظرت إلى لوحة القيادة، وفجأة شعرت بشيء يرتطم بصدرها. وصوت زجاج يتهشم. نظرت أمامها. كانت هناك سيارة أمام سيارتها وقد تحطمت مقدمتها. ليست لديها أي فكرة عن كيفية وقوع هذا الاصطدام.

هناك شخصان في السيارة، ينظران إليها في دهشة وفزع. خرجت (زاد) من السيارة مسرعةً، وهرعت إليهما، كانت عيناها تلتمعان في غضب. رأت أمامها وجهين؛ أحدهما بدين والآخر ضئيل.

- حثالة!

قالتها وقد خيل لها عقلها أن التي أمامها هي ماريون.

- ألم تتعلما القيادة؟ ألا تنتبهان إلى ما تفعلا؟ صاروا يمنحون الرخصة لكل معتوه هذه الأيام! أنتما ثملان! لا بد أن أبلغ عنكما الشرطة، أيها الأحمقان!

كانت تقف في منتصف الطريق، وهي تطلق سبابها بلا توقف في شجارها الخيالي مع ماريون. فترجل السيدان بهدوء من السيارة، واقتربا منها، ثم انحنيا أمامها مبتسمين.

ولكن (زاد) صاحت في حنق:

- لا تقفا في مكانكما تبتسمان مثل الحمقى!

انحنيا لها ثانيةً، قبل أن يقول أحدهما بالإنجليزية:

ـ أرجو أن تعذرينا، مدام، لم ننتبه إلى أنك كنتِ في طريقنا.

وجدت يداً أنيقة تمتد ناحيتها، ممسكة بورقة من فئة المئة دولار.

صاحت فيهما:

ـ أجنبيان؟ تأتيان إلى بلادنا، لتصطدما بالسيدات! لا بد من ترحيلكما! لماذا لا تعودا إلى حيث أتيتما، يا همج! وما الذي أتى بكما إلى هنا من الأصل؟

كان من الواضح أنهما لم يفهما أي كلمة. فقد اكتفيا بالوقوف في حرج، وتململ. وفي النهاية قال البدين للنحيف بلغة أجنبية، تبين لزاد أنها تعرفها كل المعرفة:

ـ انظر يا (جون) إلى جسدها الجميل! وخصرها! قبّلها، فلربما هدأت بعدها.

ما أن سمعت تلك الكلمات بلغتها الأم، حتى تحولت (زاد) إلى نمرة شرسة. وانتزعت الورقة النقدية من أصابع النحيف، لتمزقها إرباً، ثم تبصق عليها، وتلقيها في وجهه. ثم قفزت إلى داخل سيارتها وانطلقت بها بكل سرعة. ومن دون كلمة واحدة.

تبعها الرجلان بعيونهما. وقال (جون):

ـ امرأة عصبية. إن زوجها لمحظوظ.

وكرر (سام) وصفه:

ـ جسد جميل. وهي لا تزال صغيرة. ولكن ما الذي جرى لها؟ لا بد أنها مجنونة. المجانين فقط هم من يمزقون مئة دولار.

دلف إلى السيارة في حزن، وتبعه (جون)، وانطلقا بها في حرص. وبعد نصف ساعة كانا عند الفندق. كانت حفلة الشاي قد انتهت، وخوت القاعة.

سأل (جون) موظف الاستقبال:

ـ هل تقيم فراو هسه هنا؟

ـ أجل، سيدي، في الغرفة ثمانية وعشرين.

فقال له (سام):

ـ لنقصد البار أولاً. لا بد من كأس يكسبك الشجاعة.

بعد كاس الويسكي الثالثة، قال له (سام):

ـ تحدث إليها بالإنجليزية أولاً ـ حتى لا تخاف منك. وكن مؤدباً ولطيفاً، فهن يحببن هذا.

وبعد الكأس السادسة، نظر شذرا، وقال مزمجراً:

ـ إن أعجبتك فاخطفها على الفور. ولو لم تتفقا، اتصل بي. فأنا مدير أعمالك. والآن اذهب، وأنا في الانتظار.

نهض (جون) وقصد السلم، وعلى محياه اعتزاز ممتزج بالجدية. وطرق الباب، فدعاه صوت منغوم للدخول.

دخل (جون رولاند). فنهضت له سيدة. ذات عينان وشفتان تبيلتان. انحنى لها:

ـ فراو هسه؟

أومأت له. فنظر لها (جون) في جرأة وابتسم في لطف. ثم جلس إلى كرسي وأشعل سيجارة. سألها في تراخ:

ـ تفضلين أن يكون حوارنا بالإنجليزية أم التركية؟

نظرت إليه في دهشة:

ـ الإنجليزية بالطبع.

ابتسم (جون) ووضع ساقاً فوق الأخرى. كانت جميلة ولكن الحيرة واضحة جداً عليها.

ـ أنا الأمير عبد الكريم. وقد أتيت من أجلك، حتى تسعديني.

لا بد أن ستة كؤوس ويسكي في بداية المساء قدر مبالغ فيه جداً.

سألته وقد شحب وجهها:

ـ معذرة؟

ضحك:

ـ أنتِ لم تتوقعي حضوري. فقد راح قصري، ولكني لا أزال حياً. وجدت العالم الغريب مملاً، وهربت من مدير أعمالي. يمكننا أن نغادر اليوم.

ـ يا إلهي، ما الذي تريده مني؟

أجابها في حدة:

ـ لا تتظاهري بالجهل! هل يلزم علي أن آمرك بطاعتي!

قالت له وهي ترتعد:

ـ بل أنا قادمة، قادمة، ولكن علي أن أتصل بمرافقي.

أجرت اتصالاً بيد مرتجفة:

ـ كيرتس، بحق الرب، تعال إلي بأقصى سرعة.

وضعت السماعة:

ـ سأذهب لتحضير أمتعتي. نصف ساعة فحسب.

خرجت من الغرفة مسرعة. وأطفأ (جون) سيجارته، وانتظرها.

دلف رجل إلى الغرفة، ونظر في وجوم إلى (جون)، وانحنى له محيياً، «أنا الدكتور كيرتس». جلس، وسأله بنبرة سريعة احترافية:

ـ ما الأشياء التي تجسدها أول أفكار تخطر لعقلك؟

ـ التاج.

قالها (جون) بنبرة سكران، فتنهد كيرتس في سخط.

* * *

ـ ويسكي.

طلبته (ماريون) وهي تهرع إلى داخل البار.

قالت للساقي في دهشة الدنيا:

ـ تخيل أن يدخل رجل غريب إلى غرفتي، ويتحدث معي بالإنجليزية ليخبرني أنه أمير ويرغب في أن يأخذني ونهرب. كان زوجي السابق طبيب، لذلك أدركت على الفور أن الرجل مصاب بالماناخوليا.

ـ أمر مريع.

وبغتة، تنحنح البدين الجالس نعساناً، وصاح في الساقي. ركض إليه الساقي فتبادل معه بعض كلمات. وبعدها بدا متيقظاً تماماً وهو يتجه نحو الدرج. عندما فتح باب الغرفة ثمانية وعشرين، وجد الدكتور كيرتس يربت على ركبة (جون)، وعلى وجهه ابتسامة استرضاء.

ـ هل تحلم كثيراً بالطائرات أو القطارات؟

ـ كلا، لا أحلم بها أبداً.

عبر الدكتور عن قلقه، وضاقت عيناه.

صاح (سام) بالتركية:

ـ تعال. بسرعة وقبل فوات الأوان!

فزع (جون) من مكانه، ومعه الدكتور. أمسك الدكتور بيد (سام):

ـ أعتقد أنك ممرضة؟ إنها حالة ماناخوليا نموذجية. ستؤول

إلى اكتئاب حاد. إلى من يمكن أن أرسل الفاتورة؟

ـ أي فاتورة؟

أجابه الدكتور في اعتزاز:

ـ خمسون شلناً، من فضلك. لقاء المساعدة الطبية.

وضع (سام) ورقة نقدية في يد الدكتور وهو يقول له في تعجل:

ـ عشرون كفاية.

وسحب (جون) من الغرفة.

قال له (جون) غامزاً:

ـ لقد فهمت على الفور. هذا الدكتور زوج خطيبتي. وأرادت أن تكسب وقتاً حتى تجهز حقائبها. أهي جاهزة الآن؟

ـ اسكت.

همس (سام) وهو يصطحب (جون) إلى السيارة.

لم يتكلم إلا بعد أن غادرت السيارة المكان. وقال له بلهجة صارمة:

ـ عد إلى رشدك يا (جون) ـ إذا دخل أي مؤلف في مفاوضات من دون وكيله فإنه سيضع نفسه في مأزق لا محالة. والدكتور على حق، أنت مصاب بالماناخوليا. تعتقد أنك قد تربح أي نقاش من دوني. في الغد سأذهب إلى (زاد) الحقيقية واضع الأمور في نصابها من دونك. أنت تحتاج إلي حتى في زواجك.

أخذ يتحدث إليه لفترة طويلة كاب يتحدث مع ابنه، وشعر (جون) أنه أصغر وأصغر. وفي النهاية قال له في أسى:

ـ (سام). صدقني. ما أن رأيت تلك المرأة حتى كرهتها.

هز رأسه في وجوم، قبل أن يبصق من نافذة السيارة التي تنطلق إلى فيينا.

في تلك الثناء كانت هناك سيارة أخرى، تهشم زجاجها الأمامي، تتوقف أمام منزل في ساحة رينج. صعدت (زاد) سلم المنزل في سرعة، لتجد (هسه) واقفاً في الردهة، وهو يهم يارتداء قبعته قبل أن يغادر المنزل. بادرته وهي تبكي:

ـ (هسه). لقد أسأت إلى صديقك كيرتس، وحطمت السيارة، ومزقت ورقة بمئة دولار، وبصقت على غرباء، وكل هذا بسبب ماريون.

كانت الدموع تنساب على وجنتيها، فدفنت رأسها في كتف (هسه).

نظر (هسه) إلى كتفيها المرتجفتين وعيونها الرمادية، اللتين احمرتا من البكاء. هذه الفتاة الغريبة تحبه، لا شك في هذا، حتى لو بدا هذا الحب غريباً ومفككاً، وملتبساً غامضاً.

داعب شعرها وقال لها في هدوء:

ـ لا توجد امرأة اسمها ماريون، ولن توجد. هناك (زاد). (زاد) وحدها.

نظرت إليه في امتنان.

ـ أجل. لا وجود إلا لزاد واحدة، ولقد نسيت أن تسجل رقم السيارة التي صدمتها. ولا تغضب مني (هسه)... فلن أقود أي سيارة بعد الآن.

الفصل الثامن عشر

تمشّى (سام دوث) على راحته في شارع رينج، والسيجار في فمه. توقف أمام السينما، قبل أن يهز رأسه في عدم اقتناع. إنه يجد فيينا مدينة متخلفة - فليس فيها ولو فيلم واحد لجون رولاند. غمغم في سخط، «موسم الصيف»، ثم استأنف المشي. الشوارع واسعة إلى حد يشعرك بالذنب، والمباني منخفضة لدرجة مخجلة. كانت فكرة غبية أن يحضرا إلى أوروبا. كان من الأفضل لهما أن يسافرا إلى المكسيك أو كوبا. لا بد أن يبتعد (جون) عن النساء. كانت النساء دائماً مشكلة العثمانيين. توقف (سام) لينفض الرماد عن سيجاره. هو التقى الأمير عبد الكريم منذ ستة أعوام؛ لما وجده معدماً جائعاً في داخل كوخ حقير في باوري. ووجد الدهاء اليوناني المتأصل في (سام) فرصة العمر فيه. فأطعمه ومنحه اسماً جديداً: جون رولاند. ولكن مازالت تلك الروح العثمانية كامنة فيه؛ مستترة في تلك الأناقة، ومندسة في وسط أوراق جواز سفره الأمريكي.

«إنه سكير، وسيبقى على تلك الحال إلى أن يرتاح باله». وبرغم سخطه، فقد كان (سام) ممتناً لحقيقة أن طبعه يمزج بين حب البشر والذكاء التجاري، وأنه ناجح في الاثنين. «لو استمر

في معاقرة الخمر لثلاثة أعوام أخرى، فلسوف يطير عقله. عندئذ يكون على الأفلام السلام». يفكر (سام) في (جون) بنفس حنو الفلاحة على بقرتها المفضلة. «ربما كان من مصلحته أن يتزوج، من زوجة صالحة مطيعة هادئة، تكون مسامرة له في كل مساء. ليسترجعا معاً ذكريات الوطن. وربما كانت مصدر إلهام له. فهو مجنون في كل الأحوال».

هز (سام دوث) كتفيه في لامبالاة. لم يسبق له أن فكر في موطنه. توقف بغتة. فقد لمح لافتة نحاسية تعرف بصاحب المنزل أمامه، «د. ألكسندر هسه ـ اخصائي الأنف والأذن والحنجرة». صعد الدرج العريض، وسأل عن (زاد). اصطحبته مديرة المنزل إلى غرفة المكتب ذات النوافذ المقوسة.

(سام دوث) وكيل أعمال محنك، ورجل أعمال ذكي. قلبه متزن وذهنه صاف. ولكنه الآن يقف في الغرفة وهو يشعر أن في قدميه أكياس رمل، بينما تغمره الحيرة والارتباك.

وجد السيدة العصبية التي مزقت ورقة بمئة دولار إرباً تبتسم له. تلفت (سام) حوله، واطمأن لما لم يجد قربها أي شيء ثقيل يمكن أن تلقي به عليه. كان قد حضّر ما سيقوله لها، ولكنه الآن عاجز عن النطق به:

ـ مدام. مدام. . . أرجو أن تعذريني على هذا التطفل عليكِ. ولكننا توصلنا إلى عنوانك من لوحة السيارة. وأنا وصديقي مستائين لما سببناه لكِ من متاعب.

أجابته الشقراء ساخرة، وهي تنظر إليه في غضب:

ـ يمكنك أن تحدثني بالتركية. فلقد تغزلتما من قبل في جسدي وخصري بكلمات معسولة بتلك اللغة.

وجم (سام). لا بد أنها ستقوم في أي لحظة الآن بضربه بأي قطعة نحاسية من تلك القطع. أو تقتلع عينه. فالمرأة التي تمزق ورقة بمئة دولار قادرة على فعل أي شيء. قال لها بلغة تركية راقية:

ـ هانم. حتى لو كانت آثامي أعظم من حبات رمال الصحراء، فإن كرمك قادر على أن يمحوها مثل سحاب رقيق تبدده أشعة الشمس القوية. هل تتذكرين، هانم، لما فاجأ السلطان الصادي الكبير وهو يقترف ذنباً، فلقد بادره الصادي صائحاً: «أيها السلطان المعظم، لو عرفت ذنبي لغفرت لي!».

كان (سام دوث) رجلاً حاذقاً. لا بد أنه ولد في مرتفعات فنار الارستقراطية.

صفقت (زاد) في سعادة:

ـ (هسه). تعال إلى هنا!

انفتح الباب، فظهر (هسه) في البالطو الأبيض. بادرته (زاد) قائلة:

ـ هذا الشخص الواقف أمامك هو أحد الأجنبيين اللذين اصطدمت بهما بالأمس. وبصقت عليهما. إنه رجل مؤدب وهو أصلاً من اسطنبول، ويطلب مني أن أغفر أنا له. فهل أغفر له، (هسه)؟

ـ اغفري له.

وجد أمامه رجلاً بديناً أسود الشعر، يقف مرتبكاً في وسط غرفة المكتب، ولم يكن يعرف أن هذا البدين يريد أن يأخذ منه

زوجته وأن يهدم هذا المنزل الهادئ ـ كل هذا لأجل رجل اسمه (جون رولاند)، مصاب بجنون العظمة. قال لهما (سام) بكل تواضع الدنيا:

ـ هر دكتور، الهانم الموقرة، سيسعد صديقي ويسعدني جداً أن تكونا ضيفينا هذه الليلة. فمن النادر جداً أن نلتقي مثلكما في أوروبا.

نظرت (زاد) إلى (هسه) في تساؤل. فقال لها:

ـ اذهبي أنتِ. اليوم هو الخميس، وسأكون في الجمعية الطبية.

اندهش (سام دوث). هؤلاء الأوروبيون أغبياء بالفعل. والرب يعاقب الأغبياء ويساعد الأذكياء. ها هي ذي؛ سيدة شقراء، جميلة، وها هو ذا يتركها تخرج مع غريبين. ببساطة ومن دون أن يؤنبه ضميره.

انحنى لهما وانصرف. توفيق رأسين في الحلال عمل قديم ومحترم. ورد أول ذكر له في الألواح الآشورية. وفي قصر بيزنطة، اندلع صراع شرس بين خاطبين وخاطبات من جميع أنحاء العالم لأجل أن يختار الامبراطور زوجة له من باسيليسا.

كانت تمنح مناطق بأسرها مكافأة لمن يعمل في هذا العمل. وكان السلطان العثماني يرسل الخاطبين إلى أركان العالم الأربعة. ويرسل إليه الأمراء والباشاوات بالنساء. إنها حقًا مهنة قديمة ومحترمة. وكان (سام) فخوراً بنفسه.

* * *

في المساء، كانت (زاد) مبتسمة، وفي عينيها جذل. وقفت في غرفة الزينة أمام المرآة، وهي تمسك بأحمر الشفاه مثل صولجان. الأتراك جنس نبيل بالفعل. يجيدون معاملة السيدات، حتى ولو كانت تلك السيدة قد صدمت سيارتهم وشتمتهم. لامس أحمر الشفاه شفتيها. الليلة تتحدث التركية ـ سوف تتحدثها طوال الليل. لم يهمها الغريبين، طالما أنهما متحضرين، ومن رائحة بلادها. فتحت زجاجة العطر ولامست صدغها بريشتها. الليلة تتحدث عن قرى الأناضول وعن الزوارق الصغيرة التي تدور حول جزر بحر مرمرة، يقودها رجال أشداء أقوياء. سوف تشعر بروح تلك المرتفعات في آسيا الصغرى، والوديان الضيقة في البلدات البعيدة، المحمية من سخونة الشمس.

تناولت فرشاة صغيرة ومررتها على أجفانها الناعمة. سوف تغمرها أصوات لغتها الأم، وسيحكي لها الغريبان عن جمال الصحراء صفراء العيون.

«جميلة»، قالتها وهي تتأمل أظافرها التي اكتست بلون الورد. ستكون لطيفة مع الغريبين اللذين أساءت إليهما، وهذا لأنهما من رائحة بلادها.

غادرت المنزل. واستقبلها (سام دوث) في لوبي الفندق. وإلى جواره (جون رولاند)، وكان ينظر بعيداً بعيون خاوية. التقت عيناه بعيني (زاد)، وضغطت يده على أصابعها الوردية. شم الأنف العثماني المعقوف عطر جسدها. قال لها في هدوء:

ـ هانم، أنا عبدك.

كانوا جلوسًا في المطعم، وسط خدمة صامتة. يتعامل (رولاند) مع الأطباق في رشاقة؛ بينما تخشخش الكؤوس بين حين وآخر. حكت لهما (زاد) عن أبيها، الذي يعيش في برلين، وعن إخوتها، الذين راحوا في الحرب، وعن منزلهم في البسفور.

- هل مضى وقت طويل على مغادرتكما اسطنبول؟

تأملها (جون رولاند). عيناه تغيب تحت أجفان شبه مغلقة. قال لنفسه، «يالها من امرأة! قادرة على أن تمزق النقود وأن تدافع عن نفسها. عثمانية بحق، من أرقى البيوت في اسطنبول. لا بد ألا يحكم المرءعلى امرأة من قبل أن يراها. لقد كنت غبياً. لكنني تُبت إلي رشدي. الصلاة خير من النوم. والمرأة خير من الخمر. ستكون لي».

- أجل، كنا بعيدين منذ فترة طويلة عن اسطنبول. ولكننا نعرف أن الناس هناك في عيشة راضية، وأن الوطن يزدهر، والجيش قوي. راح الحزن والأسى عن اسطنبول.

- وراح العثمانيون.

- أجل.

كانت نبرة صوته غير مبالية. هو أيضاً من بيت تركي راق:

- لم يعد هناك عثمانيون. بل أتراك وحسب. صار العثمانيون مثل ذئاب هرمة تساقطت أسنانها.

قال (سام)، ليغير من نبرة (جون) اللامبالية:

- ولكن لهم أفضالهم.

ـ الفضل لا يعني طلب الامتنان والعرفان للأبد. لكل شيء قدر. وإن زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده.

قالت (زاد):

ـ كنت مخطوبة لأحد العثمانيين. وعلى الخادم ألا يسيء الكلام عن سيده الذي ذله الزمن.

اتسعت عينا (رولاند) في دهشة:

ـ لم أكن أبداً أحد خدم العثمانيين. وأنتِ، هانم، فضلتي الزواج من نمساوي بدلاً من الارتباط بعثماني. وهذا خير تأكيد على كلامي.

ـ ولكنه تخلى عني.

كان صوتها هادئاً جداً، فتحجج (سام دوث) فجأة بأن عليه الذهاب ليجري اتصالاً وربما يرسل برقية.

ذهب، وفي طريقه طلب من كبير السقاة أن يرسل زجاجة ويسكي إلى غرفة (جون). فهو ذكي، ويجيد الاعتناء بصديقه.

حدثها (جون) في رقة، وقد تخلت يداه في ضعف عن مسندي مقعده:

ـ التقيت والدك في برلين. وقد طلب مني أن أوصلك لكِ تحياته.

ـ التقيت والدي؟ أتعرفه؟

ـ بالطبع أعرفه. عرفته منذ فترة طويلة. كانت أول مرة ألتقيه فيها في باب السعادة. عندما قبّل محمد رشيد عباءة النبي

لأول مرة. ذلك منذ أمد بعيد. يوم الخامس عشر من رمضان. عبرنا من بوابة الامبراطور. ارتدى الامبراطور زي قائد عسكري، ومن خلفه كبير وزرائه. ذهبنا إلى قاعة العباءة المقدسة. جدران القاعة كلها مغطاة بأستار سوداء، منقوش عليها آيات من القرآن، مطرزة بخيوط من الذهب. وفي الوسط، الصندوق المزين بالأحجار الكريمة، والذي يحتوي على عباءة الرسول. ولكن لا بد أنكِ لا تجدين في نفسك أي اهتمام بمثل تلك المقتنيات. فهي عتيقة، وأنتِ سيدة عصرية.

- لا تتوقف.

طلبت منه (زاد) ذلك، وهي تنحي الشوكة والسكين جانباً. وقد احمرت وجنتاها. أجل، في زمن ما كان والدها ضمن حاشية الامبراطور، ويسير معه عبر باب السعادة إلى قاعة العباءة المقدسة.

- عباءة الرسول ملفوفة في أربعين رداءً مطرزاً بالذهب. والقاعة تضيئها الشموع. كان الجو حار جداً، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لرفع العباءة من وسط الأربعين رداء. وكان الامبراطور عليلاً. فوقف في مكانه، يستند إلى سيفه، وقد أغلق عينيه. صلى. ثم قبّل عباءة الرسول، وبعدها تبعه الجميع، واحداً تلو الآخر. وكان والدك في الترتيب الثامن والثلاثين. كان قائداً شاباً وقتذاك. وإلى يمين العباءة وقف كبير خدم القصر الامبراطوري. بين يديه وسادة مخملية، فوقها أوشحة حريرية. وبعد كل قبلة يمسح العباءة بواحدة من تلك الأوشحة، ويتسلم كل فرد وشاحه. ثم يأتي خدم القصر يحمل كل منهم إبريقاً فضياً. ويبلل طرف العباءة قبل أن يصب الماء في قنينات

صغيرة. وتلقى كل منا قنينة، مختومة بالخاتم الامبراطوري. كان يوماً جميلاً، ذلك الذي التقيت فيه والدك لأول مرة.

بقت (زاد) تحدق في سطح الطاولة في شرود. كانت تجلس في قاعة مبهرة الإنارة. وكبير السقاة بزيه الأبيض ينحني لضيوف الطاولة المجاورة. ومر جوارها ترولي عليه باقة من المقبلات الفاخرة. بدا لها الرسول مثل شبح، يحلق في القاعة، غير حقيقي، غامض، وكأنما استحضرته حكايات هذا الغريب. قاعة معتمة ذات أستار سوداء، وامبراطور عليل يستند إلى سيفه. تلك الصورة مشوشة أمامها ـ وتتحول إلى عليل يجلس جوارها إلى نفس الطاولة، والنبيذ الأحمر هو الذي يسكب على العباءة وليس الماء.

ـ هل كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تلتقي فيها والدي؟

ـ كلا. التقيته مرة أخرى بعد عشر سنوات. في المسجد الأيوبي.

ـ إذا كان ترتيب والدي في الحاشية الثامن والثلاثين وقت أن كان في حاشية محمد رشيد، فكم كان ترتيبك أنت؟

كان في صوتها سذاجة.

ـ أنا؟ في الترتيب السابع عشر.

خيم الصمت على الطاولة. وفي الطاولة المجاورة، أخذ ضيف وقته في طلب وجبة عشائه.

قالت له (زاد) في رقة:

ـ أنت مخادع. ولكن لا يهم. فأنا أحب الكلام عن العصور القديمة.

ـ أنا لست مخادعاً. لماذا تظنين هذا؟

ـ لأن... حسنا. الأمر غاية في البساطة. مظهرك لا ينم عن كونك قد وصلت إلى الأربعين من العمر. وفي الوقت الذي كان فيه والدي الثامن والثلاثين في حاشية الامبراطور، لا بد أنك كنت في عمر أقل من العشرين، ولكنك تخبرني أنك كنت السابع عشر في ترتيب الحاشية؟

أجابها بعد فترة من الصمت، متجاهلاً الإساءة، بصوت حازم صارم:

ـ هذا لا يعني أنني مخادع. فأمراء الامبراطورية في طبقة أعلى من الحاشية ورجال الجيش.

اتسعت عينا (زاد) دهشة وفزعاً، وتحولت القاعة أمامها فجأة إلى زنزانة سجن:

ـ ما الذي تقصده؟ ما الذي تعنيه؟

سكتت، فهي لا تحتاج إلى إجابة. تأملت الوجه الصغير، والعينين الملونتين الخاويتين، وذلك الأنف. الجبهة المربعة والشفتان الجافتان. بدا الوجه مثل قناع، والعينان الثابتتان تحدقان فيها، وكأنها تصيبها بالسهام.

ـ كلا، أرجوك، كلا.

وضعت ظهر يدها على شفتيها. كل هذا و(رولاند) ملتزم الصمت. وجهه جامد مثل تمثال، انتقل عبر الزمن من العالم القديم إلى هذه القاعة مبهرة الأضواء. وفي النهاية، قال لها:

ـ أعطاني والدك عنوانك. لقد اختارك الامبراطور لي. وأنا

لم أفكر فيكِ. لا في اسطنبول، ولا في أمريكا. والآن أراك. وأفكر فيك. ستكونين أماً لأمراء.

سكتت (زاد). ونظرت إلى (رولاند) نظرة ثابتة جامدة. ها هو ذا إذن. الأمير المنفي، المفقود. أشجار الصنوبر تنمو في قصره. رأت أغصانها وأعاليها من فوق السور. وشاهدت مرات عديدة عبداً خصيًا بدينًا، ربما هو كبير خدمه، جالس في الشرفة. كان في السابعة عشرة، ومسموح له بتقبيل عباءة الرسول من بعد محمد رشيد، والخليفة وحيد الدين ضئيل الجسد هو من اختارها له. هي له، جسداً وروحاً، ملكه. ولأجل أن تسعده تعلمت الشعر الفارسي والصلوات العربية، ولأجله أنصتت إلى صوت الكلمات الهمجية.

ـ سموك...

قالتها، ثم عجزت عن تكملة الكلام. أضحى الحاضر مربكاً لها؛ مجرد كابوس. ومن بعيد، أتاها صوت ضحكات ماريون الساخرة ـ وسرعان ما خفتت. ذلك المنزل على البسفور، الدار، وغروب الشمس الحمراء القانية في القرن الذهبي، عاد كل هذا حقيقةً من جديد، متجسداً في هذا الغريب ذي الشفتين الصغيرتين والعيون الجريئة.

رغبت في النهوض، لتتناول هذه اليد المرتخية، وتطبع قبلة على تلك الكتف القوية.

ـ سموك. أنا أمتُك. أتبعك حيثما ترغب.

رفعت عينيها إليه، تهيمن عليها سعادة غامرة، طاغية، مؤلمة. فابتسم لها (جون).

ـ أشكرك. لقد أحسن والدك تربيتك. تعالي إلى الفندق في الخامسة مساء. وسوف نجهز كل شيء.

نهض وصاحبها حتى الباب.

مشت عبر الساحة، وهي تشعر أن الأسفلت بساطاً ناعماً. ها هي ذي السعادة الحقة، التي لم تخطر ببالها، تواتيها بغتة. تجسدت لها في صورة عينين شاحبتين وفم صغير، وحدثتها بلغة اسطنبول الراقية. صارت لها كلها فجأة؛ جزء من جسدها وروحها. السعادة.

ولكن. ما أن وصلت إلى المنزل حتى تذكرت أنها متزوجة، وأن اسمها الآن فراو هسه. إلتاعت، وتلفتت حولها. ها هي ذا، واقفة، تائهة، عاجزة عن أن تخطو خطوة أخرى. هناك رجل حقيقي، اسمه (هسه)، وهي زوجته. دارت على عقبيها في سرعة، وسارعت الخطى نحو المنتزه.

الفصل التاسع عشر

تجولت في المنتزه. صوت انسحاق الرمل والحصى تحت قدميها، بينما تصنع الشجار ظلالاً لها فوق العشب. محبون، متلاصقون، فوق المقاعد الرخامية. يتوقف الهمس حينما تمر (زاد) قرب عاشقين. ولكنها تمشي بلا توقف، محنية الرأس. الأغصان السوداء تصنع أقواساً فوق المماشي، بينما يلتمع الحصى تحت قدميها في ضوء القمر.

ثم وقفت فوق الجسر، تستند إلى سوره، وتطلع إلى ذلك الفراغ أمامها في قاع النهر، والأرض المحدودبة التي تستحم في كل هذه الفضة. نظرت نحو المماشي، ومن حولها، نفس الدوائر، مجدداً ومجدداً.

فكرت في (هسه)، لحظة أن كانا معاً في السيارة، يقبلها، وهي تراه كل شيء بالنسبة لها. ولحظة أن كان يقف في خضوع في الشارع الذي أغرقه المطر في برلين، يطلب منها العفو والسماح. متى كان هذا؟ بالأمس؟ منذ قرون؟ (هسه) الذي أنقذ الدرويش البكتاشي، والذي جعلها امرأة، في تلك الليلة الصيفية الحارة، في الفراش العريض، في ذلك الفندق الصربي. توقفت

(زاد). يطل القمر خلسة عبر الأغصان، رقيقًا ناعماً، مثل روح (هسه). ذلك الذي كان يقف جوارها، وفي عينيه خشية وسعادة، في غرفة النوم ذات الفراش المزدوج الكبير، الذي نامت فيه (ماريون) من قبل، وهي تحلم برجل آخر.

أجل - وعدته أن تكون زوجة وفية. وتعاطفت معه بسبب (ماريون)، التي هجرته، والتي تتمنى لها مصير الجحيم. لم تلحظ (زاد) أنها ظلت تمشي في الدوائر ذاتها عبر المماشي، التي تحوم بها همسات العشاق.

(هسه) غير مؤمن، ومهرطق، ولا علاقة له بعالم المشاعر والأحاسيس. يداه قويتان، وأصابعه ماهرة، وراضٍ عن عالم حبه الضيق. تراقبه بمعطفه الأبيض، تفوح منه رائحة الأدوية، أو في المقهى، وهو يحكي لأصدقائه حكايات بسيطة عن مرضاه، أو عن المسرح، أو السياسة. قلبها وكيانها يعشقه. ولا يمكنها التفكير في أن (هسه) لن يكون له مكان في حياتها بعد الآن.

أشعلت سيجارة. أنار اللهب المؤقت الضئيل وجهها. دخنت وهي تتمشى، وقد انتابها خوف عميق من ذلك الأمير الذي ظهر في حياتها بغتة، والآن يريدها لنفسه.

في قديم الزمان، حضر أسلافها من الصحراء ليكونوا عبيداً لأسلاف الأمير. وعليها أن تشكر أسلاف الأمير على ما أبدوه تجاه أسلافها من فضل، وعلى كل نفس تتنفسه، وكل حركة تتحركها. كان من الممكن أن تكون الآن زوجة فلاح، أو واحدة من نساء البادية، لو كانت تلك هي مشيئة أسلاف الأمير. توهجت السيجارة؛ تأملت رمادها الطويل وتذكرت قيظ الصحراء

التي منها خرج أسلافها ليغزوا العالم. أورخان العظيم، ومراد الغضوب، وسليم المتوحش الذي غزا مصر فسلموه عباءة الرسول. تجسدت عظمة الإمبراطورية بأسرها في هذا الرجل ذي اليدين الواهنتين، الذي يريدها الآن لنفسه. ويجب عليها أن تطيعه، بكل خنوع، فهذا هو واجب المرأة الذي اقتضاه الرب.

ألقت بالسيجارة بعيداً. ودهست عقبها وهي شاردة خائفة. ربما يجب عليها أن تجد امرأة مناسبة لهسه، لا تطاردها لعنة الامبراطورية الضائعة، امرأة من جنسه بوسعها انتظاره في المقهى بينما ينشغل هو بعلاج مرضاه، ولا تهرب لما تأتيها (ماريون) حتى طاولتها.

تلفتت حولها. شعرت فجأة بأنها تخاف هذه المدينة الغريبة، والعالم الأجنبي الذي أجبرت على خوض غماره، عالم لا تفهمه، عالم أصابها بالسأم. أجل، هي تدرك هذا، لقد ملّت؛ الغرفة ذات النوافذ المقوسة، والمقهى والدكاترة، وزيارة أناس تختلف مشاعرهم وأفكارهم عن مشاعرها وأفكارها، ومشاعر وأفكار أبيها، والأمير، والذي التقته لأول مرة ومع هذا وجدت أنه أقرب إليها وأشد ألفة من (هسه) ومرضاه وأصدقائه وحواراتهم.

على (هسه) أن يهاجر إلى القاهرة أو سراييفو، وأن يرتدي طربوشاً مثل أجداده، وأن يعيش بالطريقة التي عاشتها (زاد)، ويخالط الدراويش ويرتاد المساجد ـ عندئذ تبقى معه. توقفت (زاد) بغتة. أفكارها مضطربة. وجدت دكة رخامية تحت شجرة كبيرة. فجلست عليها.

«يا الله»، قالتها لنفسها في رقة، وسرت البرودة في يديها. (هسه) زوجها، وهي تحبه، ولم يجبرها أحد على الارتباط به. والآن ـ الآن ها هي ذي، لا تختلف عن (ماريون)، جالسة في المنتزه، تفكر في رجل آخر غريب، بينما زوجها راقد في فراشه يتوق إليها. رغبت في أن تذهب للأمير، فهذا واجبها، ولكن ظل (هسه) سيتبعها، ويطاردها في الليالي التي تكون فيها مع الأمير، وخلال ساعات النهار وهي تتحدث إليه. سوف يطاردها في كل مكان، وسترى أمامها عينيه، وتقرأ التأنيب الصامت على وجهه، وتسمع اللعنات التي سيصبها عليها.

أخفت (زاد) وجهها بيديها. لا سبيل للخروج من حارة تعاستها المظلمة المسدودة. تدرك هذا جيداً: سوف تخشى الرحيل، ولن تجرؤ على أن تنظر لنفسها في المرآة إن هي فارقت (هسه).

حدقت في الأشجار، شاردة. الواجب والعار، الشرف والرغبة؛ جميعها صارت ممتزجة معاً، ولم تعد تعلم ما إذا كان الواجب هو ما قادها إلى الأمير، أم أن الحب هو ما أبقاها مع (هسه).

هي تدرك أن هناك فارقاً بين (ماريون) المستهترة التي هجرت زوجها، وبينها هي الجالسة غارقة في أفكارها في المنتزه، تحدق شاردة في الليل. ولكن ربما كانت (ماريون) ترى في الرجل الذي رحلت إليه نفس ما تجده هي في الأمير.

تنهدت. كلتاهما خيانة. ولا فارق بينها وبين (ماريون) في أي شيء. وسيكره (هسه) فكرة الزواج للمرة الثالثة. وسيمضي

أيامه الباقية وحيداً حزيناً. سوف يكره جنس البشر، ويمشي وحده في الشوارع يلعن تلك المرأة التي أقسمت على أن تكون مخلصة له، قبل أن تتركه لترحل لآخر؛ مرتين.

نهضت (زاد)، ووجهها شديد الاحمرار. خجلاً. ومشت في هدوء إلى مخرج المنتزه. أجل، هناك فارق بين أمير من اسطنبول و(ماريون)، التي خانت زوجها.

مشت غارقة في أفكارها عبر الساحة. مستقبلها هنا، في هذا الشارع العريض. ستبقى لعقود جالسة في المقاهي، وتقود سيارتها إلى كوبنتسل مساءً، لتذوب روحها في غياهب أوروبا، ولكنها لن تترك زوجها، وستبقى له زوجةً مخلصةً لا تخشى أحداً ـ إلا عبد الكريم، ذو الوجه الكسير الوحيد، الذي دعاها ولكنها لم تلبه.

وصلت إلى المنزل. وصعدت الدرج في بطء، وفتحت الباب ببطء أشد. كان نور غرفة النوم مضاء. و(هسه) في الفراش، نعسان يتصفح في لامبالاة الدوريات اللغوية التي أخذها من فوق منضدة (زاد). تطلع إليها، وابتسم.

ـ تأخر الوقت. هل أمضيتِ أمسية لطيفة؟ كنت أحاول قراءة دورياتك ولكني لم أفهم منها كلمة. ما المقصود بـ«المرحلية المتعددة»؟

ـ هي شيء أشبه بورم الغدد، ولكن من الناحية اللغوية. ولا بأس إن لم تفهمها. وكانت ليلة لطيفة بالفعل.

سكتت. وانتبهت لغرابة أنها تتحدث إلى زوجها بالألمانية، بينما تفكر وتحلم بلغة أخرى. كبتت بداخلها بوادر إحساس

بعدم الارتياح، واقتربت من الفراش. كان (هسه) مستلقياً على ظهره ينظر إليها.

- جميلة أنتِ الليلة، (زاد). جميلة للغاية.

جلست إلى الفراش، ومالت عليه، لتقبل جبهته. مد يده نحوها. داعب جسدها، وشمت هي عبق جسده، وشعرت بقوة عضلاته، وعلامات عشقه التي ألفتها. خلعت ملابسها، وعادت لتجلس إلى الفراش، وقد ضمت ساقيها إلى جسدها.

- كانت ليلة لطيفة، وتحدثنا عن العصور القديمة وعن بلادنا. ولكن موطن الزوجة هو فراش زوجها.

ضمها (هسه) إليه. ووضعت رأسه بين يديها، واحتضن جسدها جسده، تمطره بالقبل، وكأنما تبحث في جسدها عما قد يساعدها، وتفتش بين ذراعيه القويتين عن الأمان.

استيقظت حواس (هسه) تماماً. بعدما غمره شغف (زاد). عيناها غابت في السحر، وجسدها يختلج من فرط التوق والنشوة. إنها ملكه، بجسدها البض، وشعرها الأشقر الذي ينسدل على وجهه - كلها ملكه. اعتلت جسده، وأسندت رأسها إلى صدره. وكانت تتحرك ببطء وهي تشعر بكل لذة الدنيا، وتتأوه منتشيةً مثل حيوان وحيد.

- أحبك، (هسه). أحبك وحدك.

قبض (هسه) على جسدها بقوة، قبل أن يلقي بها فوق الفراش الأبيض، ونظر إليها بكل شهوة، وهي تبادله النظرات بكل جرأة، وتعض على شفتيها في توق. نسي (هسه) عندئذ كل

شيء عن مرضاه، وعن الجمعية الطبية، وتعبه طول اليوم. لم يشعر إلا بذلك الدفء الرطب الكامن في شفتيها، واستكانة جسدها الرقيق. وانفصلا معاً عن العالم. بعد برهة، كانت تجلس في الفراش، وقد أحاطت عنقه بيديها، تحدق في صمت في اللاشيء. تبتسم وتنظر إليه، تتأمله، وقالت له في توسل:

ـ (هسه). أريدك أن تفعل شيء لأجلي.

ـ أجل، (زاد).

ـ هناك في غرفة الطعام زجاجة كونياك فوق الرف. سوف أحضرها لك. اشرب كأساً منها، وإلا رحت في النوم، وأنا لا أريدك أن تنام. أريد أن أرى عينيك مفتوحتين.

ركضت عبر الشقة حافية، وعادت ومعها زجاجة تحت ذراعها وكأس في يدها. بدت مثل صبي في المنامة، غلام صغير، وذلك الشعر المتشابك،، يقوم ثائرًا بأول واجباته.

ـ اشربي معي.

ـ كلا، أنا لا أحتاج إلى كونياك حتى أسكر.

صبت له كأساً، فارتشفه ببطء. وصبت له آخر. قال لها ضاحكاً:

ـ أنتِ تغويني. وهذه خطيئة. القرآن يحرم شرب الخمر.

قالت له بجدية:

ـ يقول العالم الكبير الشيخ إسماعيل الأرديلي أن هناك حالات يجوز معها شرب الخمر.

شرب (هسه). وجلست (زاد) واضعة ساقاً فوق الأخرى، وهي تنظر إلى الزجاجة.

ـ أنا متيقظ تماماً، (زاد)، ولكني سوف أستمر في الشرب طالما تريدين مني ذلك.

وضعت يديها في حجرها، وقالت له بنبرة أسى:

ـ أجل. لن تكون أبداً تعيساً بسببي، (هسه). أفعل أي شيء لإسعادك ـ دائماً.

اندهش (هسه) من كلامها:

ـ أشكرك. وسوف تكونين سعيدة معي أيضاً. هل قصرت معك؟

ـ بل على العكس. ولكن ما الذي يجعل المرأة سعيدة؟ تكون المرأة سعيدة حين تجد الضحكة في عيني زوجها، فتدرك أن تلك الضحكة لها. لن أغضبك أبداً. أنا لست (ماريون).

الآن، ملأ (هسه) الكأس بنفسه. ونهض عن الفراش ليجلس إلى جوارها، يبتسم بروح مرحة.

ـ (ماريون)... (ماريون) إنسانة غبية. كنت أحبها كثيراً، أما الآن فلا. أحبك أنتِ. (ماريون) تتدهور من سيء إلى أسوأ. ربما كان لي أن آسف عليها، ولكن لا. لقد تركها فريتز. ولم تعد تتوقع أن يعود لها. وهي الآن وحيدة، برغم كونها جميلة للغاية. أما أنا فسعيد، لأن (زاد) معي.

ـ هكذا يعاقب الرب الخائنات.

ابتسمت، وهي تمرر لسانها الصغير على شفتيها، ولكن عقلها لن ينسى الآن أن (ماريون) صارت امرأة وحيدة.

ـ هل شربت كفاية، (هسه)؟

ـ أجل.

مال رأسها، وهي تنظر في الأرض، في براءة وورع:

ـ اسمعني إذن. لقد مرت علينا فترة لا بأس بها ونحن متزوجان. والآن وقت مناسب لكي أحمل ويكون لي طفل.

ـ أوه

تضايق (هسه)، وحدق في الزجاجة. ولكن (زاد) أبعدت الزجاجة، ونظرت إليه في صمت.

ـ طفل؟

قالها وهو يدخل تحت الأغطية.

ـ أجل، أول، ثم ثاني، ثم ثالث، بمشيئة الله.

ـ أنتِ محقة تمامًا، بالطبع، ولكن ألا تعرفين أن المرأة تتألم كثيراً عند الولادة؟

ـ عانت أمي نفس الآلام، وجدتي أيضاً. وجدة جدتي. وأنا لن أكون أفضل منهن.

ـ طبعًا

هو لا يدري سبب كونه خائفاً جداً من أن يكون أباً. إنه يخاف من الأطفال، تماماً كما كان يخاف المدرسة وهو صغير.

هو يرغب فيهم، ولكن ليس الآن، فيما بعد، في وقت آخر، لم يتحدد بعد.

ـ حسناً، الأمر هو أنني إذا أنجبت فإنني سأحرص جداً على سلامتهم في كل وقت. ولكني حريص عليكِ أيضاً. ولا بد من أن تعلمي أن مريضًا من بين كل ثلاثة مرضى هو من يدفع لي، وثمانية من كل عشرة عمليات تكون على حساب التأمين الطبي. ولو أنجبنا طفلاً، سيكون علينا أن نبيع السيارة؛ أما إذا أنجبنا إثنين، فسيكون علينا الاستغناء عن إحدى الخادمتين؛ ولو صاروا ثلاثة، فإن هذا يعني الانتقال إلى شقة أصغر. لا بد أن تكون حياتك ميسورة، وحياة أولادك أيضاً، ولذلك علينا أن ننتظر حتى تتحسن الظروف. وعندئذ أعدك أن ننجب خمسة.

أرهق الكلام المستفيض هذا (هسه). ونظرت (زاد) إليه وكأنها تحاول أن تستشف مشاعره. وقالت له:

ـ عشت من دون سيارة وخدم وكنت سعيدة. أنت لا تريد أطفالاً لأنك أنت نفسك طفل ـ هذه هي الحقيقة. تعلم يا (هسه) أني إلى جوارك دوماً ـ وراضية بذلك. ولكني لست مجرد عشيقة... أنا زوجتك قبل كل شيء.

حاول ألا يسمع تلك الكلمات الأخيرة:

ـ وقت أن كنتِ لا تمتلكين سيارة أو خدم لم تكوني زوجتي. ولكن الآن علي أن أعتني بكِ.

بقت في مكانها، واضعة ساقاً فوق الأخرى:

ـ ليكن. ولكني طوال الوقت كنت ابنة وزير دولة، ومخطوبة إلى أمير.

بادرها ضاحكاً:

ـ أميرك. ربما هو الآن مجرد كومبارس في هوليوود، يلعب دور عبد خصي في أفلام ألف ليلة وليلة.

صاحت فيه، وهي تجذبه من أذنه وتهز رأسه:

ـ أنت طفل غبي. تريد أن تكون زوجي وطفلي في آن واحد. ولو أغضبتني فلسوف أسكب الكونياك كله في فمك. عندئذ ستصاب في الغد بصداع يمنعك عن علاج مغنييك.

أحاط خديها بيديه:

ـ ولو أغضبتني... لو أغضبتني، فلسوف أجرك إلى العيادة واستأصل لوزتيك. وعندئذ تعجزين عن الكلام لأسبوع، ملازمةً الفراش. وهذا عقاب تستحقينه.

ضحكت، وتركته:

ـ أنت متوحش.

ترك رأسه يسقط فوق الوسادة. بينما أطفأت هي الأنوار:

ـ نم.

ونام (هسه) بهدوء وراحة بال. فهو لا يدرك ما يخبئه له المستقبل.

لم تنم (زاد). تترى الأفكار في عقلها، وتدور وتدور. بدت لها الحياة لغزاً بلا حل. النساء في قرى الأناضول، وسهول تركستان، وخيام البدو، يذهبن إلى القابلة ليلدن في كل عام. بينما يتحلق الرجال حول النار وهم يدعون الله، في حين

ترقد المرأة لتضع مولودها. ثم يأتي الرجل ليقطع الحبل السري، والمولود يركل بقدميه، ويبحث بفمه عن ثدي أمه. ليس هناك خدم في خيام البدو، وسيارتهم ذات أربعة أرجل، وخطم طويل، ويسمونها الناقة.

تنهدت. يستحيل عليها فهم كيف تكون ناقة أكثر أهمية من طفل حي يركل بقدميه ويلتقم بفمه ثدي أمه. أغلقت عينيها. وللحظة، رأت وجه (ماريون) معقود الحاجبين، وتلك العينين الحادتين للرجل الذي اختاروها له. ثم راحت في سبات عميق.

الفصل العشرون

ـ تعجبني دقة مواعيدك، هانم.

كان (جون رولاند) واقفاً إلى جوار الطاولة في شرفة الفندق.

ـ تفضلي بالجلوس، هانم.

نحى مقعده جانباً بعض الشيء، وكان في غاية الأدب واللباقة بدرجة لم تكن طبيعية.

ـ عليكِ أن تعرفي، هانم، أنني وصديقي لا نتكلم إلا عن عالم الواقع. فهو لا يعترف بشيء اسمه عالم المشاعر والأحاسيس. لسوف أحبك كثيراً، هانم، فلدي مخزون من الحب والعشق لم أهدر منه شيئاً على أي إنسانة من قبل.

التزمت (زاد) الصمت. كم هو غريب أن يناديها هذا الرجل بلقب هانم، وأن يكن لها هذا القدر من الحب.

قال لها، وقد بدت في عينيه لمعة الرقة:

ـ سوف نرحل عما قريب. لقد تلقيت رسالة اليوم. فلقد طلبت مني الشركة سيناريو: «سيدة الصحراء»، أو شيء من هذا

القبيل. يريدون مني أن أسجل انطباعات عن الموقع المناسب للتصوير، ولذلك أرسلوني إلى غدامس في الصحراء الليبية. وأنا لا أود أن أذهب وحدي. تعالي معي. سوف نمكث في الخيام شهرين، ونشرب حليب الإبل، ونعيش عيشة البدو. سيكون هذا هو شهر العسل. بعدها نرحل إلى نيويورك، حيث تلدين لي الأمير الأول. وبعد ذلك ننتقل إلى كاليفورنيا، حيث منزلي الخاص. تعلمين أنه عندما انهارت الامبراطورية وتفكك عالمها، قلت لنفسي أن الحياة انتهت. ولم أعد أتذكر كيف وصلت إلى أمريكا. كدت أموت جوعاً هناك. وكم هو مهين أن يتضور المرء جوعًا. ولكن لم يكن هذا ما يشغلني. اعتقدت أنه لم يعد لي مكان في العالم. وعندئذ عثر (سام) علي. ورغم أنني لم أعد جائعاً منذ تلك اللحظة، إلا أن الحياة بقت بلا معنى بالنسبة لي. وكل هذا سيتغير الآن.

تكلم (جون) كثيراً، وأسهب. بالفعل، على أي رجل من دون وطن أن يحلم، ويعمل، ويمرض، ويفكر في الموت. أما المرأة فما هي إلا دمية صاخبة، ولا تساوي أكثر من زجاجة ويسكي ممتاز. ولكن هذه التي أمامه ـ والتي هي ليست مجرد امرأة، أو دمية ذات ضجيج ـ فهبة من السماء، وذكرى للوطن الضائع، والأمير عبد الكريم، طوق نجاة ظهر له بغتة في خضم هذه الحياة الغريبة. كان العثمانيون الأوائل بدو يهيمون على وجوههم في جميع أنحاء آسيا قبل أن يستقروا. وكان هذا هو الخطأ. فلا وطن للبدوي. وطن البدوي خيمته. فأينما نصبها يكون وطنه. وستكون (زاد) خيمته.

ـ بضعة أيام ونرحل، هانم، إلى ليبيا.

أشاحت (زاد) بوجهها. ليبيا... خيام البدو السوداء. وأول أمير سيولد في نيويورك. بذلت جهداً كبيراً حتى تعود لتنظر إلى وجه (رولاند) النحيل. بدا لها وسيماً جميلاً.

ـ سمو الأمير. لقد كتبت إليك من برلين، لأعرفك بحبي لك. ورددت على الرسالة بالتخلي عني للأبد. وبعدها تعرفت على رجل آخر، وهو بحاجة إليّ. ومن الظلم أن نخرب بيت هذا الرجل بعدما تخليت أنت عن بيتك من قبل. لا يمكنني أن آتي معك.

حدثته برقة، وهي تنظر في عينيه مباشرة. فاحمر وجهه بشدة. واتسعت عيناه اللامعتان.

ـ لقد كتبت رد الرسالة وأنا لا أعرفك. ومن الظلم أن نخرب بيوت أخرى. فكل ما بني في الحاضر كان على أطلال الماضي. محمد الفاتح دمر بيزنطة ليشيد اسطنبول. ومن دون أطلال بيزنطة لم يكن من الممكن أن تبنى الإمبراطورية العثمانية. من هو زوجك؟ ليس سوى كافر لا يعرف قيمة ما حظي به. أنا متيقن من هذا. ستظلا غريبين في نظر بعضكما البعض. وأنا، أحبك.

لم يكن (رولاند) يعرف خبايا تلك الليلة التي قضتها هي في المنتزه، أو ما حدث بعدها في فراش (هسه)، عندما شرب (هسه) الكونياك وحكى عن (ماريون).

ابتسمت (زاد) في ضعف. أجل، الحياة فعلاً صعبة على امرأة من اسطنبول. قالت له في صرامة:

ـ أنا لست أمتك. أنت تخليت عني رسمياً. أنا الآن

مواطنة نمساوية، متزوجة من نمساوي، ومستقبلاً سأكون بإذن الله أماً لأولاد نمساويين. فات الأوان، سمو الأمير. المحاربون يخربون بيوت الناس، ولكنهم لا يطلبون من نسائهم مساعدتهم في ذلك. كما أن زوجي ليس كافراً. بل هو خبير بأمور الحياة والموت، وأصله من عائلة مسلمة في سراييفو.

سكتت. بينما شحب وجه (رولاند) وامتقع، واختلج، وغابت عيناه. نظرت (زاد) إليه، فمر أمام عينيه شريط حياته بأكمله.

كان منفياً، شحاذاً. مثل قارب بغير دفة، حائرًا، يهيم على وجهه في بحار العالم. بعد أن كان يعيش في قصر مهيب على البسفور، صار سجيناً بحق، ولا يعرف أي شيء عن العالم بالخارج. عارٍ، يستجدي ما يسرته. تجسد ضعف تلك القبيلة القديمة فيه. شعرت هي تجاهه بمحبة وشفقة. مالت نحوه، وتناولت يده، وهي تقول له:

ـ (عبد الكريم)، لا أستطيع، ويجب علي ألا أفعل. ألا تفهم هذا؟ ربما كنت أحبك، (عبد الكريم)، ولكني لا أستطيع الآن أن أكون معك.

نظر إليها، في تساؤل صامت.

ـ انتظر.

لم تعد تعرف ما تقول. كانت متمسكة بيده، وكأن هناك إرادة غامضة غريبة عنها هي التي تسيطر الآن عليها.

ـ انتظر.

كررتها، وقد هيمنت رؤية حزينة عليها، فبكت في يأس:

ـ ربما يتخلى زوجي عني. وعندئذ أكون معك، (عبد الكريم). لا يمكن أن أخرب بيتي.

ضحك (رولاند). وسحب يده من يدها، وقبع في مقعده، جامداً بلا حراك.

ـ رائع، يا هانم. إذن سيتوجب على آل عثمان انتظار كلب كافر حتى يقرر أن يتخلى عنكِ. أنتِ تحبينني، بالفعل، وترغبين في أن تكوني معي. أقرأ علامات الحب في عينيكِ، ويديك، وشفتيك. أحببتني منذ أن مر قاربكم على منزلي عند البسفور. وأحببتني لما كتبتي إلي من برلين، وتحبينني الآن، وأنا جالس أمامك. واجبك أن تحبيني. ولكنك جبانة، هانم. أنتِ جبانة، وهذا لا يليق بالعثمانيين.

لم ترد (زاد) عليه. وكانت شجاعة منها أن تبقى صامتة. نهض (جون) وهو يقول لها بنبرة أدب قصور اسطنبول:

ـ تحت أمرك، هانم.

انصرف، بينما بقت هي في مكانها، شاردة، تحدق في البعيد.

اجتاز (عبد الكريم) ردهة الفندق، قبل أن يصعد الدرج. عاد الآن إلى شخصية (جون رولاند)، كاتب السيناريو السكير الذي عليه الآن أن يجمع المعلومات والأفكار لأجل فيلمه الجديد في ليبيا. دلف إلى غرفته. كان (سام دوث) جالساً في الكرسي الهزاز، ونظر إليه في تساؤل. فوق منضدة الفراش

زجاجة ويسكي معتقة. بالأمس لم يكن (جون رولاند) يحتاج إلى شراب. أما الآن فراح إلى المنضدة، وأحضر كوباً ملأه بالويسكي، وجرعه دفعة واحدة.

عندئذ تنهد (سام)، فقد أدرك كل ما جرى.

ملأ (جون) كأسه ثانيةً:

ـ أنا حقير. غزا أسلافي قارتين، وأنا لا أستطيع حتى أن أغزو قلب امرأة واحدة.

جلس على الفراش. ترتجف الكأس في يده.

ـ لا أحتاج امرأة. ولا أحتاج منزلاً. كل ما أريده هو الويسكي.

شرب مجدداً، فتنهد (سام) ثانيةً. وشرب بدوره رشفات من كأسه. قال لنفسه أن (جون) الآن في طريقه إلى ذاك الجنون.

ـ وما حاجتك إلى هذه المرأة بالذات؟ هناك ملايين من النساء. بوسعي أن أحضر لك أمة في أفريقيا. هيا لنذهب إلى ليبيا. فأوروبا لا تناسبك.

تأمل (جون) كأسه، قبل أن يقول:

ـ لنذهب إلى ليبيا. لو كنت سكيراً فلن تكون بحاجة إلى امرأة، أو إلى قارتين، أو قصر على البسفور.

بدأ يخلع ملابسه:

ـ سأنام الآن، (سام). اذهب! ارسل برقية إلى الباشا في برلين وأخبره أنه لم يحسن تربية ابنته. لم يحسن ذلك أبداً.

نهض (سام) وهو يهز رأسه في عدم استحسان. إنه لا يصدق أبداً أن أسلاف (جون) قد نجحوا في احتلال بيزنطة، وهم بهذه الطباع.

ـ نم أنت. واجبي أن أعتني بحريم الأمير، ولسوف أتولى هذا لأني صديق، وأسامحكم على تدمير بيزنطة. الأمر كله عبثي. ولكني سأعدل الأمور في غضون ثلاثة أيام.

انصرف، فألقى (جون) بجسده على الفراش.

ذهب (سام دوث) إلى مقهى مجاور لدار الأوبرا، وجلس هناك لفترة من الوقت، يحتسي القهوة التركية. من يراه جالساً هناك لن يدرك أبداً أنه يعمل بإيقاع محموم.

كان (سام دوث) داهية. ويريد أن يبين لجون أن اليونانيين ينجحون فيما يفشل فيه الأتراك. كان يمسك بعشرة شلنات في يده في لامبالاة، ويتظاهر بالملل، عندما مال عليه رئيس السقاة. عرف كل شيء عن هسه: عمره، ماضيه، عاداته، أصدقاءه المقربين. وبعدها، وضع العشرة شلنات في جيبه وشكر رئيس السقاة وانصرف. وتمشى حتى الطاولة التي يجلس إليها دكتور (ماثيس) وهو يتجادل مع (ساكس) حول الفارق بين العلاج الجراحي والتقويمي، وقدم لهما نفسه:

ـ (سام دوث)، وكيل أفلام سينمائية من نيويورك.

كانت الدهشة واضحة على الطبيبين، بينما جلس (سام). وأخبرهما وعلى محياه ابتسامة أن شركته تخطط لإنتاج أفلام عن مهنة الطب وذلك لصالح كليات الطب هناك.

إستمع إليه الطبيبان في اهتمام كبير، وهما يشعران أنهما يدخلان في العالم الكبير. ومن المستحيل أن نعرف تلك النقطة تحديداً التي تشعب فيها الحوار لينتقل إلى الأطباء عموماً، ومنه إلى طب الحنجرة، حتى وصل إلى الحياة الشخصية للدكتور هسه.

وبعد حديث استمر ساعة، نهض (سام دوث) وشكرهما بطريقة لافتة.

ـ سنلتقي ثانيةً بخصوص الأفلام.

في الصباح التالي توجه إلى السنترال في الفندق، واتصل برقم شقة (هسه)، وقال بنبرة لاهثة:

ـ أنا ماهراجا ترافنكور. أعاني من ألم فظيع في أذني. متى يمكنني الحضور للدكتور (هسه)؟

ـ الدكتور في المستشفى، وسيعود في غضون ثلاث ساعات.

شكرها (سام)، ووضع السماعة. وتوجه إلى شقة الدكتور (هسه). وجد (زاد) وحدها، جالسة إلى الأريكة في غرفة المكتب. انحنى يحييها. بدت شفتاها متورمة قليلاً، ووجنتاها شاحبتان.

ـ بارك الرب في هذا المنزل!

ـ وأنتما تبذلان جهدكما حتى تخربانه!

ـ أنا عبد المأمور.

اتسعت عيناه، وهو يردف:

ـ لقد لقي العديد من العثمانيين مصرعهم على أيدي قتلة، ولكن نادراً ما كان القاتل امرأة.

نهضت (زاد) من مكانها في عصبية:

ـ أنا لست قاتلة. أنا لم أطلب مجيئكما! وأنا أيضاً عليّ واجبات. أنا سيدة متزوجة.

نظر (سام) إليها في هدوء، وأخبرها أن للواجب وجهين: الخوف من المسؤولية، والافتقار إلى الخيال. فلو كان الأتراك قد اكتفوا بكونهم جنود مرتزقة في جيوش العرب، كما كان واجبهم يحتم عليهم، لما كانوا قد صنعوا لأنفسهم كل هذا المجد والاسم المهيب في التاريخ.

وقفت (زاد) في منتصف الغرفة:

ـ ولكني لا أريد أن أصنع لنفسي اسماً مهيباً! اتركاني لحالي!

ابتسم لها في أسى:

لقد مات والد (عبد الكريم) وأخوه وجده في ظروف مأساوية. وهو يبحث عن يد تنتشله مما هو فيه، ولكنكِ تتركينه يسقط في الهاوية. لا فارق بينك وبين من قضوا على أجداده.

جلست (زاد)، وتضاءل جسدها وسط وسائد الأريكة، وهي تبكي في صمت. قالت وكأنها تعاني من عذاب شديد:

ـ لا أستطيع. ألا ترى أني لا أستطيع؟

مسحت دموعها، قبل أن تقول له في صرامة مفاجئة:

ـ أيها الأفندي، لو أن هناك سيدة اختارت بنفسها زوجها وأقسمت له أنها ستكون مخلصة له، ومن ثم تخلت عنه وتركته من دون سبب إلا إنها فضلت عليه أجنبي ثري، فبماذا تسمي مثل تلك السيدة؟ مثلها لا يوصف إلى بأحط الكلمات، أفندي. والشريعة هنا تقول: عقاب مثلها هو الرجم، والجحيم في الآخرة. فعلى الأمير الذي ينتمي لبيت الخلافة أن يرحمني وألا يخرب علي حياتي.

أدرك (سام) أنه أمام امرأة تركب رأسها في عناد.

ـ هانم، أنتِ قديسة. وإني لأنحني احتراماً لنزاهتك الأخلاقية. شرف كبير. ولكن أنا أيضاً علي واجب، وسأنجزه.

تكورت يداه في قبضتين، واحمر وجهه.

ـ كوني في هذا المنزل ـ ولكن لا بد أن تعرفي مع من تبقين. الدكتور (هسه) رجل يخجل من أصله وينكره. رجل يتلخص طبه وعلمه في صب الكوكايين في حناجر المغنيين والمغنيات. وهو محل سخرية كل أطباء فيينا. وكانت لديه خليلة وهو بعد طالب. وتركها وتخلى عنها لما عرف أنها حامل. وهجرته زوجته الأولى، بسبب غباءه وبدانته. وترك مدينته لسنوات لأن الجميع كان يسخر منه، حتى الأطفال في الشارع. أتعلمين من يكون والده؟ مرابي بلقاني جمع ثروته من دم من حوله. وأنتِ تتمكسين به وترفضين (جون رولاند). بالفعل، النساء لسن من صنف البشر. لا علاقة لهن بالبشر إلا من حيث المظهر.

اختفت الدموع من عيني (زاد). وقفت في مكانها تضحك. والتمعت عيناها، وجسدها يرتجف من فرط الضحك. ومالت برأسها وهي تقول له بصوت كسير:

أوه أجل، وبخلاف ذلك فقد كان في السجن بتهمة سرقة بنك. ويصدر شيكات مزورة، وتمت تبرئته من تهمة قتل بسبب نقص الأدلة. أجل بالفعل. والآن، هلا أخذت قبعتك وتفضلت بالخروج من هنا!

خرجت هي من الغرفة، وتركته.

كان الغضب يتملك (سام)، وهو يسرع الخطى عبر ساحة رينج. لم تنتهي المعركة بعد، بل هي في بدايتها. راح إلى مكتب التلغراف. وكتب غاضباً برقية مطولة، وهو يستعين بآيات من القرآن والتوسلات والنصائح.

* * *

في تلك الأثناء، خرجت (زاد) تتمشى في المدينة. مرت في الشوارع، وعلى المحال والمقاهي. ترى في عيون الرجال في كل المقاهي عينا (رولاند)، وفي كل مانيكان معروض في واجهة متجر هيئة وسمات الأمراء العثمانيين. كان فندق ذا رينج جاثماً مثل حيوان ماكر، فتعمدت ألا تقترب منه.

كان العشاء في انتظارها في المنزل. تناول (هسه) الحساء، وحكى لها عن نوع من المعجنات لا تجيد خبزه سوى والدته. كانت (زاد) تنصت إليه، وبدورها حكت له عن البقلاوة؛ طبق حلوى تركي يقدمونه مع القهوة.

وبعد الظهر، وبينما كان (هسه) في العيادة، أحضرت لها مديرة المنزل برقية: «عرف كل شيء. أحمد باشا. خادم الحاكم والقائد الأعلى». طوت (زاد) التلغراف. هذا كل ما تحتاجه! شعرت أنها مثل حصن منيع تقصفه المدافع في مقدمة الجبهة. قالت لهسه:

ـ سأخرج لأتمشى. اسمعني... ماذا تفعل لو أني لم أعد أبداً؟

ـ ستغيب الضحكة عني إلى الأبد.

ـ ولكني سأعود. بالتأكيد سأعود. هناك في اسطنبول دوماً من يخرج مع أي سيدة حتى يضمن عودتها. ولكن لا حاجة لي إلى هذا هنا. سأعود.

ذهبت إلى مكتب التلغراف، وأرسلت برقيتين متطابقتين، واحدة إلى (جون رولاند)، والثانية إلى (أحمد باشا):

«غير ممكن. زاد»

بعدها تمشت في المدينة. وعند شرفة أحد المقاهي في شتيافنز بلاتس، لمحت (ماريون). همت بتغيير وجهتها، لما أدركت أنها كادت تفعل بالضبط ما فعلته (ماريون)؛ الفعلة التي جعلتها تحتقرها.

شعرت بشفقة وتعاطف مع (ماريون). أومأت تحييها بابتسامة، وردت (ماريون) التحية، في اندهاش وشيء من التكبر.

عادت (زاد) إلى المنزل، مارةً على الفندق.

* * *

في الأعلى، بالفندق، كان (سام) يجهز الحقائب.

- سنذهب إلى روما. كانت النساء دوماً تسبب المشكلات لعائلتكم. ومن روما نطير إلى طرابلس، ومنها إلى غدامس. عليك أن تكتب سيناريو متميز وإلا لن يدفعوا لنا.

- لا تضع الآلة الكاتبة في الحقيبة، (سام). سأكتب ونحن في القطار. ما الذي يشربونه في إيطاليا؟ لم يسبق لي زيارتها.

أغلق (سام) الحقائب:

- إيطاليا في جمال اليونان تقريباً. يشربون النبيذ. ولكنهم في طرابلس يصنعون النبيذ من التمور. طيبة للغاية. وكل ما علينا هو أن نستمتع، (جون)..

وغادرا الفندق.

الفصل الحادي والعشرون

حطت الطائرة البرمائية عند ميناء أوستيا مثل حافلة تتوقف في محطتها. وعكف الطيار عليها بكل تركيز، يفحص المحرك والمراوح. كانت حالة كل أجزاء الطائرة جيدة.

أخذ (جون) مقعده إلى جوار نافذة وضغط على أنبوب التهوية الطويل. وكذلك أخذ بقية المسافرون مقاعدهم؛ بينما يراقبهم (جون) وقد ذكره المشهد بغرفة الانتظار لدى طبيب أسنان. وأغلق الباب. تضرب الأمواج البيضاء زجاج النافذة السميك. وصارت أصغر ومسطحة أكثر، قبل أن تغوص لأسفل، وكأنها قد تجمعت من قبل لوداعهم، قبل أن تبعدها مراوح الطائرة.

شاهد (رولاند) شاطئ أوستيا مترامي الأطراف في الأسفل وقد انتشرت فوقه كابينات الاستحمام، فندق ذا بيتش، وقاعات ليتوريا الهائلة. ارتفعت الطائرة في كبد السماء.

«بسم الله الرحمن الرحيم»، همس (رولاند)، وقد اندهش لما اكتشف أن قلبه لا يزال يخاف الله. فتح أنبوب التهوية. هب الهواء قوياً في وجهه، يكاد يزيح شعره الأسود الكثيف عن

رأسه. يتوجب عليه الآن أن يمضي ساعات عديدة في مقعده المجاور للنافذة، حبيس هذا الصندوق الذي يحلق في المسافة بين أوروبا وأفريقيا. قبع في مكانه صامتاً، وقد أسند وجهه إلى النافذة. وكان هدير مراوح الطائرة كفيلاً بوأد أي محاولة للكلام بين الركاب.

لا بأس في أن يستند إلى النافذة، صامتاً وحيداً، وقد استسلم في ضعف إلى الأفكار التي انتقلت به من نيويورك إلى الصحراء، ومن ثم أخذته إلى قساوة المدن، والآن تطارده عبر البحر إلى ذلك الساحل البعيد للبربر. أسفل الطائرة كانت الرياح تبدد طيات السحب.

وكأنها أبسطة بيضاء تفترش زرقة البحر الساكنة المسطحة، بينما يمر ظل الطائرة عليها مثل طائر ضخم.

أراد (جون) أن يغير المنظر، فنظر إلى يساره. هناك، فيما وراء الأفق العريض، تختبئ اسطنبول. وأمامه، يغطي الغمام الساحل الأفريقي.

ينبسط البحر المتوسط أمام عيني (جون) ـ مثل حلقة سحرية، تجمع بين الماضي والحاضر. شعر أن كل القرون ومنذ مهد التاريخ تنعكس فوق ذاك السطح الأزرق، وأن تلك القرون قد أضحت جزءاً منه، تتوحد فيه، وتتحكم به.

ما هو إلا بدوي، منفي، يطارد غاية لايعلمها. موطنه؟ لم يعد يعرف ما هو موطنه. مياه البسفور؟ هي نفس المياه التي هناك بالأسفل. القصر؟ هناك منازل أفضل منه في هذا العالم، أغنى وأجمل، وأبوابها مفتوحة أمامه.

فقد صفاء نفسه عندما عبر المحيط ليحل به الرحال في جنة مانهاتن الحجرية، وكذلك فقد أمنه وغايته في الحياة. فارغ هو من الداخل، تماماً. وتلك الغرف التي عاش فيها، والشوارع التي مر بها، والمنازل التي رآها: ليست سوى هياكل بلا روح ولا تعني له أي شيء. حياة رتيبه، أكل وعمل، وذلك لأنه مطرود من حلقة المصير الملغزة، التي كان مستقراً فيها، وولد لأجلها.

أحياناً ما يتغلب عليه هذا الخواء ـ أثناء عمله، أو في مطعم، أو خلال حوار: من خلال ظل، كلمة، لمحة، ومن دون ترتيب ـ ويهيمن عليه، مهاجماً إياه، ويخنقه مثل كابوس جاثم لا ينزاح. ولحظة أن يصل الألم حد عدم الاحتمال، يفر منه إلى غايته الجديدة في الحياة: إلى اسمه الجديد، وجواز سفره الآخر ـ وهو لا يدري أن هذه ليست سوى مسكنات، وأن لا فرق بينها وبين قميص أو بدلة جديدة. عندئذ يمقت حياته الجديدة، وشوارع نيويورك المستقيمة الضيقة، وناطحات السحاب بكل أبهتها. عندئذ ترفرف الخيوط البعيدة لعالمه القديم أمام عينيه، فيشم رائحة الهواء المالح التي تأتيه من عند البسفور وتلك النشوة الصحراوية الجافة مع الرمال التي تنسحق تحت قدميه.

ضغط (جون) بجبهته على النافذة. في الأسفل، بعيداً في الأسفل، يختفي بركان فيفيس الإيطالي الأزرق، وخليج نابولي يمتد إلى داخل الساحل الأخضر.

«أهرب من ألم إلى آخر»، فكر (جون) وهو يتذكر بيوت المغرب البيضاء، والساحة الرحبة لقصر الخليفة، والألم الفظيع

الذي اعتراه لما شاهد الحاكم في عباءته البيضاء بعينيه السوداوين الحالمتين. عالم من التوق والحنين - هو أيضاً ممتلئ بالأقنعة والشياطين. تعيده كل لمسة من العالم الغربي إلى مجد الماضي المفقود. وكل تماس مع شظايا الماضي، وكل ذكرى تأتيه بألم جديد، وعذابات انعدام الحيلة والمصير الذي لا فرار منه.

تنهد. لا بأس من الجلوس في طائرة كبيرة، معلقاً بين هذين العالمين... بين آلام وعذابات.

استسلم أغلب المسافرين للنوم، وارتسم الملل على وجهي الطيارين؛ أحدهما يتصفح بعض الجرائد. كان (سام دوث) نائماً، وقد غطى وجهه بجريدة. هناك ملصق على أحد جدران الطائرة مرسوم عليه فندق وطريق يمر عبر مروج خضراء تشبه تلك التي مرا عليها في الطريق إلى سيميرنج. شاهد (جون) بعين الخيال تلك الفتاة التي اصطدمت بسيارتهما. شعر بحرارة غريبة، فعاد يفتح التهوية، وأخذ أنفاساً نهمة من هواء البحر البارد. شعر أن العالم أجمل وفيه (زاد)، فهي مثله، معلقة بين عالمين، ورغم ذلك فقد نجحت في أن تتعايش براحة وسعادة دنيوية.

«كان علي أن أخطفها وحسب»، قال لنفسه في إرهاق، وهو يشعر بذلك الخواء الذي ألفه يعتريه من جديد. شعر بثقل في أطرافه. ولم يعد يهمه ما إذا كان هنا، فوق المتوسط، أو في نيويورك، أو في الصحراء.

تمدد (جون) بقدميه. واندهش حقاً حين تبين له أن الجالسة أمامه ليست (زاد)، ولكنها سيدة شيباء غريبة نائمة.

وفي الخارج، عند الأفق، بدا خيط الساحل الأصفر لبلاد البربر. فضغط (جون) بيديه على صدغيه. من خلف ذلك الخيط الأصفراء صحراء شاسعة، بها مآذن تخترق روحه مثل الرماح. غريب هو في نيويورك، وسيكون غريباً هنا، في بحر الرمال.

هبطت الطائرة بكل رشاقة وسلاسة في السماء. فظهرت القلعة القديمة ومنازل طرابلس المربعة. ولامست الطائرة المياه، والأمواج، لتصنع ذلك الزبد تحت أشعة الشمس الأفريقية. توترت أعصاب (جون).

- أين حجزت لنا؟

نهض (سام دوث) من مقعده، وهو ينتزع كتل قطنية كان يسد بها أذنيه:

- في فندق جراند.

* * *

مرا عبر إجراءات الدخول ووصلا إلى سيارة في انتظارهما. أمامها ترتفع مأذنة مسجد كريمانلي. أشاح (جون) بوجهه في امتعاض. لا مكان لسائح بين عالمين...

في لوبي الفندق الواسع يقف خدم سود يرتدون سراويل شديدة البياض. وعند الشرفة، بعيداً عن الشمس الحارقة، يتناول ضباط غداءهم. تمتد صفوف النخيل حتى القلعة القديمة، وأسفلها حركة مستمرة للجمال والحمير والعرب والنساء المبرقعات. تركه (سام دوث) وتوجه مسرعاً إلى القصر الحكومي.

بقي (جون) وحيداً في اللوبي الكبير، الذي تزينه القباب والأعمدة، فتخيل أنه داخل معبد. نهض وتوجه إلى مكتب الاستقبال. الحمال أسمر، عيناه كبيرتان وفيهما حزن.

ـ بلاد جميلة.

ـ جميلة جداً. هل ستسافر إلى داخل البلاد؟

ـ أجل.

ـ إذن سترى العديد من الأشياء. اذهب إلى واحة الزليتين. هناك ضريح سيدي عبد السلام. أو إلى الجبل. سكانه يعيشون في أقبية تحت الأرض، ويمتثلون لشريعة خاصة بهم. وفي واحات الصحراء ترى آبار ومنازل جديدة. الماء يتدفق عبر الصحراء، وقد بدأت تزدهر. حتى في ديار أبوب هناك بئر جديدة.

ـ ديار أبوب؟ كنت في السابق أطلب تموري من هناك.

نظر إليه الرجل في دهشة. فلقد كانت تمور ديار أبوب حكراً على العثمانيين وحدهم، لا تذهب إلى غيرهم.

ـ ولكني لن أذهب إلى ديار أبوب، بل إلى غدامس.

ـ حيث تعيش قبائل الطوارق، وتسود المرأة على الرجل. ذات مرة استغرقت الرحلة إلى هناك ثلاثة أسابيع. ولكنها اليوم لا تأخذ سوى ثلاثة أيام.

ـ متى استغرقت ثلاثة أسابيع؟

ـ زمان. أيام العثمانيين.

ـ أوه.

ضاقت عيناه وهو يتذكر. طلب نموذج برقية، وكتب فيه:

«زاد هسه، فيينا. ذاهب إلى غدامس، حيث تحكم المرأة الرجل. إن رغبتي أن تحكمي، تعالي».

ظهر (سام دوث) في اللوبي، يتصبب عرقاً، وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

ـ في الغد ترحل حافلة الصحراء إلى غدامس. تم ترتيب كل شيء بالتمام. وهناك فنادق على الطريق. والطرق رائعة.

نظر إلى وجه (جون) الأبيض، وضحك.

تناولا الغداء، ثم العشاء، في شرفة الفندق؛ وتمشيا في البلدة، وشاهدا حارات البازار الضيقة والأهالي وهم جلوس على مصاطب أمام بيوتهم، يشربون الشاي. البحر هادئ، مثل بساط، ورياح الصحراء الساخنة ـ القبلية ـ تهب من جهة الصحراء الكبرى، وتحت أقدامهما تنسحق الرمال والحصى الصغير. يمر عليهم زنوج وجوههم عفية حمر الشفاه وهم يمتطون الجياد، وتلتمع خناجرهم في أشعة الشمس.

كانت الحافلة في انتظارهما في الصباح التالي. كانت كبيرة واسعة، وبها غرفة طعام، وبار، وراديو. جلس (جون) إلى البار. تصدح من الراديو موسيقى الفالس. الطريق محفوفة بالنخيل، والإبل تقطعها بين فينة وأخرى، يرعاها أصحاب الجلاليب البيضاء، الذين يرتدون نظارات شمسية.

منازل مربعة صغيرة، تزينها رايات زاهية الألوان، فوق

التلال الرمادية. تسحق إطارات الحافلة الرمال. الأراضي هنا مسطحة مستوية. والسماء من فوقها ساخنة مصفرة، والشمس البرتقالية في كبدها مثل شعلة متوهجة. تظهر بين حين وآخر واحات ونخيل وآبار بعيدة عند الأفق ـ وهناك، فندق «فتى مرجانة» حاضراً كخيال في هذا الجو المحرق. ومن بعيد، تتبدى صخور الجبل الوعرة. وكان الحرارة العالية سيل ينهمر من فوقه على تلك الصحراء، لتذوب كل المرئيات في الرمال العطشى. يرون بين برهة وأخرى تلالاً غريبة الهيئة على جانب الطريق، أو رقعة مياه ـ وكأنها جزيرة مائية في بحر من الرمال.

تمر عليهم إبل المهري ـ النحيفة التي يحلو ركوبها ـ وفي عينيها خوف من الصحراء الكبرى. يقف رجال ملثمون عند أطراف الواحات، بينما تصدح موسيقى الفالس من الراديو.

ثم حلّ الليل. واختفت الشمس، فجأة ومن دون سابق إنذار. النجوم في أبراجها فوق الصحراء. توقفت الحافلة أمام فندق صغير. وكان (جون) منهكاً جداً، فرقد في الفراش من فوره، وكان آخر ما رآه عبر النافذة هو ظلال النخيل الطويلة وطفلة تغطي وجهها، وتنظر في خوف تجاهه. . . هذا الغريب.

بزغت شمس النهار، وسرعان ما كانت عالقة في السماء فوق الرمال. وفقو التلال، قبع رجال الشرطة الصحراويون يراقبون بغير اهتمام الحافلة التي تقطع طريقها في تؤدة. وتحلق في السماء طائرة حكومية، صفراء بدت وكأنها لا تتحرك. رمقها (جون)، وتذكر البحر المتوسط، ذلك البحر الذي يفصل بين عالمين، ويوحد بينهما. أما هناك في السماء، فقد كان الطيار ينظر إلى الحافلة، فيتذكر الرياح التي تهب عند كل منتصف

نهار، ويفكر في الحكومة الليبية، التي أرسلته إلى واحة قصية لمجرد أن بها شيخ عليل بحاجة إلى دواء.

وهناك، في الكاستيلو، ذلك البناء القديم على الساحل، تفكر الحكومة في الشيخ العليل، وفي الطيار، وفي الحافلة التي تقطع طريقها إلى غدامس.

كثيرة هي مشاغل الحكومة الليبية: فالتيفوس يتفشى في مناطق الصحراء التونسية. وقوافل الحجيج تقترب من الحدود. ورجال الطوارق يعفون شعر رؤوسهم، فيتحولون إلى موائل مثالية للقمل الذي ينشر مرض التيفوس. على الحكومة أن تهتم لك شيء: كيف تقنع رجال الطوارق بقص شعرهم، وكيف تمنع زواج الأطفال في الواحات، وكيف تستخرج المياه من رمال الصحاري الجافة.

تراكمت الأوراق الرسمية فوق المكاتب الحكومية، والحكمة محيطة بكل شيء: أن هناك امرأة في واحة مصراتة أنجبت طفلاً غير شرعي وترغب في أن تكسبه صفة شرعية، وأن الزنوج من أواسط أفريقيا يرغبون في استيطان المنطقة الواقعة عند بئر على الحدود مع مصر، وأن وباء التراخوما ظهر في الواحات القصية، وما أدراك ما التراخوما... لعنة أفريقيا.

وتعرف الحكومة بأمر الأناس البيض والسمر والسود والصفر في الصحراء، ويأمر الشركة الأمريكية التي ترغب في تصوير فيلم فيها. وتعرف (جون رولاند)، المسافر في حافلة عبر الصحاري، وتعرف أن اسمه الحقيقي هو الأمير عبد الكريم. كل هذا تعرفه الحكومة، وكذلك يعرف موظف البرقيات في

غدامس، وضباط الحامية، وحمالي الحقائب في الفنادق، أن عبد الكريم، الأمير العثمانلي، مسافر إلى غدامس، وأن الحكومة تعرفه، وتحترم سكوته.

كل هذا تعرفه الحكومة، كل ما يجري في واحات ليبيا. ولكنها لا تعرف أي شيء عما يجري في فيينا، ولا تهتم.

فمن غير الممكن أن تهتم الحكومة أبداً لأمر سيدة اشترت مجلداً ضخماً عنوانه «أعاجيب الصحراء»، من متجر كبير في جاربين، وان تلك السيدة جلست بعد ذلك في غرفة المكتب ذات النوافذ المقوسة بمنزلها، وقد انكبت على ذلك الأطلس، وأصبعها يمر على الطريق من طرابلس إلى صخور الجبل، وواحة نابلس، وقلعة تغوتا. عكفت السيدة باهتمام على الأطلس إلى أن عثرت بإصبعها على غدامس، لؤلؤة الصحراء. ولاحقاً، تصفحت السيدة الكتاب، بينما قبعت ورقة تلغراف مجعدة ممزقة في سلة المهملات.

لم تكن الحكومة الليبية تعرف هذا، ولم تكن لتهتم له، وكذلك (جون رولاند)؛ لم يكن يعرف. جلس إلى جوار الراديو في بار الحافلة. تهب رياح جافة على النوافذ، ودوامات رملية صغيرة تدور وسط هواء الصحراء، بينما سكن قرص الشمس الطاغي وسط السماء المصفرة. ذات زمن، كانت الكتائب العثمانية تقاتل هنا وسط وحشة الصحراء، ولكن من الأفضل له أن ينسى، فالصخور من حوله ميتة صامتة، وتخيل غدامس تبدو في الأفق مثل طحالب خضراء، تمد سعافها إلى السماء المصفرة في توسل.

دارت الحافلة في طريقها من حول بئر قديمة، وتوقفت. وظهر رجل ملثم الوجه ضاحك العينين من فتحة في الجدار، وأخذ حقائبهم. تبعه (جون)، ومن ورائه (سام). نما النخيل حول إحدى الساحات. وفي المنتصف منزل عريض غير مرتفع، لونه بين الأحمر والوردي، وتصميمه من الخارج سلسل جميل: فندق عين الفرس.

دخل (جون) الفندق، وأخذ الخادم الحقائب إلى غرفتيهما. وبينما مر (جون) على مكتب الاستقبال، سأله الموظف:

ـ السيد. (جون رولاند)؟

أومأ (جون) برأسه مندهشاً.

ـ تلغراف، سيدي.

دسه في جيبه، وتوجه إلى الحديقة الصغيرة، التي تفوح رائحة النار من أرضها، في ظل هذه الحرارة المستعرة ظهراً.

«لست سوى امرأة، لا ترغب في أن تحكم الرجال. زاد».

طوى (جون) التلغراف، وغادر الحديقة. الغرف صفراء، بلون الرمال. هناك على البعد مدينة اسمها فيينا، بها سيدة اسمها (زاد)، ولكن كل شيء بعيد مشوش... مثل حفنة رمال تتلاعب بها رياح الصحراء.

الفصل الثاني والعشرون

كان الدكتور (كيرتس) يقوم بجولته المعتادة في عنابر المصحة. كل شيء على ما يرام: سيدات رومانيات بدينات جالسات في قاعة الترفيه يلعبن البريدج؛ ومؤلف عصبي يقلب صفحات الجرائد وهو يشتكي من الصداع؛ مرضى عجائز في الشرفة، ويتجادلون بحماس حول الشيزوفرينيا ومرض السكري؛ وفي الحديقة، يجلس مرضى الاكتئاب على المصاطب الرخامية، يتنقارون معه حول الانتحار. ابتسم لهم (كيرتس) في ود وتفهم. وأمر بجلسات تدليك بالخل لمرضى الاكتئاب، ووجبات حمية جديدة للحالات العصبية. أما للسيدات اللاتي تعاني من الاكتئاب، فأمر بفقرات ترفيهية، ومرافقة رجال لهن. يفعل ذلك على مدار سنوات والنتائج جيدة. فالنساء مثل الأطفال، والفارق أن التعامل معهن أسهل من الأطفال. ولأنه إخصائي أعصاب خبير، فقد مرت عليه حالات لا حصر لها؛ وعرف أن بوسعه السيطرة على أي امرأة، وعرف أيضاً أن ليس كل امرأة تستحق العناء.

إنتهى الدكتور (كيرتس) من جولته، وعاد إلى مكتبه. أوه، أجل، يمكن للمرء أن يحظى بأي امرأة. الأمر أشبه بمعادلة

رياضية تعددت عواملها المجهولة. جلس (كيرتس) إلى مكتبه، وتحدث في هاتفه إلى ممرضة:

ـ آنستي، أنا الآن مشغول ببحث علمي وأرجو ألا يزعجني أحد.

جلس، ووضع ساقاً فوق الأخرى، وأشعل سيجارة. أما بحثه، فلم يكون سوى امرأة اسمها (زاد).

«يالها من امرأة جميلة، وإني لأرغبها». اختلجت أطراف أصابعه في لذة. يعرف من خبرته كإخصائي أعصاب وعلم نفس أن هناك مشكلة نمت بذورها في زواج (هسه). و(هسه) نفسه لا يعرف ذلك، بالطبع. فالزوج آخر من يعلم. ولكن (كيرتس) شعر بوجود تلك الأزمة في العلاقة الزوجية من علامات لاحظها في حياتهما اليومية. من إيماءة رأس (زاد)، ومن ابتساماتها التي تكتمها، ومن اختلاجة أجفانها ـ ومن ذلك أدرك (كيرتس) علامات خفية على صراع يعتمل في نفسها. رجل آخر؟ هز (كيرتس) رأسه ليطرد الفكرة. فلا وجود لأي رجل آخر بالقرب من (زاد). لذلك قال لنفسه في اقتناع: «لقد أصابها الملل وحسب. هي تتوق إلى مغامرة، ولكنها لا تعرف ذلك».

التقط (كيرتس) سماعة الهاتف. واتصل برقم ثماني مرات، وفي كل مرة كان يكتفي بابتسامة للطرف الآخر الذي يرد عليه، ويكرر نفس الجملة:

ـ عزيزي، سوف أقيم حفلة صغيرة في يوم السبت. لا، لا توجد مناسبة. سيحضرها (هسه) و(ساكس) و(ماتوشيك). أجل، لا بد أن تشرفنا الفراو كذلك. أجل، سترة العشاء. في انتظاركم.

وفي العاشرة والنصف من ليل السبت، ظهرت (زاد) في شقة (كيرتس) المزدانة بالأضواء في ميدان راتهاوس. إلى جوارها (هسه)، بياقته المنشاة، وقميصه المنشى بارز من سترته. لفت الأثاث الفاخر نظر (زاد)، وكذلك الخزانة الممتلئة بزجاجات الشراب.

كان دخان السجائر يعبق الصالة الكبيرة، فصبغ وجوه الضيوف بغرابة غامضة بالرغم من قوة الإضاءة في المكان. تحوم الكلمات في الأجواء مثل طيور رمادية صغيرة. صاح (كيرتس):

ـ لنشرب نخباً.

فتناول (هسه) كأسه. كانت السيدات جالسات في مقاعد وثيرة، عاريات الأكتاف، ملتمعات العيون. نظرت (زاد) إلى المرآة: وجهها أيضاً مصبوغ، عارية الكتفين، متاحة للناظرين. ولكن لا شيء يميزها عن بقية السيدات في المكان، واللاتي حضرن بصحبة أزواجهن، ويتناولن الكوكتيل.

يقف الرجال مثل تماثيل والكؤوس في أيديهم. يبدو كلامهم غير حقيقي، أجنبي، شبحي. هنالك سيدة حادة الملامح، مقطبة الحاجبين، وكأنها تتألم، تجلس في ركن وتتحدث عن المسرح، وكأنها تحكي أسراراً.

ـ كان مبالغاً فيه. هل شاهدتم العرض؟

أجابها شاب:

ـ كلا، ولكنه مأخوذة عن رواية. هل قرأتها؟

ـ كلا.

لم تتيقن (زاد) مما إذا كانا يتحدثان إلى بعضهما وحدهما أم لا. تخيلت أن هذا الجمع مثل جماعة سرية تمارس طقوساً سحرية قديمة. لحركاتهم دلالة غامضة. يجرعون كؤوسهم في صمت، ثم يسبحون في سحابة من تبغ، وكأنهم ظلال في مسرح الظل. وأحياناً ما يسكتون جميعاً في ذات اللحظة، فينظرون إلى بعضهم، وكأنهم متآمرون في إجتماع ليلي سري.

تحدث رجل صلعته كبيرة، وهو يشير بإصبعه ليشدد على أهمية ما يقول:

ـ البورصة. نبض الإقتصاد، وترمومتر الحياة العامة. تلك تجربة لا بد من خوضها. في باريس أو في لندن.

سكت، وإصبعه لا يزال في الهواء. فلم يكن أحد ينصت إليه.

«بالفعل»، لم يسمع أحد ردها الخجول، وهي تنهض لتجلس في ركن. كانت الخادمات يتجولن بزيهن البيض ليوزعن الشطائر الصغيرة، ذات الأشكال والألوان المختلفة، فوق الصواني مثل قطع فسيفساء. تسلت (زاد) بتناول واحدة، بينما كان طبيب جالس إلى جوارها يحدثها عن جنيف. كان ينظر حوله كمن خرج من معركة للتو منتصراً. علق أحدهم على كلامه:

ـ سويسرا جميلة في الشتاء فقط.

ـ أتعرفين سان موريتز أو أروسا؟ كنت أقيم في فندق شوجين في العام الماضي؟

ـ كلا.

شعرت بخجل لأنها لم تقم من قبل في ذاك الفندق.

ـ أنا أخاف الثلج. البرد رسول الموت.

نظرت إليها عينان بشفقة من وسط الدخان. أحضروا وعاءً بلورياً كبيراً ممتلئ بشراب ـ ذكرها بالمرجل. وقف الضيوف من حوله، مثل سباحين ينتظرون إشارة البدء. والتمعت في يد الدكتور (كيرتس) ملعقة فضية ضخمة. واحمرت وجوه الضيوف حماساً، وعلا صوتهم.

قال أحد الجالسين، بنبرة صوت فيها أنفة:

ـ لم يتم حل مشكلة دول المتوسط بعد، ولم تقترب من حل.

بينما يصيح رجل ضئيل الجسد وهو يلمّع كأسه:

ـ سيذة اليوم ستكون في الغد سيدة الأمس.

ضحك الحضور، وهم يشعرون بخوف.

بعد شطيرتها الصغيرة الثامنة، نهضت (زاد) لتتجول في الشقة. رجل وامرأة جالسان في ركن مظلم، في أحضان بعضهما. ورجل يرتدي قميص مجعد يجلس إلى ديوان وحده، ورأسه بين يديه. سيدتان تقفان مع (هسه) في ركن آخر. حمل كأس شراب ومد يده به إلى (زاد). أومأت له في جذل.

واقترب الدكتور (كيرتس) منها.

قال لها، وكأنها لم تهرب منه في سيمرنج:

ـ كيف حالك، فراو؟

ـ بخير. شكراً.

تذكرت ما جرى في سيمرنج، فأنبها ضميرها.

تمشت مع (كيرتس)، إلى أن توقفت فجأة في غرفة فارغة، لما شاهدت لوحة حيرتها. انتبه (كيرتس)، فعرفها:

ـ لوحة أصلية لفان جوخ. ألا تشعرين بذلك السحر الجاف الكامن في خطوطها؟

لم تكن (زاد) تشعر بذلك. فهي لا ترى إلا لوحة من قماش تغطيها العديد من البقع اللونية. أومأت له في احترام.

ـ سترينها بصورة أفضل هكذا.

قالها وهو يطفئ المصابيح، تاركاً نوراً مباشراً مسلطاً على اللوحة. جلست (زاد) إلى مقعد ناعم. حدقت في اللوحة. لا شيء. لا تجد فيها إلا مللاً. الغرفة خاوية إلا من عبق العطر. أتاها صوت ضحكة عالية من الغرفة المجاورة. سألها (كيرتس) في تودد:

ـ ما الذي تشغلين به يومك، (زاد)؟

ـ أقرأ عن أفريقيا؟

أثار هذا اهتمام حقيقي لدى (كيرتس):

ـ أفريقيا؟

أن تقرأ سيدة عن أفريقيا باهتمام، فإن هذا يعني أن حياتها الزوجية غير سعيدة.

ردت عليه باهتمام:

ـ أجل. عن الصحراء الكبرى. يالها من أرض غريبة. لابد أنها جميلة. هل سبق لك أن سمعت عن غدامس؟

أجابها في اندهاش:

ـ كلا.

ـ إنها واحة في قلب الصحراء، حول بئر مقدسة اسمها عين الفرس. لا يعيش فيها سوى سبعة آلاف نسمة، ولكن لديهم طوائف كثر. فهنالك الأحرار النبلاء، والحمران البربر، والعطارة السود، والعبيد المعاتيق.

ـ حقاً، واحة بعيدة في الصحراء. هذا ما تقرأين عنه. هل لديهم نساء هناك؟

ـ أوه، أجل لديهم نساء. وهن يعشن فوق الأسطح، وأسطح جميع المنازل متلاصقة. ولا يسمح بالرجال بالصعود إلى الأسطح، كما لا يسمح للنساء بالنزول إلى الشوارع. ويمكثن في الغرف ما بين الأسطح والشوارع، وهناك يلتقي الرجال بالنساء. عالم غريب. أحياناً أشعر وكأني كنت فيه من قبل.

ـ بلاد غريبة.

كان يقف أمامها في الغرفة المعتمة. ومال عليها بغتة.

ـ (زاد). هذا ليس في غدامس وحدها. هنا أيضاً تفصل الأسطح والشوارع الناس عن بعضها. وبدرجة أشد صرامة من غدامس. لا طريق تربط بين روح وأخرى. والوحدة هي

المصير. سواءً هناك في الصحراء، أو هنا في هذه المدينة الكبيرة.

مال أكثر عليها، وهمس لها:

ـ المرأة وحيدة في فراش الزوجية، والرحالة وحيد في عالمه. ونادراً، أقول نادراً، ومثل برق المعجزة...

لم يكمل كلامه. فقد أمسك براس (زاد)، ولثم شفتيها بقبلة قوية. قاومته بشدة. ولكنه جذبها نحوه، واحتضن جسدها بيديه. أنفاسه الحارة تنهمر على عنقها.

ولكن (زاد) نجحت في أن تبعد رأسها عن صدره. ورأى (كيرتس) نيران الغضب في عينيها. وقبضت (زاد) على رقبته. وقفزت، لتركل بطنه بكل قوة بركبتها. ضاقت عيناها الغاضبتان. وأطلقت صفيراً متحفزاً، بدا مثل صيحة صقر. وغرست أسنانها في جسده. حاول (كيرتس) المفزوع أن يتملص منها. حاول يائساً إبعاد تلك المخالب التي أحكمت أسره. دار بينهما قتال شرس من دون كلمات، وسط الغرفة المعتمة المعطرة. تحولت (زاد) إلى وحش كاسر. كانت تعض ذلك الجزء الذي انغرست أسنانها فيه بقسوة حيوان بري. حتى شعرت بمذاق مالح. وذهل (كيرتس)، وقد خارت قواه.

تركته يسقط أرضاً. بينما وقفت في أنفة، وهي تمسح شفتيها بمنديلها. هناك خيط دامٍ يسيل فوق وجه (كيرتس). ألقى جسده المنهك فوق كرسي واسعٍ. محطم تماماً.

انصرفت (زاد) من دون كلمة. خرجت إلى الغرفة المضيئة، وعيناها مثل خطين رفيعين في وجهها الأبيض. هنالك كأس

كبيرة من الشراب المثلج فوق الطاولة. أمسكت بها وجرعتها مرة واحدة. أول مرة في حياتها تشرب الخمر - شعرت بآلاف الرماح النارية تخترق جسدها.

إذن تلك الأمور تحدث بالفعل - في حياة الواقع! صديق لزوجها ينظر إليها بعين الشهوة. وقفت أمام المرآة. شعرت وكأن الدنس يغلفها، وأن جسدها وروحها تنجسا به. تلف وجوه الضيوف وتدور أمام عينيها. ضحك أحدهم - فسمعت هي الضحكة في أذنيها عويل ضبع تائه في منتصف الليل. مشت، والمنديل المخضب بالدم في قبضتها.

كان (هسه) جالساً في ديوان في الغرفة المجاورة:

- من ناحية أخرى، يمكن تخدير المريض تخديراً كاملاً، ولكن الرأس عندئذ ستكون متدلية لأسفل.

أشارت إليه أن يقترب. فنهض من فوره وتبعها. لم تتفوه بكلمة. تحاذر مما قد يحدث لو أنها حكت له. كان (هسه) واقفاً، بجسده القوي الذي لن يتردد لحظة عن حمايتها. نسيت عندئذ الأمير وتلك الواحة البعيدة في الصحراء. فها هو (هسه)، هنا، زوجها. ستكون هناك عواقب وخيمة، ولكنها عاجزة عن السكوت أكثر من ذلك.

- (هسه). سيدي وتاج رأسي. صديقك الذي دعانا إلى منزله، لم يعرف يوماً أدب الضيافة. لقد تمشى بي إلى غرفة مظلمة، وهناك حاول أن يغتصبني. وأعتقد أنني مزقت أذنه. عليك أن تقتله، (هسه).

كانت تتحدث بكلمات متلاحقة لاهثة، وبصوت مبحوح.

فنظر إليها ملتاعاً ومندهشاً. شاهد الدم في المنديل:

ـ ما الذي جرى، (زاد)؟ ما هذا الدم؟

ـ مزقت أذنه. لا بد أن تقتله الآن، (هسه)... اقتله!

صوت نهم الانتقام.

وقفت في مكانها، ضعيفة وحيدة، ويداها متوترتان، وهي تردد بصوت أسكره الغضب، «اقتله، (هسه)، اقتله!».

ولكنها وجدته يبتسم لها قائلاً:

ـ مزقتي أذنه؟ يالك من فتاة شرسة!

ـ كان من الأفضل أن أمزق عنقه، ولكني مجرد امرأة. اقتله، (هسه)، فقد أساء إلي.

اتسعت ابتسامة (هسه) أكثر وأكثر. لا بد أنه قد صار سكراناً. فهو لا يصدق أن زوجته قد عضت أذن صديقه ومزقتها.

ـ سأذهب. ولكن لا تنظري لي بهذه الطريقة، فهي تخيفني.

مشى عبر غرف الشقة. وجد الغرفة المعطرة التي تتزين بلوحة فان جوخ فارغة. وفي النهاية وجد (كيرتس) في غرفة العيادة البيضاء، وقد شمر أكمامه، ويحاول أن يضمد أذنه. بادره (كيرتس) قائلاً في حرج:

ـ قطة أنجورا خربشتني.

هز (هسه) رأسه، وهو يجيبه في امتعاض:

ـ إخصائيو الأعصاب لا يعرفون شيئًا عن تضميد الجروح. اقترب، سوف أضمدها لك.

ـ تلك المرأة الشرسة التي جلبتها. لقد أفسدت أذني. كيف أستقبل المرضى الآن؟

ـ تستاهل.

كان (هسه) يداعب مقصاً جراحياً، وأردف:

ـ ما كان ينبغي لك أن تتحرش بسيدة غريبة عنك.

أجابه (كيرتس)، وكأنه مستاء:

ـ ما الذي تقصده بالتحرش؟ ما الذي قالته لك؟ لقد كنا نقف في غرفة فان جوخ، وكنت أشرح اللوحة لها. ربما كنت ثملاً قليلاً. وأثناء كلامي معها، وضعت يدي على كتفها أو ربما لامست يدي وجهها ـ لا أتذكر حقاً. ووجدتها تنقض علي فجأة ـ مثل قطة شرسة. لا أعتقد أنك تصدق أن شخصاً مثلي يمكنه أن يقدم على مثل تلك الفعلة، (هسه)، وأن يحاول أن يغوي سيدة بينما هناك في الغرفة المجاورة أكثر من عشرين شخص. عبث. حقاً... أنا وزوجات ضيوفي! عبث! لدي ما يكفيني من مريضات الهستيريا. وبالمناسبة... سوف أرسل لك في الغد حالة... سيدة بولندية تشتكي من أعصابها. ربما كانت تعاني من عصاب.

ضحك (هسه). (كيرتس) مخلوق مسالم، ولا تزال لدى (زاد) أفكار الحريم عن سلوكيات المجتمع. الشرقيون مختلفون، هكذا الأمر. شعر بأسف تجاه (كيرتس).

وفيما انشغل (هسه) بتضميد الجرح، والتحدث عن عصاب السيدة البولندية، التي عرف أنها ثرية، كانت (زاد) جالسة إلى ديوان واسع في الغرفة المجاورة، ويحدثها رجل غريب الملامح عن الكتابة الإنجليزية الحديثة:

ـ كتابات جالزورثي تحمل مآسي الحياة وعبثيتها.

ـ بالفعل.

كانت ترقب الباب المغلق. لا بد أن هناك شيء مروع يجري الآن خلف ذاك الباب. ولكن، لماذا لا تسمع أي صياح؟ ربما خنقه (هسه)، أو حطم رأسه بمطرقة، فخرّ الخسيس أرضاً من دون صوت. ستسمع في أي لحظة الآن صيحة ملتاعة. أو؟ توقف قلب (زاد) عن النبض ـ أيكون الآخر قد انتصر؟ والآن (هسه) ممد في بركة دماء بالغرفة المعطرة؟ ولكن هذا مستحيل. (هسه) أقوى من (كيرتس)، وهو بالتأكيد أشجع منه. كما أن الله يؤيده حتماً.

ـ صار الأدب الإنجليزي بدايةً من أوسكار وايلد أقرب إلى الواقع، ويحمل معنى أعمق. يسعى القارئ إلى الواقعية، وبالتالي يفضل الأسلوب التقريري الذي يميل إلى السيرة الذاتية.

ـ أوه!

رأت (هسه) و(كيرتس) واقفان لدى الباب، جنباً لجنب. وجانب وجه (كيرتس) الأيسر مضمد. ضحك ضحكة محرجة، وهو يوجه كلامه للحضور:

ـ إصابة بسيطة. انزلقت وكأس الشامبانيا في يدي، فتحطم

وأصاب أذني. لا شيء خطير. وقد ساعدني زميلي (هسه) في تضميد الجرح.

نهضت (زاد) واتجهت نحوهما. فشعر (كيرتس) بأنه تافه وضيع. ووقف (هسه) أمامها؛ وقادها من ذراعها إلى النافذة. نظرت إليه وقالت له بشفاه ترتعش:

ـ أنت لم تقتله، (هسه)؟ سمحت له بالإساءة لزوجتك؟ أنت زوجي، (هسه). هل علي أن أنتقم لنفسي بيديّ؟

أجابها مداعباً بنبرة غير مبالية:

ـ ولكنكِ انتقمتي بالفعل، طفلتي. أنت امرأة صالحة، وأنا أثق بكِ. ولكننا هنا لسنا في آسيا. فلو أني قتلت كل رجل يرغب في أن يلاطفكِ وهو في غير عقله، لصرت قاتلاً محترفاً. نحن هنا في أوروبا المتحضرة، أليس كذلك؟

التحق (كيرتس) بهما. وقال في صوت خفيض:

ـ سيدتي الموقرة. أنا آسف جداً. يبدو أني لم أكن في وعيي، وكنتي أنتِ متوترة بعض الشيء. اصفحي عني رجاءً، لقد نسيت تمامًا أنك سيدة لها اعتبارها. ونحن هنا في أوروبا نتخلى عن تحفظنا عندما نكون سكارى.

لم ترد (زاد) عليه. نظرت نحو المرآة الكبيرة: ساقاها، وذراعاها، وكتفاها العاريتان. وجهها بشفتيه الناعمتين والعيون الرمادية. كل هذا ملك (هسه)، الكافر، العاجز عن حماية زوجته. شعرت بالعار والأسى الطاغي. ما الذي تنتظره عندما يكون زوجها المتحضر غير ممانع لأن تكون فريسة لغريب؟

ـ في الحفلة القادمة، سأغطي رأسي وأخفي وجهي. ربما أكون في أمان عندئذ. هيا بنا، (هسه).

خرجا. ورافقهما (كيرتس) إلى الباب. يقول لنفسه: «يبدو أن نطاق خبرتي النفسية محصور بأوروبا فقط، ومعرفتي تنتهي عند بوابات اسطنبول.

دلف الإثنان إلى السيارة، وانطلقا من دون كلام.

ـ مزاجكِ عصبي جداً، (زاد)، أليس كذلك؟ أتذكرين حينما لطمتني على أذني؟

ـ رأيك أنه كان علي أن أضاجع صديقك؟

ـ ولكن يا طفلتي، لم يعد الإنسان المتحضر يعض.

لم ترد (زاد) عليه. شعرت الآن أن (هسه) غريب وبعيد جداً عنها. التعريشات الخضراء حول المنتزه مثل أشباح تحيط بظلمة مخيفة. تصطف بنايات فخمة رحبة على جانبي شارع رينج الواسع. وأولئك الذين يقطنونها، رجالاً ونساء، أغراب بلا إحساس أو عقل.

تذكرت (زاد) والدها، الذي كان لن يتورع عن طعن أي عين غريبة تجرؤ على النظر إليها، وقطع أي شفتين تسترقان قبلة من شفتيها.

لامست يد (هسه) ذراعها:

ـ هل أنتِ غاضبة، (زاد)؟ لن نذهب إلى منزل (كيرتس) مرة أخرى، إن رغبتي في ذلك.

ـ كلا.

تخجل من أن يكون هذا هو زوجها، وتخجل من عالم مثل هذا تعيش فيه، وأسلوب حياة لا تفهمه. تعرف أن (هسه) ليس جباناً. يداه قويتان، وعيناه جريئتان. فلماذا لم يقتل ذاك العدو، أو حتى يلقنه درساً؟ لا يمكنه أن يضحك لو عرف أنها تخونه، ومع هذا لم ينتقم لها. هو ببساطة غير راغب في ذلك. ولا حماس لديه يدفعه إلى تمزيق ذلك العدو وأن يرى دماءه، تتدفق من عينيه ـ تلك العينين اللتين اشتهيتا سيدة متزوجة.

* * *

نظرت (زاد) إلى زوجها بعينين تقاوم النوم. ها هو راقد في الفراش، ينظر إليها بإحساس بالذنب، ولكن من دون فهم.

ـ لا تغضبي مني، (زاد). لن ندعو (كيرتس) إلى أي مناسبة بعد الآن. الأمر بالفعل مثير للاشمئزاز ـ أن يحتضن المرء زوجة غيره. وأنا سعيد لدفاعك عن نفسك. هذا درس له. يا فتاتي الشجاعة الشرسة.

ضحك (هسه)، وهو راضٍ عن نفسه، وأغلق عيناه.

ولكن (زاد) بقت في الفراش جالسة، وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها، تحدق في مصباح الفراش. لم تعد تفكر في (كيرتس). ربما كان هناك كثيرون مثله. أحست بألم شديد في صدرها. أسندت رأسها إلى ركبتيها، وغرقت في أفكارها الساخطة. فكرت في الرجال غير المتحضرين، مع أنهم يعرفون معنى كلمة «شرف» تمام المعرفة. وفكرت في (ماريون)، التي لم تعد غريبة عليها الآن. وفكرت في والدها، وفي واحة غدامس،

وفي هذا العالم الغريب التي اضطرت للعيش فيه، والذي لا تفهمه.

لم يعد الألم يحتمل. تفصد العرق عن جبينها. لم تعد في عقلها سوى فكرة وحيدة. ليس أباها، أو الأمير، أو (ماريون) والعالم الغريب من حولها.

جلست في الفراش، وفمها شبه مفتوح، وعيناها الخائفتان تحملقان في المصباح. تأوهت في ضعف، مثل طفلة، والفكرة الوحيدة تحوم في أرجاء عقلها، تعذبها... تعذبها. بقت على حالها؛ جالسة تتألم. كان (هسه) نائماً إلى جوارها. والمصباح مشتعل، وهي تفكر في الفكرة ذاتها مراراً. ظلت تتساءل حتى الفجر عما إذا كان في صالحها أن تنجب من (هسه) أطفالاً.

غفت. ولم تكن قد حلت عقدة ذاك اللغز، ولكنها راحت في النوم وهي مبتسمة...

تنظر إلى أول شعاع لشمس الصباح يسقط على السجادة.

الفصل الثالث والعشرون

كم هي مترابطة مصائرنا نحن البشر. وبطريقة غامضة ملغزة. فتجد سلسلة أحداث تربط بين محيطات وقارات، وتوحد بين بشر. باشا عجوز ينجح، بعينين منهكتين، في فك رموز تصميمات منقوشة على سجاد قديم، فيتحدث بكلمات قليلة، تتغير بها حياة إنسان اسمه (جون رولاند)، يعيش في نيويورك، وتنقلب رأساً على عقب.

طبيب من فيينا يرى عنق امرأة جميلة، فتفقد تلك المرأة إيمانها بالعالم الغربي كله. وتسير الأحداث في مجراها، لتكون جزءًا من قدر غريب. الموتى والأحياء، الماضي والحاضر، يتراقصان ويتناطحان، ويندمج كلاً منهما في الآخر، لينصهرا في نفس المصير، ويحددا أفعال وأفكار الخلائق.

لا شيء يفنى في عالم الأفكار الذي يتخذ مداره حول الأرض؛ فتلك الأفكار التي سادت منذ مئات السنين لا تنفك حية، لتعيش حياةً من خيال وسط غبار المكتبات، فوق أوراق مصفرة لمخطوطات عتيقة. ومن ثم تتحول إلى أفعال، وحوادث تشهدها الدنيا ـ وهكذا تستمر الرقصة المتوارية، حول العالم،

تلفه وتحيط به، مثلما يحيط خاتم الزفاف بإصبع العروس.

منذ مئات السنين، انطلق القائد الشجاع أسامة بن المنقذ عبر حقول مصر وقرى فلسطين. ورفع راية الفتوحات الإسلامية على مدار عقود، في معارك ضد الكفار الذين قدموا من ما وراء البحر، ليهددوا المسلمين. فقاتل فرسان الفرنجة على بوابات القدس، المدينة المقدسة. قاتلهم في إديسا، وفي عكا، وفي كل أرض واجه فيها الهلال الصليب في الأرض المقدسة، يمتطي صهوة جواده، فوق سرجه المميز، ويعبر الأرض الرحبة وهو يصيح: «باسم الله! ها أنا ذا أسامة بن المنقذ! أين أنتم يا فرسان الفرنجة؟!». ولكن عندما أبرم القائد صلاح الدين الأيوبي السلام مع الفرنجة، ارتحل المحارب أسامة، بأمر من الحاكم، عبر قلاعهم وبلداتهم. وشاهد العادات الأجنبية، وسمع الألسنة الغريبة، وانبهر واندهش. ومرت الأعوام. وتقدم العمر بالمحارب أسامة، ونال منه التعب. فعاد إلى دمشق، حيث بلاط الحاكم. وهنالك دفن سيفه، والتقط بدلاً منه القلم، بأصابع مرتعشة بعد أن شاخت. ولأجل حاكمه وأولياء عهده دوّن سفراً عظيماً سماه «الاعتبار»، وفيه جميع مذكرات حملاته العسكرية ومعاركه، وكذلك كل ما شاهده وعرفه عن أولئك الغرباء، الفرنجة، الذين اجتازوا البحر ليقاتلوا المسلمين.

وعلى مدار عقود، كان كتابه هذا مرجعاً للفرسان العرب الذين قاتلوا الفرنجة. إلى أن طوى النسيان كتاب «الاعتبار». ومرت عليه قرون. وقبع السفر الحكيم مجهولاً وسط المكتبات المغبرة. ولم يعد أحد يتذكر المقاتل المثقف أسامة بن المنقذ. حتى قدر للمفكرين الغربيين أن يضعوا أيديهم على نسخة عتيقة

من «الاعتبار». وجاهدت أعين المفكرين المخضرمين لأجل سبر أغواره. وتم نشر الكتاب، لينهض المحارب أسامة مجدداً، من وسط أطلال الماضي، وعرف الناس ما دوّنه من وصف للحياة في بلاد الفرنجة.

كانت (زاد) تتصفح في شرود الكتاب العربي الذي عثرت عليه بالصدفة وسط محيط الكتب في المكتبة الكبرى. ابتسمت أمينة المكتبة عندما ناولتها (زاد) الكتاب. وجدت غرابة في أن ترغب فتاة جميلة مثلها في التعرف على سيرة ومذكرات محارب عربي منسي قديم.

وفي المنزل، جلست (زاد) إلى الديوان، وفتحت الكتاب. في البداية، وجدت اللغة العربية القديمة غريبة عليها. ولكنها قرأت عن رحلات الصيد، والمبارزات بين الفرسان، والوقائع الغريبة التي انبهر بها المقاتل المحنك. وتوقفت بغتة. ففي الصفحة التالية قرأت هذا العنوان: «عادات الفرنجة».

قرأت (زاد)، وهي تبتسم وتهز رأسها. «بحمد الله وشكره! كل من أتيحت له الفرصة ليتعمق في أسلوب حياة الفرنجة سيحمد الله ويثني عليه لأنه من المسلمين. وعندئذ سينظر إلى الفرنجة نظرته إلى حيوانات، لا يعرف لهم من خصال إلا كونهم مقاتلون شجعان في أرض الوغى».

«إن الفرنجة لا يعرفون حساً بالشرف ولا غيرة. وهكذا يمكن أن يحدث أن يكون أحدهم ماراً مع زوجته في الطريق فيعترضهما رجل آخر، ينتحي هذا الأخير بالمرأة جانباً ويظل يحادثها بينما زوجها يقف بعيداً وينتظر إلى أن تنتهي المرأة من

حديثها. وإذا ما طالت عليه مدة المحادثة تركها مع محادثها ومضى في طريقه».

أثار الكتاب اهتمام (زاد). وقرأت: «شهدت واقعة: كنت كلما رزت بلدة نابلس قرب القدس أقيم في دار صديقي مويس، حيث يقيم الملسمون كافة. وتطل نوافذ داره على الشارع. وقبالته منزل لتاجر نبيذ، من الفرنجة، وقد اعتاد السفر. وذات يوم عاد إلى منزله ليجد غريباً في فراشه مع زوجته. فسأله تاجر النبيذ: «ما الذي تفعله هنا؟». قال له الغريب: «كنت مسافراً، وقصدت منزلك للراحة».

«ولماذا أنت في فراشي؟»

«وجدت الفراش مهيئاً للمبيت، فرقدت فيه»

«ولكن زوجتي ترقد فيه إلى جوارك»

«حسنا، إنه فراشها أيضاً، ولا يمكنني أن أمنعها من أن ترقد في فراشها»

«بحق عقيدتي، لو أنك فعلت هذا مجدداً فسيكون بيننا شجاراً بحق!»

«وكان هذا هو أقصى ما وصل به الغضب وبلغت به الغيرة!»

أسندت (زاد) رأسها إلى ظهر الديوان، وضحكت. مجانين هؤلاء الفرنجة. شجعان في الحروب ولكنهم لا يغارون على عرضهم أبداً. مرت قرون على تلك الملحوظات التي دونها الرحالة والمقاتل الحكيم عن عادات الفرنجة ـ ولكن روح هؤلاء

الرجال لم تتغير، وكذلك عقولهم التي سمحت لهم بترك سيداتهم في الشوارع من دون حجاب. (هسه) من الفرنجة. وسينتظر واقعة أخرى حتى يتسنى له أن «يتشاجر» مع زميله الذي تجرأ وقبّل زوجته. عادت تقرأ. فلم يعد ما بين أيديها صفحات عتيقة تعود إلى زمن قديم. لم تعد كذلك أبداً.

«واقعة أخرى: ذات مرة زرت حماماً في بلدة طيروس، وأخذت غرفة مغلقة. وما أن انتهيت من حمامي، حتى وجدت خادمي يهرع إلي وهو يصيح: سيدي، هل تصدق أن هناك سيدة في هذا الحمام!. هرعت من فوري إلى القاعة الكبيرة. وبالفعل، وجدت فتاة تقف إلى جوار فارس من الفرنجة، وكان أباها».

«لم أصدق عيني، وقلت لصديقي: بحق الله! هل هذه امرأة حقاً؟ اذهب وتأكد واطمئن!»

«اقترب صديقي من الفتاة، وتأكد أمام عيني أنها امرأة. وعندئذ التفت الفارس الإفرنجي إلي قائلاً: هذه ابنتي. توفيت أمها، وليس هناك من أحد يحممها. لذلك أحضرتها إلى هنا لأحممها بنفسي».

«قلت له: فعلت الصواب، ولك الأجر»

«ولكني قلت لنفسي: انتبهوا أيها المؤمنون إلى هذا التناقض الفادح: فمن الواضح جداً أن الإفرنج يفتقرون إلى الشرف والغيرة، ولكنهم يمتازون بالشجاعة الفائقة، حتى ولو كانت تنبع من الخوف من فقدان الشرف. لعنهم الله».

أغلقت (زاد) الكتاب. منذ وقت ليس ببعيد راحت إلى

حمام لأول مرة، وكانت تشعر بخجل وغرابة، ورآها غرباء وجسدها نصف عارٍ. لا، (هسه) ليس منحلاً. ولكنه من الفرنجة، مثله مثل الفارس العجوز الذي سخر منه أسامة. عاش أجداده في سراييفو وصانوا عرض نسائهم، ولكن لم يبق شيء من هذا في روح (هسه). هو جزء من هذا العالم الذي ولد فيه، ويريد أن ينتمي إليه. ليس ذنبه أن (زاد) تفهم مقصد المحارب أسامة وتسخر من الفرنجة، الذين يتركون زوجاتهم يتحدثون مع غرباء.

كانت (زاد) ساخطة. هناك فجوة هائلة بين عالمها وعالم (هسه)، وليس هناك من جسر رابط. ليس ذنب (هسه) أنه مثل كل من هم حوله، وليس من العدل أن تعاقبه على ذلك.

تنهدت. لا، لا يمكن أن يكون (هسه) أباً مناسبًا لأطفالها.

رمقت كتاب «الاعتبار». وتخيلت أنها تمشي إلى المستقبل بصحبة المحارب أسامة، ووالدها، والأمير العثماني، الذي هو الآن في واحة صحراوية ويسمي نفسه (جون رولاند). مجاز غير حقيقي، ذلك الذي تراه أمامها؛ رقص أبدي يخترق القرون ويلف العالم، مثل خاتم زفاف في إصبع عروس.

* * *

غريب ذلك الارتباط بين أفكارنا وأحلامنا. يتجسد ذلك في خمس صور:

في مقهى وطن في برلين، يجلس الباشا العجوز، وأمامه قدح القهوة تروح منه الحرارة تدريجياً. يتأمل بعينين منهكتين

البروفيسور الهندي الجالس وراء المنصة، فيتذكر الأمير، الذي كان أضعف من أن يسترد عروسه الموعودة، وتذكر ابنته، التي تعيش مع كافر ولم تحمل منه بعد.

فوق مقعد منخفض في عيادته، يجلس الدكتور (هسه). تشتكي تلك السيدة البولندية الثرية أمامه من العصاب. فيستخدم نقاط كيليان في علاجها، وهو يفكر في (زاد)، الجالسة في الغرفة المجاورة، تقرأ كتاباً عربياً يجهل محتواه، وتضحك بصوت عال. يفكر فيها بسعادة، وشيء من القلق، لأن عمرها واحد وعشرون عاماً ولا بد من أن تتعلم العادات والإتيكيت الأوروبي.

في شرفة مقهى رينج، تجلس (ماريون)، وقد لوحت الشمس وجهها الجميل، وفي عينيها أنفة. تتأمل أوراق الشجر، التي اصفرت استعداداً لمفارقة أغصانها، فتتذكر أن الصيف قد رحل؛ وتتذكر (فريتز)، الذي رحل بدوره. تفكر في حياتها الخربة، وفي (هسه)، الذي صار معه زوجة شابة جميلة التقتها في سيمرنج يوم أن اقتحم ذلك المجنون غرفتها، مدعياً أنه أمير، ويريدها أن تأتي معه. ابتسمت في أسى، وهي تهز رأسها، وتقول لنفسها أن المجنون الذي يتخيل نفسه أميراً أسعد منها، بجمالها وشبابها، وحياتها الخربة.

وعلى بعد بضعة شوارع، في شارع آم جاربن، يجلس الدكتور (كيرتس) في غرفة البريدج داخل أحد المقاهي. الغرفة كلها دخان. ووجوه من فيها شاحبة، والسيدات متبرجات. يضع الدكتور كروته فوق الطاولة، ويميل على الدكتور (ساكس):

ـ لدى الزميل (هسه) زوجة جميلة.

ـ جميلة جداً.

ـ ولكنها غريبة للغاية. أنا لا أفهم (هسه). لا يمكنك أن تتحدث عن أي شيء مع تلك المرأة. ليست سوى جدار أصم. من عالم آخر! يا زميلي، هؤلاء الآسيويون يختلفون عنا تماماً. وليس بيدنا شيء، ولا ينفع هنا التعليم، ولا أي شيء آخر. ألست محقاً؟ عندما تجلس تلك المرأة في مكانها وتكتفي بالتأمل فيما حولها، أشعر بالشفقة على (هسه). لا يمكن لأحد أن يتوقع ما يمكن أن يخرج من أعماق مثل تلك العقلية الغريبة. ولا فارق هنا بين أن تتزوج مثلها، أو أن تتزوج امرأة من الإسكيمو أو الزنوج. مكان مثلها هو حرملك باشا أو أمير. بالمناسبة، كانت لدي حالة أول أمس. في سيمرنج. شخص مصاب بالماناخوليا ويصر على أنه أمير تركي. لا بد أن حالة مثل هذه تثير اهتمام زوجه الدكتور (هسه). ههههه!.

بينما كان الدكتور (كيرتس) يضحك، كان (جون رولاند) جالساً خارج بوابات غدامس، وهو لا يدري مطلقاً أن هناك أشخاص في بلاد بعيدة، يأتون على سيرته ويسخرون منه.

كان جالساً فوق صخرة منخفضة. حصباء الصحراء ممتدة أمامه، حزينة وحيدة. تهب الرياح الساخنة فوق الأحجار الميتة، مثل أنفاس عملاق شبحي. وأمامه ينتصب هيكل حجري يسمونه الأصنام، وكأنه بوابة أسطورية تقود إلى الصحراء. عتيق، متداعٍ، لغز، وكأن وحوش السايكلوب هي من صنعته. على يمينه خيام متواضعة لقبيلة من الطوارق. رجال نحاف، يلتحفون

العباءات وينتقبون، جالسون عند مداخل الخيام، وينظرون إلى هذا الأجنبي في تكبر ولامبالاة. تفوح رائحة النار من الأرض الساخنة. ومن بعيد، تعبر قافلة متجهة إلى الحدود التونسية. يرى الإبل من مكانه مثل رمال تطيرها الرياح. إنهم يأتون بالتبر من تمبكتو، والعطور من الغاط، والعاج والريش الطويل من أقصى الجنوب.

خرجت امرأة نحيفة، غير محجبة، من إحدى الخيام وقصدت (رولاند). تنظر عيناها الواسعتان الداكنتان إلى بعيد، حيث الأرض المنبسطة بالرمال والأحجار. تنهدت بعمق، قبل أن تقول:

ـ المكان جميل هنا يا غريب. ما من بقعة أخرى في العالم أجمل من هذه البقعة.

ـ أجل.

رفع عينيه إلى سمراء الوجه ذات الصدر العاري:

ـ أنتِ سيدة من الطوارق، حيث تسود المرأة الرجل؟

ـ منذ قرون، احتدم شجار في قبيلتنا بين رجالها ونسائها. فرحلت النساء عن الرجال، ومعهن الأسلحة والإبل. وتبعهن الرجال. ودارت معركة طاحنة، انتصرنا نحن فيها، النساء. ومنذ ذلك الحين صرنا نحكم، وكدلالة على سيادتنا فرضنا عليهم الحجاب.

سكتت المرأة لحظات، وعلى شفتيها ابتسامة ظافرة، قبل أن تردف:

ـ هذا ما نحكيه للأجانب. ولكنها كذبة. فلم تكن هناك أي معارك منذ قرون. الأمر فحسب أن الرجل يحتاج إلى حماية المرأة. فالرجل من دونها مسكين بلا غطاء. من دونها يتوه في الصحراء. والرجل يسرق ويقتل، لذلك يتعمد ألا يرى أحد وجهه. وليس له من سند سوى امرأته، وهكذا يكون الشرف لها.

ـ بالفعل. الرجل من دون المرأة مسكين بلا غطاء.

نهض ومشى عبر الحصباء، والرياح الساخنة تلسع ظهره. الدروب في الواحة ضيقة وتتقاطع، كما في المقبرة. الأسقف فوقها في تشكيلات عشوائية. تمشي أمامه زنجيات على خدودهن خطوط زرقاء، لم تتخلصن من مشية الرق والعبودية بعد.

وعند بئر عين الفرس المربعة، تتراقص أشجار النخيل. ويجلس عجوز منهك العينين عند الساعة المائية. قال لجون:

ـ عين الفرس. البئر المقدسة، وسميت بهذا الاسم تيمناً بفرس النبي. وهذه الساعة المائية هنا منذ آلاف السنين، ولم تخطئ تقدير الوقت أبداً.

أصابت (جون) رهبة... فهنا، عند نهاية العالم، يقاس الزمن بدقة منذ قرون.

عاد إلى غرفته في الفندق. وكان (سام دوث) قد نام بالفعل. تبادل الآلة الكاتبة (جون) النظرات، وكأنها وحش شرس تنتشر أسنانه في أربعة صفوف. خلع (جون) ملابسه. وحل الظلام. وخيم السكون الرهيب على الواحة. حدق (جون)

بعينين واسعتين في الظلام. هو رحالة بين عالمين، يحركه قلقه للأبد، وكأنه رجل من الطوارق يجوب الصحراء، ليسرق ويقتل.

بغتةً... سمع صوتاً. خافتاً في البداية، ثم يعلو ويعلو. إنها أصوات. غريبة مخيفة. تأتي من الصحراء، وكأن شياطينها تحاول أن تجتاز بوابة الفندق بالقوة. اعتدل (جون) في فراشه. تحول العويل البعيد إلى عواء رهيب.

قال لنفسه، «إنه الرل، شبح الصحراء، بصوته المخيف الذي يتولد عن البرودة المفاجئة لملايين من حبات الرمال». سمع عن شياطين الصحراء الرهيبة وهو طفل. حكايات مربيته، أو من أمه - لا يتذكر. في الزمن القديم، قبل أن يبعث النبي إلى العالم، كانت آلهة الصحراء تحكمها. وعندما سيطر أتباع الرسول على العالم، هربت آلهة الصحراء، وتحولت إلى شياطين. وصارت كلمات الرسول هي التي تحكم العالم، حتى منتصف الليل. ومن ثم تنهض الشياطين القديمة. لتعوي وتصرخ، وتنسل عبر الأراضي، وتهاجم الغرباء، وتضل الرحالة، حتى آذان الفجر. وعندئذ تهرب الشياطين إلى أوكارها.

توتر (جون). وقفز عن فراشه ليرتدي ملابسه بسرعة. وتحول فراغ الغرفة إلى كيان شرس يتوق إلى الفكاك منه. هنالك شيء ما غير مرئي، جاثم وعتيق، يدفعه دفعاً إلى تلك الأصوات الليلية السحرية.

غادر الفندق. القمر حاضر بقوة فوق النخيل، ليصنع لها خيالات عملاقة. لهث (جون)، وهو يركض عبر الواحة الخالية،

ماراً على البئر المقدسة، وعلى سوق العبيد. كان يركض على غير هدى، لا يعرف لذلك سبباً ولا يدري إلى أين يذهب، حتى وجد نفسه في الساحة المقمرة مرة أخرى، أمام الساعة المائية العتيقة. على يمينه الجامع الكبير. ثبت (جون) بلا حراك. وصمتت أصوات الشياطين البعيدة. مسح جبهته بيده. بوابة المسجد مفتوحة، وكأنها تقود إلى الخلود. توجه إليها، وعبر من خلالها، وكأن هناك قوة يجهلها هي التي تحركه.

تنير المسجدَ مصابيحُ زيتيةٌ صغيرة. أعمدته أشبه بعبيد مُسِخَت أحجارًا. ارتعد (جون). لم يدخل بيت الله منذ اليوم الذي هجر فيه بلاده.

خلع حذاءه.

هنالك عجوز جالس فوق سجادة تصميمها بربري، يقرأ في المصحف. يهتز جسده أسفل ضوء المصابيح الزيتية المرتعش، مثل مومياء راقصة.

نهضت المومياء وانحنت تحييه.

ـ أريد أن أصلي.

أشار له العجوز إلى القبلة:

ـ هذا هو اتجاه الصلاة. لو صليت سأصلي معك، فأنا إمام هذا الجامع.

لم يسمعه (جون). فقد سجد. ما إن لامست جبهته الأرض حتى تبدد كل الوجود من حوله، راح طي النسيان. همست شفتاه بكلمات كاد ينساها. بقي يصلي لأكثر من ساعة. يعرف

أن الزمن هنا يُقاس بالقرون. بعدها جلس فوق السجادة، ينظر إلى الضوء المتراقص في شرود، وقد ذابت روحه في سكينة الجامع العتيق.

تأمله الشيخ في فضول. هو بدوره انتهى من صلاته، وقد استقر المصحف فوق ركبتيه، ولكنه لا يتلو منه.

ـ سلام عليك يا سمو الأمير.

إقشعرَّ بدنه. أيحلم؟ أم هو متيقظ؟ نهض متوتراً:

ـ تعرف من أنا؟

ـ هذه بلدة صغيرة، يا سمو الأمير. ونعرف كل شيء عن الأغراب الذين يعبرون الصحراء إلينا في عربات الشيطان تلك. كنت سآتي إليك في الصباح لأحييك وأذكّرك. فقد كنت هنا منذ زمن بعيد، ولم تكن تصلي. ولكن الله رحم سني وقدّر أن تسوقك قدماك إلى هنا. جل علاه.

نظر (جون) في عيني الإمام:

ـ قديماً، كانت هذه الواحة وما حولها ملك لأجدادي. وها أنا ذا الآن؛ أسجد لله وحيداً فوق التراب. تخلى العالم عني، فأضحيت مثل شظية خشب طارت عن أطلال منزلها الخرب.

سكت الإمام ولم يعقب. عيناه كسيرتان، وأظافره التي صبغتها الحناء تلتمع في الضوء الزيتي.

اعترى الخوف (جون):

ـ طريد أنا، يفتقر إلى السكينة. غريب أنا في عالم غريب.

رفع العجوز رأسه شيباء اللحية، وقال له:

ـ (عبد الكريم). كان أجدادك يحكوموننا وهم فوق عروشهم عند البسفور. يرسلون جنودهم ليدمروا بيوتنا. وها أنت الآن تسجد لله فوق التراب. وأنا عجوز بسيط في الصحراء، وأنت أمير من عائلة تدمرت.

بكى، بكاءً متقطعاً غريباً. ومرت يده على لحيته غير المهذبة، وقال في مقت:

ـ وما عالم الكفار؟ إنه ليس سوى رمال في صحراء. ومن يخشى الرمال؟ تسافر قوافلنا إلى تمبكتو، وإلى ساحل الذهب، وإلى الغاط، وإلى حكام السودان. بسطاء نحن، ولم نحلم بقصر على البسفور. وتظل القوافل في رحلات على مدار عام أو عامين وسط الصحاري. وتمكث نساؤنا فوق أسطح غدامس في انتظارنا تبكي. وتنشد المواويل الحزينة ترسل بها إلى قلب الصحراء. أما الرجال ففي تمبكتو أو عند ساحل الذهب، أو في الغابات مع الوثنيين. والوطن؟ هنا كل شخص يحمل وطنه في قلبه أو في عقله. هو هنا دوماً. قد يفقد الرجل قدمه أو ذراعه أو عينه ـ أو كل شيء ـ ولكنه لن يفقد وطنه. أنت تعيش في بنايات حجرية بمدن غريبة، ولكن لا شيء غريب في أرض الله.

أجابه (جون) في غضب:

ـ ومن أين تأتيني سكينة القلب؟

ـ في الدار التي تبنيها لنفسك.

ـ هناك رجل آخر في تلك الدار.

سكت العجوز، وزم شفتاه، قبل أن يعقب:

- ما أنا إلا عجوز مسكين في واحة غدامس. ولكن المعجزات لا تنضب من هذا العالم. كنت سأقصدك في الغد، ولكن الله أرسلك إليّ الليلة. وقد أحضر لي رجل بزي رسمي اليوم برقية لك. قرأتها على جمع من الرجال، فتعجبوا من تصاريف الله. عظيمة هي قدرات العلي القدير. صارت الرسالة لا تستغرق إلا ساعة أو أقل لتصل من بلاد الكفر إلى خيام البسطاء هنا. لم أفهم محتواها، لبساطة عقلي.

وضع في يد (جون) قصاصة ورقية مجعدة. ففردها وقرأ:

«راديو النمسا، فيينا. غدامس عبر طرابلس. إلى فضيلة إمام الجامع الكبير. بسم الله. الأمير عبد الكريم مقيم بيننا. زره. واحمه. وارعاه. وقل له: السلام عليكم. داره تبنى. وأنا أحرسها. وبمشيئة الله ينتقل إلى داره. (زاد)، بنت (أحمد)، من آل الأنباري».

طوى (جون) التلغراف.

- بسم الله. أنا مثل رجل من الطوارق. الرجل وحده مسكين بلا غطاء. وهناك امرأة تعرض عليه داراً. لذلك فكل الشرف لها.

انحنى للعجوز، وغادر المسجد. تتابعه نظرات الإمام الهادئة. انصرف الإمام إلى صلاة خاشعة طويلة، دعا فيها:

«اللهم احفظ الأمير وداره التي تبنى لأجله، والقوافل التي تعبر الصحارى، والمقاتلين، وواحة غدامس، والمؤمنين... في مشارق الأرض... ومغاربها».

الفصل الرابع والعشرون

«إن تيقني، سيدتي الهانم، من أنكِ لست إلى جواري، وبالتالي فلن يتسنى لكِ أن تلقي علي بأي شيء، أو أن تمزقي أوراقاً من فئة المئة دولار، هو ما شجعني على أن أكتب إليكِ. أنا و(رولاند) نجوب الصحراء والواحات منذ أربعة أشهر الآن، ونعيش حياة البدو التعسة. لقد أنجز (جون) عمله سريعاً، وقرر المنتج تصوير المشاهد الخارجية في مواقعها. وهكذا صرنا نرتحل من مكان إلى آخر بصحبة الفنانين والمخرج والمصورين، مثل لاعبي الجولف، من بقعة إلى أخرى. هذه الحياة تصيبني بالسأم، ربما لأن أجدادي كانوا ـ على النقيض من أجدادك ـ مسالمين وادعين، ولم يكونوا مقاتلين محنكين. صرفت عشرين جنيهاً على نبيذ التمر ولكني لم أستسغه، أرى أن هذا لا يهمك في شيء، سيدتي الهانم. ونحن في الوقت الحاضر على حدود الحضارة، ونصور المشاهد الخارجية بسرعة كبيرة. يقفز الدوبليرات ببراعة من فوق الجمال، والبطلة اختطفت في أحداث الفيلم حتى الآن ثماني مرات على أيدي العصابات».

«حياة الإنسان، سيدتي الهانم، بين يدي الله، ولكن أخشى أنها هنا أقرب إلى الهلاك. بالأمس عثرت على عقرب في

فراشي، مما جعلني أتذكر آخرتي. ولو استمر الأمر على نفس المنوال، فلربما تخليت عن حياتي العملية وأمضيت ما تبقى لي من أيام في تأملات تقية ورعة مثل أي ولي من أولياء الله، قابعاً في جبل أثوس المقدس. وساعتها سأترك (رولاند) في عنايتك، سيدتي المبجلة».

«يقول القرآن الكريم (وأؤمر بالعرف). والغرف هو العادات. ولكنني مؤخراً صرت أخشى أن تكون عادات (جون) قد تغيرت، ولولا أنني أحبه محبة الأب لابنه، لكنت تركته لمصيره. فقد صار (جون) منشغلاً بزيارات لا حصر لها إلى كل مسجد يصادفه في هذه البلاد، ليمضي قدراً مبالغاً فيه من وقته ساجداً إلى الله وسط التراب، وهو سلوك أثار ضيقاً أتفهمه بين أفراد هذه البعثة السينمائية».

«ولكن بالأمس جرى أمر دفعني إلى الشك بجدية في سلامة عقله. لكنت أفضل أن أراه سكراناً بدلاً من حالته هذه، رغم أني لا أحبذ أبداً الإفراط في الشراب. بالأمس، وبعد أن انتهينا من مشهد الحوار بين السيدة المختطفة وقاطع الطريق، خرجنا نتمشى في الواحة مع أفراد آخرين من الطاقم، ونحن نأمل - برغم صعوبة ذلك - في أن نجد من بين الأهالي من ينفع ليكون ضمن كومبارس الفيلم. فلا بد أنكِ تعلمين، سيدتي الهانم، أن أهل هذه البلاد غاية في الغباء ويجهلون أي شيء عن التمثيل. على أننا التقينا أحدهم؛ أشعث بملابس خضراء اللون رثة. تحدث (جون) إليه، وظننا أنه يريد أن يقنعه بالمشاركة ككومبارس. وبقدر ما فهمت من كلامهما، فإن ذلك الأشعث كان يزعم بأنه من نسل النبي، وأنه قد عاد لتوه من مكة».

«عقب ذلك ـ وإني لأخجل من حكي هذا، هانم ـ احتضن (جون) ذاك الهمجي الوسِخ، وجلس معه في ظل نخلة، وأخذ يتحدث معه عن أعاجيب مكة المكرمة. كل هذا أمام دهشة أفراد الطاقم. تصوري، هانم! مواطن أمريكي يحتضن مثل هذا الحقير!»

«تركناه جميعاً وانصرفنا في التو، فلم نحتمل متابعة مثل هذا المشهد. وعلّق (موني) ـ مساعد المخرج ـ أن (جون) فقد عقله. بينما قرر الباقون ألا يصافحوا (جون) بعد الآن، فمن الواضح أنه لم يعد «جنتلمان». أمضيت وقتاً في إقناعهم أنه ثمل للغاية وفقد السيطرة على أفعاله. وبالكاد حفظت له ماء وجهه. والصراحة ـ وهذا بيني وبينك، هانم ـ أنه وقتذاك كان في تمام يقظة العقل».

«بما أنك، سيدتي الهانم، قد صرتي أوروبية بالزواج والمعايشة، فاسمحي لي أن أطلب منك معروفاً: أرجوكي أن توبخي (جون)، وأن تطلبي منه التوقف عن هذه الدروشة المبالغة، وعن مجالسة واحتضان هؤلاء الشحاذين الأوساخ. لأنني أعتقد أن لكِ تأثيرًا خاص على صديقي ورفيقي، فقد ذكر لي أول أمس، بعد الكأس الثامنة، أنه يريد أن يكون أباً لأطفالك. وحدثني ـ بعد الكأس الثانية عشرة ـ عن دار تقومين أنتِ ببنائها له. ولكني لم أفهم كلامه».

«أود أن أضيف لمعلوماتك أن (جون) صار يهوى ـ من دون داع أو سبب ـ ركوب الجمال، بل وارتداء العباءات العربية، وهو تصرف لا يليق بعضو في نادي نيويورك لكتّاب السيناريو. لذلك عليكِ أن تكوني بالنسبة له مثلاً يحتذي به،

فآخر مرة رأيتكِ فيها قررتي أن تبقي مع زوجك الأوروبي الموقر (أرجو أن تنقلي له تحياتي، هانم، وليكثر الله من مرضاه) وألا تذهبي مع هذا الآسيوي الذي بالكاد مسته الحضارة الغربية ـ والذي قد بدأ يعود الآن إلى أصله».

«سرعان ما سينتهي عملنا هنا، هانم، وأود أن أعرفك أن صديقي المسكين قد قرر أن يمضي بقية الشتاء في فيينا قبل أن يعود إلى أمريكا. ولكني بالطبع سأبذل جهدي حتى لا ينساق إلى نزواته الآسيوية، لو أنكِ وعدتني بأن ترسلي إليه رسالة تقريع وتنبيه. والصراحة أقولها لكِ أن إفراطه في الشرب، وأنا أنبهه كثيراً إلى ذلك، أقل خطراً عليه من مجالسة قراء القرآن، والمنشدين، أو من يزعمون أنهم من نسل النبي ـ على الأقل في عيني أي مواطن أمريكي متحضر».

«أختتم رسالتي، (زاد) هانم، مقتنعاً بأننا على نفس الخط الفكري، لأن كلانا من الحضارة الغربية: أنتِ نمساوية، وأنا أمريكي. وأحييك على عجالة، فأنا أسمع صوت (جون) في الغرفة المجاورة، يخطط لرحلة إلى مقام سيدي عبد السلام مع أحد رجال الدين هنا. لا بد لي من أن أتدخل، أو أن أرافقه، حتى ولو كانت درجة الحرارة في الظل تكاد تصل إلى حد الغليان».

«المخلص... (سام دوث)».

طوت (زاد) الرسالة، وهي تتشمم عبق الورقة، وكأنها خبيرة عطور، وهي تتخيل أنها ستجد فيها رائحة الصحراء. على الطابع الليبي فوق المظروف رسم للصحراء والشمس وناقة.

«تكاد تصل إلى حد الغليان»، قالت لنفسها في دهشة، وهي تلقي نظرة عبر النافذة. كان الثلج يهطل. رقاقات بيضاء تستقر على الأسفلت، وتميل الأشجار ناحية المنزل تحييه، وقد اشتد وطأ الثلج فوق أغصانها.

لا يمكن لأحد هنا أن يتصور أن هناك مكان تقترب فيه الشمس من الأرض إلى حد أن تتحول إلى شعلة حامية، وتعصف به الرياح الرملية في دوامات.

داعبت (زاد) ورقة الرسالة. كلا، لا يمكنها أن ترسل مثل ذاك التحذير إلى (جون رولاند)، لا في خطاب ولا بنفسها عندما يحضر إلى فيينا. ولكن ما الذي دعاه إلى التزام الصلاة، ومجالسة أمثال المخابيل مدعي نسب النبوة؟

لقد مرت أربعة أشهر منذ أن كان الأمير جالساً أمامها بكل فخر وأناقة. خلال تلك الأشهر الأربعة سقطت أوراق الشجر في خريف فيينا، وكانت تسير فوقه فيذكرها برمال الصحراء. ثم بدأ الثلج في التساقط من السماء، واستحال العالم من حولها أبيض.

خلال تلك الأشهر الأربعة، زار (أحمد باشا) ابنته لمدة أسبوع، ولم يعجبه حالها، بعد أن تخلت عن الأمير وبعد أن وجدها غير حامل.

خلال تلك الأشهر الأربعة، اصطحبها (هسه) في رحلة إلى جبال تيرول. كان في جعبته أدوات التزلج الخشبية، التي لا تعرف (زاد) عنها أي شيء. وفي تيرول، لجأت (زاد) إلى معاطف الفراء، وكانت أسنانها تصطك لمجرد النظر إلى مساحات الثلوج الهائلة.

قبعت في الفندق إلى جوار المدفأة المستعرة، تراقب الخارج عبر النافذة في قلق. فهناك، وسط كل تلك الثلوج، كان (هسه) يتزلج بسرعة جنونية متهورة فوق الجبال. ارتدى وشاحاً وقبعة مدورة، وبدا وسيماً واثقاً من نفسه.

راقبته (زاد) وهي فخورة بكونه زوجها، وطالما كان زوجها. ولكنها ما زالت في مكانها عند المدفأة المستعرة، تصطك أسنانها، وهي تفكر في الدار التي بنتها للأمير. والذي لم تضع حتى حجر أساسه. (هسه) رجل طيب ووسيم، ولكنه بالتأكيد لا يمثل لها ذلك الدار.

عقب ذلك، مرت الأشهر بسرعة ورتابة، ولأسبوع واحد ساد شعور مزعج بقرب اندلاع حرب. تتذكره (زاد) جيداً: في منتصف ديسمبر. حضر (هسه) من المستشفى عيناه تضحك وأنفه متجمدة. قل لها في سعادة طفل صغير:

ـ الكريسماس عما قريب. ولسوف أحضر شجرة الكريسماس وزينتها قريباً.

ـ كلا، لا تفعل. لا أرغب في ذلك.

ـ إنه الكريسماس، ألا تعرفين ما هو؟ شجرة متألقة نعلق عليها زينة ورقية ملونة وكرات زجاجية بهية المنظر، وأسفل الشجرة توضع الهدايا. وقتما كنت صبيًا صغيرًا، كان بابا نويل يحضر أيضاً. ظننت أنه حقيقي. أحقاً لا تعرفين شيئاً عن الكريسماس؟

ـ أنا أعرف الكريسماس بالطبع. فهو أهم أعياد المسيحيين، ولكنك تعرف أن زوجتك مسلمة، وعليك أن تكون أنت أيضاً مسلماً. فلا يمكننا أن نحتفل بالكريسماس.

ارتسمت دهشة الدنيا وحيرتها على وجه (هسه):

- ولكن طفلتي العزيزة. الكريسماس هو الكريسماس. ألا تفهمين هذا؟ ولطالما احتفلنا به طوال حياتي.

- حسناً، اشتري أنت شجرة الكريسماس وأنا سأذهب إلى برلين لمدة أسبوع لزيارة أبي. هناك مسجد في برلين، وقد مر وقت طويل منذ آخر مرة قصدت فيها مسجداً.

غضب (هسه). وأخذ يجوب أرجاء الغرفة في غيظ. حكى لها عن طفولته. وسب ذلك العالم الآسيوي الغريب، بل وقال لها أن (ماريون) ورغم ما هي عليه لم تعترض أبداً على الاحتفال بالكريسماس.

- ولماذا تعترض أصلاً؟ إنها غير مسلمة.

تجاهلها (هسه)، واستمر يتحدث عن شجرة الكريسماس إلى أن وصل أول مريض، فتركها وتوجه إلى العيادة.

بعد انصراف آخر مريض، توجه إلى المقهى، وكله غضب، وحكى للدكتور (موتشيك) عن مشكلته.

- أتتخيل هذا، إنها لا تريد شجرة كريسماس. رغم أنها قد تجد أسفلها معطف فراء رائع. أتتخيل؟

- همجية.

ضحك الدكتور معلقاً.

في اليوم التالي، كان المقهى كله يعرف أن زوجة (هسه) منعت زوجها من شراء شجرة كريسماس. ولما سمع بذلك،

اقترب الدكتور (كيرتس) من طاولة (هسه) ماداً ذراعيه، متسائلاً في إشفاق:

ـ صديقي المسكين، ما الذي ستفعله إذن ليلة الكريسماس؟

اقترح عليه كبير السقاة تمضية الليلة في مقهى صغير في طرف البلدة، يبقى مفتوحاً للتعساء الذين لا يعرفون مكاناً يمضون فيه سهرتهم.

كان (هسه) غاضباً، محرجاً. ولكن (زاد) تمسكت بموقفها في عناد. لذلك راح (هسه) إلى منزل الدكتور (ساكس) ليقضي معه سهرة الكريسماس، وجلست (زاد) وحدها إلى الديوان، متدثرة بشال وثير دافئ.

* * *

بقي (هسه) ملتزماً الصمت أثناء وجوده في المنزل. ولكنه ليلة رأس السنة سامح زوجته، وأهداها معطف الفراء. وقال لها في حزم:

ـ عندما يكون لدينا اطفال، فسيتوجب علينا أن نحتفل بالكريسماس. فلا يمكن أن للأطفال أن يتربوا مثل الهمج.

قالت له (زاد)، وقد جنحت للسلم:

ـ طبعاً. طبعاً... عندما يكون لدينا أطفال...

ثم حلّ موسم «فاشينج»؛ أي موسم الحفلات والرقص والمهرجانات والحفلات التنكرية والموسيقى، وارتداء أفخم الثياب... كان (هسه) منخرطاً في دوامة الحفلات الكبرى التي تجري واحدة تلو الأخرى، بل وأحياناً ما تكون هناك أكثر من

حفلة في الليلة الواحدة. أحضر تقويماً خاصاً بالحفلات، وعكف عليه بجدية. همس لنفسه:

- حفل الأوبرا... حفل مدينة فيينا... عيد القديس جيجلان...

كان مجد المدينة القديمة يتبدى أمام عيني (زاد) المنبهرتين.

وذات ليلة، رفعوا جميع مقاعد الأوبرا لتكون أرضها قاعة رقص، وتلألأت الجواهر في الأيدي البيضاء الجالسة في كل بنوار. شاهدت المسحة القوطية للمدينة تختفي وراء ديكورات احتفالية وأضواء مبهرة، ورأت رجال المدينة المحترمين وتجارها الأغنياء وسيداتها النبيلات وهم في ملابس تنكرية ملونة مضحكة.

تعجبت، وهي تتذكر أنه في الآن نفسه هناك بقعة أخرى في هذا الكوكب تكاد درجة حرارتها تصل إلى حد الغليان، حيث يسجد (جون رولاند) لله وسط التراب، ويتحدث مع حكمائها عن ولي الله الصالح... عبد السلام.

* * *

انفتح باب المنزل بصرير. وظهر (هسه) قادماً من المستشفى، مبتسماً، ومعنوياته مرتفعة. داعب شعر (زاد)، التي رفعت راسها إليه، تنظر إلى عينيه.

- بعد غدٍ حفل كشناس. ولسوف نذهب بالطبع.

ضحكت (زاد) من الكلمة. كان وقعها في أذنها هو ما أضحكها.

ـ لا توجد كلمة مثل هذه، (هسه). إنها ليست كلمة من الأصل. يستحيل نطقها.

ـ على العكس، جميع النمساويين ينطقونها في سعادة.

ـ وما هو بحق السماء؟

ابتسم (هسه)، وهو يهز رأسه. لم تتخلص زوجته من همجيتها بعد. لا يمكن أن تجهل ما هو الكشناس.

ـ الكشناس حفل راقص يرتدون فيه الملابس التنكرية. ففي تلك الليلة، يخرج نصف سكان فيينا في أبهى ملابسهم التنكرية ليرتادوا قاعات الرقص في دار الفنون. ومن المحظور على الزوجات أن يبدين أي غيرة. أنتِ سترتدين فستاناً مخططاً، وأنا سأتنكر في زي رجل الكهف.

حدقت (زاد) في وجهه، وضحكت:

ـ أنا لست بحاجة إلى أي رداء تنكري، (هسه). فأنا أرتديه في كل يوم؛ وفي كل وقت من اليوم. فأنا أرتدي الفساتين بدلاً من الملابس التركية الواسعة، وقبعة عوضاً عن الحجاب. وأعدك ألا أشعر بالغيرة.

جلس (هسه) إلى جوارها، وداعب وجهها بيده الناعمة الدافئة، وقال لها في رقة:

ـ صرنا متآلفين، (زاد). وكانت فكرة جيدة أن نتزوج. هل تفتقدين إلى أي شيء، وأنتِ هنا معي؟

ـ لا شيء، سيدي وتاج رأسي. أنت رجل طيب. ولا أعتقد أن هناك أفضل منك في هذا العالم.

صمتت (زاد). فكرت أن (هسه) أشبه بآلة قديرة ولكن عقلها قاصر عن الإحاطة بميكانيكيتها.

ـ ألا تحن أبداً إلى موطنك سراييفو، (هسه)؟

ضحك (هسه)، وقال:

ـ إلى سراييفو؟ كلا. الهمج وحدهم يعيشون هناك. وأنا أعرف: كلما جلستي هكذا في صمت، تحدقين في اللا شيء، فإني أعرف أنكِ تفكرين في المساجد والينابيع، والفنادق المغربية. ولكنهم في المساجد يجلسون على الأرض، ومياه الينابيع غير صالحة للشرب، والعقارب تعشش في أرابيسك الأعمدة المغربية. كنت لأصاب بالجنون لو عشت في الشرق. العالم في الشرق مريض يحتضر. فكرت في ذلك الأمر كثيراً وأعرف أكثر مما تظنين. إنه أشبه بعالم سفلي. حارات ضيقة رطبة، وبيوت يستحيل العيش فيها، وسجاد يمتلئ بالجراثيم. التراكوما والزهري مستوطنة في القرى. يتسلون بالسكاكين، والجلوس في وخم في مقاهي قذرة. أما كل شيء يجعل الحياة محتملة في الشرق فمصدره أوروبا: القطارات، السيارات، المستشفيات. الطبيعة تهدد الإنسان منذ بدء الخليقة، وعليه أن يواجهها. ولا يجد حريته وأمنه إلا بعد ترويض قوى الطبيعة. جراثيم الجدري جزء من الطبيعة، وقد تغلب عليها الإنسان الغربي. وتغلبنا على البرد حتى تكون منازلنا دافئة، وقهرنا البحار والأنهار، والمكان والزمان. أما في الشرق، فلا يزالون أسرى عناصر الطبيعة. فمع كل هبة ريح تموت قرى بأكملها من الروائح الكريهة. ويكفي مرور سرب جراد أو عاصفة رملية حتى تموت مناطق كاملة من الجوع. أعرف، أعرف! هناك في

اسطنبول وعند البسفور قصور وباشاوات. ولكن هناك أيضاً أحياء بأكملها دمرتها الحرائق. لم يتعلم الإنسان الشرقي بعد أن يتحكم في الطبيعة، ولذلك فهو يصلي لإله يحكم ويعاقب ولكنه لا يحب. كلا، الشرق جحيم. عالم الآخرة، مليء بالألغاز، والعجز، والألم. وإني لسعيد حقاً لكوني أعيش في عالم قهر الطبيعة...

كان بوسعه أن يستمر في هذه المحاججة للأبد، لولا أن الباب انفتح وطلت منه مغني الأوبرا البدين، بادر بمصافحة (هسه).

ـ هر دكتور. كنت في انتظارك قرابة ساعة. لدي التهاب فظيع. ولم أعد قادراً على نطق الميم ـ وها أنا أجدك هنا تتضاحك مع زوجتك، أيها العابث!

ـ لسوف نقهر هذا الالتهاب على الفور.

قالها (هسه)، وهو ينهض ويتجه سريعاً إلى غرفة العيادة.

بقيت (زاد) وحدها. تتردد كلمات (هسه) في أذنيها مثل ضربات مطرقة مكتومة. معه حق في كل ما قاله. فالإنسان الشرقي مخلوق مسكين، فقير وعارٍ، وتحت رحمة الطبيعة. ومع ذلك، فكل ذرة في روح (زاد) تتوق إلى تلك الحياة الكريمة التي عاشتها في موطنها، وإلى عالم البيوت التعسة، والدراويش، والتعبد والسكينة، إلى عالم لا يجروء فيه أحد على أن يدخل بغتة على زوج وزوجته من دون استئذان. تعرف أنه عندما تكون هناك مطاردة لمجرمين في اسطنبول، ويفر هؤلاء إلى بيوتهم، فإن رجال الشرطة يقفون بعيداً عن المنزل في

الشارع، ولا يجرءون على اقتحام منزل فيه زوج مع زوجته. ولكنها ها هي ترى أمامها غريباً يقتحم الغرفة عليهما، وزوجها لم يقم حتى بتوبيخه وطرده، بل اصطحبه بكل بساطة وخرجا... ليقهرا الطبيعة.

لم يكن هذا العالم بعالم سيء؛ بل ربما ليس هناك من الأصل عالم جيد وآخر سيء. بوسع كل عالم أن يسعد أناسه. ولكن طبيعة البشر هي الاختلاف، وهذا منذ فجر التاريخ، وهو طبع متأصل ومترسخ في كل شخص.

منذ مئات السنين، تزوج الخليفة معاوية من امرأة بدوية بسيطة. وأحضرها معه إلى دار الخلافة في دمشق، وانجبت له ولي العهد، الخليفة يزيد. ولكن لما بلغ ولي العهد أشده، أتت المرأة إلى الخليفة، وركعت أمامه، تترجاه أن يعيدها إلى قبيلتها في الصحراء، لأنها قامت بواجبها في مدينته. فقال لها الخليفة:

ـ نحن نحب بعضنا البعض. وسعداء. ولديك ابننا ولي العهد، وزوجك الخليفة، ولديك قصور وخدم. ما الذي يمكن أن ترغبي فيه أكثر من ذلك، ولماذا تريدين الرحيل عني؟

فجثت المرأة على ركبتيها أمام زوجها، ورددت الأبيات التالية:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصرٍ منيف

وأكل كسيرةٍ في كسر بيتي ... أحب إلي من أكل الرغيف

خشونه عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الطريف

فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطنٍ شريف

ذهل الخليفة من بلاغتها، وسمح لها بأن تعود إلى قبيلتها، معززة مكرمة.

مئات السنين تفصل (زاد) عن زوجة الخليفة. ولكن تلك الرقصة المجنونة التي تخلط بين الأموات والأحياء ستبقى مستمرة على مدار القرون.

أجل، (هسه) محق. عالم الغرب آمن وجيد. ولا يمكن لهسه أن يسعد في عالم غيره. ولكن (زاد) عاشت في عالم مختلف، وبرغبات ومشاعر مغايرة. وبين هذا العالم وذاك، فوق جسر ضيق هش، يقف (جون رولاند)، في انتظارها، و(هسه)، الذي لا يمكنها أن ترحل عنه، حتى ولو كان مستغرقاً في هذا العالم المتفاخر الذي قهر الطبيعة.

ودّع (هسه) المغني المبتهج من الغرفة المجاورة. وفي الخارج يجلس بقية المرضى في الانتظار. يجلسون واحداً تلو الآخر على كرسي الفحص، ويحكون لهسه متاعبهم وشكواهم. فيكتب (هسه) الروشتة وهو يلقي بالنصائح. ولكنه يكتشف ذات لحظة أنه يدندن بلحن طريف وهو يفحص مستوى سمع أحد مرضاه. وبالطبع لم يلاحظ المريض ثقيل السمع أي شيء، ولكن الممرضة كانت تنظر إليه في دهشة، فاحمر وجه (هسه) حرجاً. ولكن الحياة تمضي على هواه، فهو طبيب ماهر، ولديه زوجة جميلة يحبها كثيراً. وهو زوج يقدرها ولا يتجاهلها أبداً. كما أن زوجته لا تزال صغيرة ولم يستقر بها الحال بعد. ولكن،

ألم يتحاور معها حواراً جاداً منذ قليل؟ أقنعها أن أوروبا قارة جميلة، وكانت تنصت له تمام الإنصات. الحياة حلوة وسهلة. بوسع المرء ان يشرح أي شيء لزوجته الذكية، وخاصة حقيقة أن عالماً خال من الجدري أفضل من عالم يعاني منه. لا بد أن تكون العلاقة الزوجية على هذا النحو؛ خالية من المفاجآت.

هكذا فكر (هسه). بينما على بعد بضعة منازل، في تلك البناية الضخمة في كارلزبلاتس، كان العمال يكابدون وهم يسحبون الألواح الخشبية الكبيرة.

غسلت الأرضيات ومسحت، وانهمك الخدم، الذين لم يستفيقوا بعد من أفكارهم المتبدية على وجوههم الواجمة، في وضع الطاولات، والفنيون يتفحصون كابلات الكهرباء. يتعامل رجل بدين مع ماكينة القهوة، وغطت مجموعة الشباب النحيف طويل الشعر مساحات هائلة من الورق بزخارف أبدعوها بأقلام الفحم، لتنتشر الملصقات والرسومات واللافتات في جميع أنحاء بيت الفن.

ووضعت الكاونترات ورُصت عليها زجاجات الخمر والنبيذ. ولم يتوقف جرس الهاتف داخل المقهى. يتحدث سادة أصواتهم ضعيفة مبحوحة إلى مدير المقهى، يطلبون منه تذاكر خاصة بالصحفيين. ويجوب رجل الشرطة القاعات بخطوات محسوبة، فيلقون نظرات على الملصقات والطاولات والزجاجات، والتأمين ضد خطر الحريق.

هذا البيت الكبير يعيش حياة غريبة حافة ومشوشة: التحضيرات لحفل الكشناس تجري على قدم وساق.

الفصل الخامس والعشرون

مهرجون، وغجر، وراقصات هنديات، وفرسان... جميعهم احتشدوا لدى السلالم قوية الإضاءة، قبل أن ينسالوا في فوضى منظمة إلى أرجاء بيت الفن. ترتدي الوجوه الملونة أقنعة تتماشى معها. والرجال الذين لم يرغبوا في ارتداء الملابس التنكرية عوضوا ذلك بارتداء ربطات عنق بيضاء فوقها سترات بيضاء أيضاً، وكان الجمع المتنكر يناديهم في سخرية بالندلاء، خاصة وأنهم بدوا مثل بطاريق وجدت نفسها بغتة وسط هذا الحشد المبهرج من دون سابق إنذار.

ضحكات صاخبة وأخرى مكتومة تصدر عن أركان نصف معتمة. وترقص نساء ترتدين سراويل واسعة أو تنورات زاهية مع رجال متنكرين في زي سحرة كيمياء من القرون الوسطى أو الزي الروسي الذي تميزه القبعة الطويلة. وهناك أيضاً أصحاب الطبع الانطوائي الذين ارتاحوا إلى التجول في أرجاء القاعات، وفي أعينهم أنفة بينما وضعوا على وجوههم أنوف مزيفة تخفي شيئاً من شخصياتهم. يرتدي آخر قبعة ذات ثلاثة أركان فوق رأسه العريضة، ليقف بلا حراك في منتصف القاعة الكبرى، وقد عقد ذراعيه أمام صدره، وعلى وجهه قناع المنتصر.

يرتاح من تعب من الرقص فوق مقاعد خشبية طويلة، ليجففوا العرق عن وجوههم الحارة. بينما وقف أحد المصورين عند باب غرفة التصوير، ليتصيد بعدسته لقطات لهؤلاء الذين استحالوا مهرجين، وغجر، وراقصات هنديات، وفرسان. . .

تلك مسرحية ساحرة غريبة؛ مشهد من حفلة عربدة في قديم الزمان، يقدمها مخرج مجهول في تلك القاعات الكبيرة، ليجمع بين رجال ونساء، مسهم السحر، فحولهم إلى مخلوقات من عالم الفانتازيا، وهو العالم الذي ما يلبثون أن يحرموا منه ما أن يعودوا إلى أعباء حياتهم اليومية. فبمقدور المحامي في ليلة كهذه أن يصير غجرياً، وعالم الكيمياء أن يستحيل قاطع طريق أو حتى فارس. يتخلون عن حقيقتهم وهم يخلعون معاطفهم لدى الباب، لتمتلئ القاعات بشخوص قررت أن تأخذ أجازة من مصيرها وأقدارها، ولو لساعات قصار، وتلقي بروحها في عباب محيط الأحلام والرغبات المكبوتة.

جلست (زاد) إلى طاولة صغيرة بين مهرج صامت وماركيز فرنسي يرتدي باروكة وأنفاً طويلاً. كانت ترتدي زياً غجرياً، وتعلق في حاجبها حلياً على شكل عملات معدنية صغيرة.

لا يظهر (هسه) أمامها. تلمح بين فينة وأخرى قبعة الساحر التي يرتديها وسط الزحام. وفي مرة أخرى ظهر وجهه المبتسم أمامها. كان بصحبة سيدتين؛ وينظر إلى (زاد)، وأحست أنه لم يتعرف عليها في تنكرها. يلاحق الجراح (ماثيس)، وهو يرتدي الزي الصيني التقليدي ويحمل زجاجة شامبانيا. لوّح لزاد وصاح بصوته الحاد يعرفها أن اسمه الصيني هو لي تاي بي، وأنه يقضي وقتاً ممتعاً.

ضحكت (زاد). وضع المهرج ذراعه على كتفها. أبعدته بلطف، فوجدت نفسه في حضن الماركيز، الذي قدم لها زجاجة براندي صغيرة وهو يتشمم ظهرها. هزت رأسها رافضة، فجلجلت العملات الصغيرة في حاجبها، وهي تخرج له لسانها ـ يبدو أن قواعد الإتيكيت والأدب تأخذ أجازة في هذه الليلة.

أربكتها كل تلك الأضواء والألوان، فنهضت ومشت بخطوات متعثرة عبر القاعات. وغمزت بعنيها لرجل نحيف صادفته يرتدي زي باشا من الزمن القديم. أمسك يدها وجذبها برقة إلى أرض الرقص. وبينما كانا يرقصان، عدلت له العمامة فوق رأسه. «هكذا يرتدونها». أخبرها الباشا أنه سيجعلها بين حريمه، ودعاها لتناول الشامبانيا.

ـ أنا من ضمن الحريم بالفعل.

ضحكت وهي ترتشف من كأس في يدها.

ـ سوف أشتريك من سيدك. نحن الباشاوات دوماً نشتري النساء.

ـ تم بيعي بالفعل.

تركته وابتعدت.

راحت إلى البار وطلبت شراب الموكا. حادثت غرباء، وداعب شاب وسيم يدها. أحاط بها الرجال، والبهجة في عيونهم، يطلبون ودها. جذبها شخص متنكر في شخصية بيرو وقد غطت البودرة وجهه، وأخذها إلى مختلى. في عينيه توسل ممزوج بفزع، وكأنه استيقظ من كابوس ولم يصحو تماماً بعد.

ـ أنا متزوج، ولكني لم أعد أحب زوجتي.

كان يمسك بيد (زاد). ضحك، فداعبت (زاد) وجهه ذو البودرة، وحكت له عن (هسه)، وعن أبيها، وعن الشقة في ساحة رينج.

اختفى بيرو من أمامها بغتة ـ ربما لم يكن له وجود من الأصل ـ وعندئذ أدركت (زاد) المعنى الساحر لهذه الليلة: هنا تذوب حدود العالم المرئي، وتسخر منها الطبيعة الجامحة في انتصار، مستمتعة بانتصارها عبر القرون، على العديد من المحاولات الفاشلة لترويضها. فهنا تنهض الأرواح المروضة من مكامنها الخفية، لتستولي في هجوم مباغت على كل الحدود ونحطم كل الحواجز والمحاذير في العالم الغربي...

اختفت تلك الرؤية بنفس السرعة التي ظهرت بها، ورأت (زاد) زوجها، في زي الساحر التنكري، ومن حوله نساء، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. اقترب منها، واحتضنها، وصاحبها إلى الرقص. سألها وكأنه يحلم:

ـ حفلة مملة؟ غاضبة؟

ـ كلا، الأجواء لطيفة هنا. ينبغي أن تكون الحياة دوماً هكذا.

تراقصا، ومرق الماركيز الفرنسي إلى جوارهما. وبعد برهة جلس (هسه) إلى أحد المقاعد الطويلة، وهو يمسك بيد سيدة نحيفة، ويقرأ لها الكف. نزلت (زاد) الدرج. تعلو ضحكات فتاة لتحيط بشرطي عند المدخل. تراقب عيونه الزرقاء تلك الطقوس الاحتفالية الغريبة بهدوء ورباطة جأش السلطة. لامست (زاد)

ذراعه. عرفت أنه شرطي حقيقي، وليس متنكراً. لمحة من العالم الخارجي خارج هذا البيت، عالم اسمه الواقع. يمكنه بحركة واحدة من يده أن يعيد كل تلك الأرواح المتحررة إلى حظيرة الحياة اليومية.

ارتعدت (زاد) لمجرد الفكرة. ورأت في عتمة الطابق الأرضي سيدة خفيفة الملابس تعلقت برجل يرتدي تلك السترة البيضاء؛ الجو حار، والهواء مكتوم، معبق بروائح عطور وخمور. شعرت (زاد) بإجهاد مفاجئ، فجلست إلى طرف مقعد طويل لا يجلس أحد إليه. يمر عليها الرجال فيبتسمون، ولكنها لا ترد الابتسامة، بل تكتفي بالجلوس في زيها الغجري المبهرج، وتلك الحلي الذهبية تتدلى فوق جبهتها مثل إكليل.

جلست سيدة متنكرة في زي هندي إلى الطرف الآخر من المقعد، وظهرها إلى (زاد). ظهرها أسمر، فتي، ورشيق. ذراعان نحيفتان، سروال من حرير، خف ذهبي، وعمامة حريرية. كانت تجلس في صمت، وقد وضح عليها الملل من تلك الجلبة حولها.

واستدارت. تتدلى من العمامة لؤلؤة بيضاوية فوق جبهتها ـ ها هو الوجه ذو الحاجبين النبيلتين، والعينان النبيتان، والأنف الرفيع الذي يختلج منخاريه.

بادرتها (زاد)، وقد تبخر التعب عنها فجأة. واقتربت من الهندية:

ـ مساء الخير، (ماريون).

ـ مساء الخير، (زاد).

كانت (ماريون) تتشكك في هذا الفضول، بينما تنظر إليها (زاد) بإعجاب.

ـ وكأنك فتاة هندية فعلاً. العمامة تليق بكِ.

ضحكت (ماريون):

ـ أنتِ أنسب من يرتدي العمامة والسروال.

ـ أوه، لا، كان الأمر سيبدو واقعياً للغاية. ألا تعلمين أنني همجية وينبغي أن أضع الحجاب؟

ـ همجية؟ أنتِ؟ من كانت آخر امرأة في عائلتك ترتدي الحجاب؟

ـ آخر واحدة؟ أنا، كنت في السادسة. هذا حقيقي بالفعل، فأنا همجية حقاً.

أمسكت (زاد) بيد (ماريون)، فرفعت الأخيرة حاجبيها في دهشة. وضحكت:

ـ لماذا لا تهربين، كما فعلتي في سيمرنج؟

كان صوت (زاد) فيه أسى:

ـ كنت مرعوبة، (ماريون)، ولهذا هربت. أرجو ألا تغضبي مني.

وبينما كانت تنظر إلى (ماريون)، كان في عينيها فضول.

هزت (ماريون) رأسها. لم تفهم سبب هذا الود المفاجئ.

ـ هل يعاملك (أليكس) جيداً؟ ليس هناك ما يدعوكي إلى القلق منه.

ـ زوجنا طيب للغاية، (ماريون). هو متنكر في زي ساحر، ومنشغل بقراءة كف شقراء. وإلى جواره يجلس (ماثيس)، في زي صيني اسمه لي تاي بي. سيظهر (كيرتس) أيضاً، والباقون. هو طيب، ولست قلقة منه على الإطلاق.

مشى «بطرس الأكبر» عبر القاعة، يحيط ذراعه بكتف الملكة نفرتيتي. بينما يتحدث شاب يضع أنفاً كبيرة حمراء وهندي مستهتر يرتدي نظارة كبيرة حديث فلسفي جاد، ولكن بعبارات غير مترابطة، عن المشكلات الجمالية.

كانت (ماريون) غارقة في أفكارها، ووجهها لا يزال متعجرفاً بعض الشيء:

ـ تعالي لنشرب الموكا. أعرف عن تجربة أن زوجنا لن يغادر هذا الحفل إلا في الفجر.

أومأت (زاد) برأسها، وبقيتا جالستين، هندية وغجرية، وعيون رمادية في مواجهة أخرى بنية. بدأت بهجة الحفلة تتلاشى تدريجياً، ومعها تناقص عدد الحضور.

وفجأة، شعرت المرأتان بحرج كبير.

ـ كيف حالك، (ماريون)؟

ـ أنا؟ أوه، بخير، أشكرك. ذهبت إلى تيرول لأتزلج. وعدت الآن إلى المدينة.

ـ أليس هذا غريباً، (ماريون)؟ هذه هي أول مرة أتحدث فيها إليكِ، ومع هذا فأنا أعرف الكثير عنك.

تحرجت (ماريون):

ـ أجل، لا بد لأليكس من شخص يشكي إليه همومه. ألا زال يتحدث عن مرضاه، وألا زال يطري على تلك الأكلة التي اعتادت والدته أن تخبزها له؟

ـ أوه، أجل، بالفعل. ولا تزال غرفة الانتظار تزدحم بالمرضى، ونفس الدوريات في مكانها على المنضدة. ولا يزال يقصد نفس المقهى بعد العيادة.

ـ وعقب ذلك يذهب إلى كوبينتسل أو بارتر، صح؟ اشعر أني قد عدت إلى شبابي ثانيةً لما أسمعك تتكلمين.

ولكنها لم تسترسل. كانت الفرقة الموسيقية تعزف أغنية غجرية، بينما العشاق قابعون في أركان القاعات، ولم يعد هناك أحد يرقص. في الطاولة المجاورة رجلان يتحدثان عن البورصة. بدأ الواقع يطل برأسه في القاعة من جديد عبر فجوات خفية.

ـ من النادر أن تجلس زوجتان لرجل واحد معاً على نفس الطاولة في هدوء.

ـ وما المانع؟ كان لدى جدي أربع زوجات في الوقت نفسه، وكن متفاهمات إلى أبعد حد، ولدرجة تفوق تفاهم كل واحدة منهن مع زوجها.

فتحت (ماريون) حقيبتها، واخرجت مرآة صغيرة، ولامست وجهها بقطنة مسحوق برقة شديدة.

ـ أنا سعيدة لسماعي أن (أليكس) على ما يرام. فقد كان متأثراً جداً. ولكن انفصال أي زوجين أمر لا غرابة فيه. كان

علي أن أرحل، ولم يكن هناك سبيل آخر. و(أليكس) محظوظ. فأنتما متفاهمان، أليس كذلك؟

صوتها بارد ومحايد. وكان كوب الموكا يخفي تعبيرات وجه (زاد). وابتسمت في حياء وهي تجيبها:

ـ بالطبع، نحن متفاهمان. ترين أنني غير متحضرة ومختلفة تماماً عن (هسه). ولكنه يتعامل معي بصبر ورقة. ويفعل كل ما أود منه أن يفعله. حتى أنني لا أصدق حتى أنه يفعل كل هذا لأجلي، إنه زوج مثالي. مشغول جداً، ولطيف جداً، ومطيع جداً. سيعامل أي سيدة أخرى بنفس القدر من اللطف. وكأنه تجسيد للزوج كما ينبغي أن يكون. ومن السهل علي أن أكون سعيدة مع (هسه) ـ لذلك فنحن سعداء.

ضحكت (ماريون). وتذكرت الشقة، والفراش، و(هسه) في المعطف الأبيض، والدوريات فوق المنضدة.

ـ هل تجلسين في غرفة المكتب، عند النافذة المقوسة، بينما يصيح (هسه) «قل إثنان وعشرون»؟

أومأت (زاد) برأسها في جذل.

ـ أجل، ويجيبه المريض «أربعة عشر» أو «معذرة لم أنتبه؟»، ومن بعدها أسمع صوت الأدوات. رغبت في البداية أن أساعد (هسه) في العيادة، ولكنه رفض.

بادرتها بنبرة انتصار:

ـ سمح لي. كنت أناوله الأدوات، وأكتب الفواتير، وأعطي الأطفال شوكولاتة. أحببت هذا في البداية. ولكن ليس من

المستحسن أن يبقى الزوج إلى جوار زوجته طوال الوقت. فلأني أعرف كل مرضاه، فلم يكن يتحدث معي إلا عنهم ـ طول الوقت. وهذا خطأ.

لانت ملامح وجه (ماريون). يداها الطويلتان النحيفتان تتشبثان بمنديل. من الغريب أن تعتقد أن هذه التي أمامها كانت في يوم من الأيام تناول (أليكس) أدواته، وتغار من مريضاته الجميلات. ولكن هذا زمان. وبين زمان والآن هناك (فريتز). كل النساء عشقن (فريتز). هناك أخريات ـ ولكن من الأفضل عدم التفكير في ذلك.

تنهدت (زاد).

ـ إني لأحسدك أحياناً، (ماريون). فأنتِ تعرفين (هسه) أكثر مما أعرفه أنا. ومعرفتي محدودة بالأوروبيين عموماً. فبخلاف (هسه)، لا أعرف إلا بعض الزملاء والزميلات في برلين. الزملاء مستغرقون في علومهم. لا بد لنا من أن نلتقي مرات أكثر لنتحدث عن زوجنا.

قالت (ماريون) لنفسها، «امرأة حمقاء، أم أن هناك مشكلة ما في زواجهما؟ مضحك أمر هذه الصداقة المفاجئة!».

نظرت إلى (زاد) باهتمام جديد، فبادلتها صاحبة العينين المميزتين النظرات بسذاجة. تسند ذراعيها فوق الطاولة، تلك الفتاة الضئيلة جالسة في مكانها، وربما تغار من أن زوجها يراقص سيدة أخرى.

ابتسمت (ماريون) في تكرم:

ـ حسنا، (زاد). أجل، يسعدني أن ألتقيكِ ثانيةً. فأنا على دراية جيدة بأليكس، أو أظن ذلك.

صارت القاعة الكبرى خاوية تقريباً الآن. لم يبق فيها سوى نابوليون، الجالس في منتصف الأرضية، وحيداً، يشعر بالنصر. تغطي الأرضية قصاصات الورق الاحتفالية، فتعكس ضوءاً متنوعاً غير حقيقي على الجدران. يتسكع الندلاء عند الأركان، وقد خفّ عن وجوههم ذلك التصنع المتكلف.

تتعالى الضحكات من عند السلم. وعند البار أربعة من السادة متألقي الروح. الجراح (ماثيس) في زيه الصيني، وعيون مرسومة على النمط الصيني، و(ساكس) و(هالم)، ثم (هسه)، وقد مالت قبعة الساحر الطويلة التي يرتديها. صاح في جذل لما رآها، وهو يقترب من طاولتها:

ـ ها أنتِ ذي، (زاد)، ونحن الذين كنا نبحث عنكِ في كل مكان.

ضحكت وهي تجيبه:

ـ بينما كنتم تبحثون عني كانت زوجتاك تشربان الموكا سوياً.

توترت ملامح (هسه). فقد انتبه الآن إلى وجود (ماريون)، التي بادرته مبتهجة:

ـ مساء الخير (أليكس). تفضل... أم أن علي أن أرحل؟

شعر بحرج شديد:

ـ أوه... ولكن، من فضلك، (ماريون). كلا... لطيف

أن... يمكن أن نتناول كأس نبيذ سوياً... أنتِ هنا أيضاً؟

صاح (ماثيس):

ـ الباشا وحريمه! لابد أن نحتفل! نبيذ!

رص الكراسي إلى جوار بعضها في صخب، وصب النبيذ، بينما رفع (هالم) كأسه:

ـ نخب هذا الجمع السعيد!

تلامست الكؤوس. ولم يلحظ أحد أن (زاد) جرعت كأسها مرة واحدة. صار نبض قلبها قوياً مثل طرقات مطرقة. كم كان الشيخ إسماعيل الأردبيلي محقاً لما قال أن هناك لحظات في الحياة لا ينفع معها إلا الخمر.

تبدت ابتسامة حالمة على محيا (ماريون).

علّق الدكتور (ساكس) بجدية:

ـ أتذكر... أتذكر أني كنت شاهد على الطلاق. والآن ها نحن ذا، نجلس جميعاً في هدوء على نفس الطاولة. تلك هي الحياة.

هز رأسه وهو يصب كأسه.

جلس (هسه) إلى جوار (زاد) واحتضنها في ظفر ـ ولكنها شعرت أنه يتوسل مساعدتها. عيناه تحدق في (ماريون)، بينما تداعب يده شعر (زاد).

ضحك (هالم). سبق له الطلاق مرتين.

ـ زوجتي الأولى ـ والتي تزوجت بعدي منذ أمد بعيد ـ لا

تزال تختار لي ربطة عنقي حتى يومنا هذا. بينما هددتني في يوم الطلاق أنها سوف تطعنني بحربة.

رفعت (ماريون) وجهها الباسم نحو (هسه).

ـ (أليكس)... ما الذي جرى للمسدس اللعبة الذي هددتني به؟

بدت مثل سخرية ظافرة. بقت لسنوات ترغب في أن تسأله هذا السؤال. وتحرج (هسه). كان قد هددها بمسدس بالفعل. والكل يعرف هذه القصة، عدا (زاد).

كان من المحرج أن تذكره بذلك الموقف.

ـ بعته. صفقة خاسرة. خسرت فيها خمس شلنات.

اختلجت عيناه في خجل، بينما ضحكت (ماريون).

ـ سوف أعوضك عن الشلنات الخمس يوماً ما، (أليكس).

ساد الهدوء القاعة الآن. وأعضاء الفرقة يحزمون حقائب آلاتهم، وبطرس الأكبر يتعثر متثائباً في طريقه إلى الخارج. ومر رجل وهو يبتسم إلى (ماريون)، ولكنها أشاحت بوجهها.

سألها (هسه)، ويده لا تزال في شعر (زاد):

ما رأيك في زوجتي الهمجية الصغيرة؟

ـ أنت محظوظ، (أليكس). لديك زوجة فاتنة، وقد اعترفت لي أنكما في غاية السعادة معاً. وأنا مسرورة لأجلك حقاً.

انكسرت عيناها، وهي تمد يدها إليه تصافحه. علّق الدكتور (ساكس) صائحاً:

ـ هيا بنا! المشهد أكبر من أن تصفه الكلمات الحلوة.

نهضوا جميعاً. وساعدت (زاد) الدكتور (هالم) البدين على النهوض، والعملات المعدنية تجلجل فوق جبينها، قبل أن تدور به وسط القاعة حتى أصيب بالدوار. بعدها هرعت إلى غرفة المعاطف.

ـ سوف نلتقي مرة أخرى (ماريون)، أليس كذلك؟

أومأت (ماريون) برأسها أن نعم.

شبورة الصباح تهيمن على الشارع في الخارج. عاد الناس إلى ملابسهم العادية، وروحهم الطبيعية. لا تزال القصاصات الملونة عالقة بالمعاطف والعباءات ـ ذكرى حلم ساحر. وتحيط الشبورة الندية بهم في حنان ورحمة.

ها هو الكون يعود إلى وضعه الطبيعي، ومساره المقدر.

علق (هسه):

ـ ليلة مجنونة.

ـ لطيفة جداً. ليلة رائعة. هذا الاحتفال جميل. وأمضيت ساعات مثيرة. بالفعل (هسه).

أسندت رأسها إلى كتفه. . . واستسلمت للنوم من فورها.

الفصل السادس والعشرون

اعتادت فراو (هسه) أن تقصد في الظهيرة مقهى شتيفانبلاتس، لتلتقي (ماريون). تجلس إلى جوارها، وقد عقدت يديها مثل طفلة صغيرة، وتحدثها عن زواجها السعيد، وعن عمل (هسه)، وعن تلك الشقة في ساحة رينج.

قالت لها في أول يوم:

ـ تعرفين. لم أعد أتخيل الحياة من دون (هسه). إنه طيب للغاية.

عيناها الساذجتان الواسعتان تلتمعان في فخر مُصطنع:

ـ أليس هذا غريباً، فأنتِ أيضاً كنتِ متزوجة من (هسه)، وبالتالي تعلمين كل شيء عن الحياة الرائعة هذه. ولذلك السبب أجدكِ أقرب إنسانة إليّ هنا في فيينا.

كانت (ماريون) تنصت إليها في صبر. (زاد) طفلة تبالغ في الكلام عن سعادتها، وتثق فيها، لسبب غريب لا تعرفه. لم تتوقف (زاد) أبداً عن الحديث عن زواجها طوال الظهيرة، ثم غادرت، ولما انتهت (ماريون) من سيجارتها دفعت الحساب،

ومشت عبر ساحة شتيفانبلاتس التي غطاها الثلج. ترمق عيناها الجريئتان واجهات المحال في شارع جاربن بضجر وفي شارع بيشتشول بلا مبالاة، وهي تأخذ طريقها في كولماركت.

تمرق السيارات، مثل أفيال صاخبة، فوق الأسفلت اللزج، قبل أن يحل المساء، بينما تراقبها واجهة هوفبرج شبه الدائرية في ازدراء. ملوك وأباطرة مروا عبر تلك البوابات الهائلة. ألقى الإمبراطور فرانز جوزيف والإمبراطور نابوليون نظرة على الميدان الدائري عبر تلك النوافذ. وانعكست صورة أزياء الضباط المذهبة على زجاج تلك الواجهات. كان هوفبرج شاهداً على الكثير من الأحداث عبر تاريخه الطويل. فما هي أهمية مصير امرأة واحدة مقارنة به؟

أما هيرينجاسي فهو مبني على هيئة دودة طويلة ملتوية. فعلى الجانب الأيسر إدارات حكومية ومتاحف، ولكن (ماريون) لا تعرف أسماءها ولا ما تحتويه. وعلى اليمين صف لا ينتهي من واجهات المحال التي تتألق في الظلام، بينما تهيمن ناطحة السحاب على الأفق فوق الشارع، مثل كائن خرافي من الفولاذ والإسمنت.

مشت (ماريون) عبر الأرضية الرخامية لقاعة المدخل. وحياها البواب بأدب اعتادته؛ وتحرك بها المصعد في سلاسة وصمت. وصلت (ماريون) إلى شقتها، وإلى تلك الغرفة العصرية الباردة التي تطل على الساحة المعبدة. مثل زنزانة فاخرة في سجن مليونيرات. تخلى وجه (ماريون) الآن عن ذلك التكبر - وأضحى بعيداً كل البعد عن ذلك. أسدلت الستائر في سخط. فاختفت ساحة السجن الرمادية. أضاءت الأنوار ووقفت تتأمل

نفسها في المرآة. أجل ـ هي لا تزال جميلة للغاية بهذا الوجه البيضاوي، والعيون البنية والشعر الكستنائي، والجبهة النبيلة. لا يبوح هذا الوجه بأي سر عن طلاقها من (أليكس)، أو علاقتها مع (فريتز)، أو مع غيرهما، وأمور لا تود التفكير فيها.

جلست (ماريون) على الأريكة. تضغط بأسنانها البيضاء الصغيرة على شفتها السفلى، فصارت ملامحها تعكس ما بداخلها من أسى. شعرت وهي في الغرفة الباردة بأثاثها منعدم الحياة وكأنها في مقبرة ـ ولكن متى انتقلت إلى هذه الشقة وفرشتها؟ أوه أجل ـ كان هذا في أحد تلك الأيام التي تحاول نسيانها ـ وتعجز عن ذلك...

هزت رأسها. كلا، لقد صارت حياتها مشوشة بالفعل، ولكن الغلطة ليست غلطتها بالتأكيد. (أليكس) رجل لطيف إلى حد الملل وأفكاره بدائية وشخصيته شخصية طفل. أحب زوجته، وشقته، ومرضاه. فلم تعد تحتمل الحياة معه...

نهضت (ماريون) وأخذت تجوب أرجاء الغرفة. وسرعان ما لجأت إلى الأريكة ثانية، وبقت ترمق النافذة. أحبت (فريتز) لدرجة أنها كانت أحياناً ترغب في قتله بالرصاص. كل ما هو حول (فريتز) بهي وجذاب، ممتلئ بالسحر والألغاز والوعود. يعرف من النساء أكثر مما يعرف (أليكس) من المرضى، ولما يتكلم تكتفي (ماريون) بسماعه وهي راقدة مغمضة العينين، مبتهجة بصوته وحسب ـ بينما يتوارى (أليكس) فوراً في غياهب النسيان.

أشعلت (ماريون) سيجارة. هناك حلاوة في مذاق هذا التبغ

الإنجليزي. تذكرت في تلك اللحظة أن لفريتز زوجة تعيش في الأقاليم، وأنه زواج تقليدي، وأنه يخشاها. أمضت معه صيفاً رائعاً وسط الجبال. في ذلك الصيف منحها (فريتز) أكثر مما منحها (أليكس) طيلة زواج دام ثلاثة أعوام.

وعندئذ. . . عندئذ ظهرت لها زوجة ذات صوت حاد وأنف كالمنقار، لا فارق بينها وبين الببغاء. فتغير (فريتز) بغتة. وتبدد فيه كل غموض وجاذبية، ليقف أمام (ماريون)؛ مجرد زوج غبي مرعوب خجلان من نفسه، بعيون كاذبة. نهضت (ماريون)، وألقت بالسيجارة بعيداً.

تنهض لتجلس، وتجلس لتنهض، ولم تكن تعرف أن (هسه) كان في موقفها هذا تماماً، قبل أن يقرر أن ينهض مرة أخيرة ليضع صورتها في الدرج. توقفت أمام المرآة. وحيدة هي، ولا أحد معها، فلا داعي لتقمص دور السيدة المتعالية المزهوة بجمالها.

فجأة، نظرت إلى وجهها في مقت. أمعنت النظر إليه لدقائق، قبل أن تضع إصبعاً فوق طرف أنفها وتدفعه لأعلى. ها قد عاد الزهو إلى وجهها مجدداً، تشوبه الحماقة.

«أنتِ تستحقين هذا»، قالت لنفسها، رغم سعادتها لكون أنفها ليس أفطساً. وجدتها سعادة متواضعة لن تضر أحداً. عادت إلى الأريكة وجلست مجدداً. شعرت بارتياح لكونها في هذه الشقة وحدها. لا أحد يراها الآن ليدرك أنها مجرد فتاة وحيدة، مجروحة، تخشى الحياة.

عادت إلى الذكريات: رحل (فريتز) عنها بصحبة زوجته

الببغاء. لم يترك لها سوى جورب وذكريات صيف جميل. «لن أنساكِ أبداً»، هكذا قال لها، بينما كانت (ماريون) تقف عند النافذة، وجهها بارد في تكبر، وتشعر بأسىً لكونها سيدة متحضرة، وهذا هو السبب الذي منعها من أن تقتله بيديها.

تلك كانت نهاية (فريتز)، ولكنها لم تكن نهاية الصيف. تقبع مبتهجة تحت مطر لا ينقطع، ببلدة سالزبرج عند طرف الغابة. وتجلس (ماريون) في زهوها المعتاد داخل مقهى باسار، تفكر في الجسر الذي لن تجد في نفسها أبداً شجاعة أن تنتحر من فوقه، مهما كانت تتوق إلى ذلك.

يمر عليها إنجليز يرتدون شراويل قصيرة، وأمريكيون في ملابس أنيقة. لكبير السقاة عيون حكيم خبر جميع أسرار الحياة، وفكرت (ماريون) في أن تتعاطى ولو قليلاً من الكوكايين. يساعد على النسيان، ولكنه يُذهب العقل، ويزكم الأنف، ويكسب الوجه بشاعةً. لم تذهب السنوات التي أمضتها مع طبيب أنف وأذن وحنجرة سدىً. إذن، لا للكوكايين.

بالكاد تتذكر أسماء جميع الرجال الذين رافقوها إلى المطبخ لإعداد القهوة بصحبتها. شربت منها رشفات في المطبخ، واقفة إلى جوار الموقد، وهي مرعوبة. تخشى من أن يأتيها رجل ويرحل عنها مخلفاً ذكرى قبيحة أخرى.

رن جرس الهاتف في الردهة. ذهبت إليه، ورفعت السماعة:

ـ آلو؟

ـ ألو، (ماريون)، أنا (زاد). سوف نذهب أنا و(هسه) إلى

تولبينجر كوبل يوم الأحد. وسوف يأتي الدكتور (ساكس) معنا أيضاً، ويوجد مقعد خالٍ في السيارة. فكرت أنه في حال لم تكن لديك ارتباطات أن...

ارتسمت ابتسامة متعالية على شفتي (ماريون):

- أشكرك... في الحقيقة... لدي موعد مهم نوعاً ما، ولكن ربما أمكنني أن أؤجله إلى يوم آخر. أجل، حسناً. الأحد في الثامنة صباحاً. مروا علي.

هذه المرأة التركية حمقاء بالفعل. ليس مستساغاً على الإطلاق أن تجد من يذكرها ثانيةً بالسنوات التي أمضتها مع (أليكس). كانت سنوات رائعة حقاً، حتى ولو كانت مملة بصورة ما. لولا أن تلك العيون الطفولية الساذجة بريئة وحالمة، لكانت قد ظنت أن السعادة المرتسمة على وجه التركية ليست سوى استهزاء بها. هزت (ماريون) رأسها تنفض الفكرة. إنها ليست مهتمة بأليكس. ليس سوى بقايا من زمن سابق على زمن احتراق قلبها ليتحول إلى رماد فوق موقد اسمه (فريتز).

لم يكن (هسه) بدوره مهتماً بماريون. فقد وقف في غرفة المكتب ساخطاً:

- أنا لا أفهمك، (زاد). تلك الصداقة مع (ماريون)! أنا لا أريد أن ألتقيها. تلك الأوزة المتكبرة وحياتها الخربة. لا يليق بي أن أتواجد في تولبينجر كول مع زوجتي السابقة.

- ولكني سأكون هناك أيضاً. والدكتور (ساكس).

في صوت (زاد) دهشة حقيقية. اقتربت من (هسه)،

ولامست بوجهها ياقة سترته، ورفعت عيناها إليه في دلال وطاعة طفولية. لم تذهب تربية اسطنبول هباءً في نهاية المطاف. فتحدثت إليه بحنكة الحريم المتوارثة عبر قرون:

- اسمعني، (هسه)... (ماريون) تتعامل معي بلطف كبير. وهي سعيدة بحق لكوننا سعداء. كما أن ضميري يؤنبني تجاهها. فقد أسأت التصرف معها وقت أن كنت في سيمرنج. ولا تنسى: أنت معي، وهي ليس معها أحد. لا أحد. كل ما أريده هو أن أتعامل معها بأدب لا أكثر. وظني أنها قد تتزوج الدكتور (ساكس). تعلم أننا معشر النساء نحب بفطرتنا أن نوفق بين الرؤوس في الحلال. وأريد أن تتزوج (ماريون) فننتهي من صداعها.

- مجنون من يتزوج (ماريون).

تأمل عيني (زاد) المبتسمتين، وتشمم العطر الخفيف الذي يعبق شعرها الأشقر، فشعر بالهدوء. لا يهمه في الحقيقة من تجلس إلى جوار الدكتور (ساكس). طالما أن (زاد) تجلس إلى جواره، فالدنيا وما فيها.

- حسناً. لا مانع في أن تأتي. وحاولي تزويجها من الدكتور (ساكس)، إن استطعتِ، ولكني لا أعتقد أن الأمر سيتكلل بالنجاح. (ساكس) أذكى من ذلك.

لم ترد (زاد) عليه. لا يهمها رأي (هسه) أو من يكون ذكياً أو غبي. أميرة من اسطنبول قادرة على فعل أي شيء، حتى ولو كان بناء دار لأميرها المهموم الذي يمرغ وجهه في التراب لله، واسمه (رولاند).

وهكذا، وفي تمام الثامنة من صباح الأحد، كانت سيارة (هسه) واقفة أمام باب منزل (ماريون). تأخرت (ماريون) في الخروج. وابتسمت في أنفة، وهي ترفع ياقة معطفها لتغطي عنقها، واتخذت مكانها في السيارة إلى جوار الدكتور (ساكس).

* * *

في يوم الاثنين، كان الدكتور (ساكس) جالساً في مقهى رينج. كان جميع أصدقاء (هسه) هناك، والرؤوس تهتز في رضا. بردت القهوة في أقداحها، وفترت المياه الباردة في أكوابها. كان رئيس السقاة منتبهًا ومتيقظًا، وهو يستند بظهره إلى أقرب عمود. كان الدكتور (ساكس) يحكي:

- كدت أموت من الضحك. (هسه) بصحبة زوجتيه. ونحن في الطريق إلى تولبينجر كوبل. لم تتوقف التركية عن الثرثرة. وإني لأعتقد أن من عادات الحريم أن يقود الرجل سيارته ومعه جميع أزواجه. كان (هسه) في غاية الحرج حتى أنه خشي أن ينظر تجاه (ماريون). وهذا مفهوم بعد كل ما جرى بينهما في الماضي. تناولنا الغداء في الفندق، و(زاد) لا ترفع عينيها عن (هسه) في غرام، وذات لحظة سألت (ماريون): هل كان (هسه) لطيفاً معها أيضاً! كانت صدمة لماريون المسكينة. قل ما شئت عنها، ولكنها سيدة راقية. سلوكها رفيع - متحفظة ولكنها في غاية الأدب. لا بد أنها انزعجت من السؤال.

أفرغ الدكتور (كيرتس) قدحه مثل خبير متمكن. وقال وهو يبتسم:

- طبيعي أن تكون هذه التركية همجية. لدى جميع الرجال

الأتراك أكثر من زوجة. وبالتالي تعتبر (زاد) أن (ماريون) قرينة لها وأن عليها أن تشاركها أعباء زوجها. وأعتقد أن (زاد) باردة الأحاسيس. هذا هو ما في الأمر.

ضحك (هالم):

- هراء. التركية الصغيرة تموت عشقاً في (هسه)، وتجد حاجة إلى التعبير الصريح عن سعادتها. وتفضل أن تفعل ذلك أمام (ماريون). حتى تغيظها. طريقة بدائية للتباهي والإنتقام. ولكنها لا تدرك أنها بذلك تلعب بالنار. (ماريون) جميلة للغاية، ويكفيها حماقة واحدة في حياتها. و(هسه) كان يعشقها. حتى أني أشك في أنه قد تزوج (زاد) لمجرد أن يعرف (ماريون) أن حياته سوف تستمر من دونها. وهذا من بين أسباب أخرى دفعته للزواج. هذا نوع من تعويض عقدة دونية لديه.

تقاربت رؤوس الأطباء. واصطبغ النقاش بصبغة علمية. وسرد كلٌ منهم رأيه في أكثر من عقدة نفسية. (زاد)... (هسه)... (ماريون): ثلاثة أرواح عارية ترقد وسط أقداح القهوة، ليتناولها الأطباء بالجراحة والتشريح. واحمرت وجوه الأطباء. وأجمعوا على أن (زاد) تعاني من أعراض المراهقة المتأخرة، بينما (هسه) يعاني من عقدة أوديب.

وفي النهاية، رفع الجراح (ماثيس) إصبعه وقال لهم بنبرة صارمة مباشرة:

- إنها مسألة وراثية. نعلم أن (هسه) ينحدر عن أجداد مسلمين في البوسنة. ولا يجب أن ننسى أن (زاد) قد أيقظت فيه تلك الطباع الآسيوية المكبوتة. وسينتهي الأمر بهما في مثلث.

سيكون (هسه) مثل باشا سعيد وسط حريمه. وتستقر (زاد) في الضلع الآسيوي من مثلثه العقلي، بينما لماريون الضلع الأوروبي الثاني.

بادره (كيرتس):

ـ مستحيل. ليس في نفس (هسه) أي روح آسيوية، كما أن (زاد) تفتقر إلى الروح الأوروبية. وسينتهي الأمر بالتركية وهي تخطف زجاجة كيماوية حارقة من خزانة (هسه) لتلقي بمحتواها على وجه (ماريون). فعلينا أن نحذّر (ماريون).

يعتقد (كيرتس) أنه على دراية كبيرة بزاد.

انفتح باب المقهى، فسكت الأطباء. دخل (هسه) وجلس منهكاً:

سأله (كيرتس) في إشفاق حقيقي:

ـ ما الأمر، (هسه)؟

ـ ليس لي سوى يدين. فلا يسعني أن أمسك في نفس اللحظة بمبضع ومرآة ومثقاب.

لما انتبه إلى وجوه زملائه المندهشة، جرع قدحه مرة واحدة، وقال في استسلام:

ـ لقد رحلت (فريدل).

ـ من؟

ارتسمت على الفور في مخيلة كل منهم صورة خيالية لعلاقة محرمة طرفها (هسه).

ـ (فريدل)... ألا تعرفونها؟ الممرضة المساعدة؟

ـ أوه

تنهدوا، وتبددت تلك الصور، وربت (كيرتس) على ركبة (هسه).

ـ أهذا بسبب غيرة (زاد)؟ تلك أمور تحدث.

ـ أبداً، (فريدل) ليست بجميلة، كما أنها تجاوزت الأربعين. ولكنها كفؤ تماماً. وتفهمني بإشارة من عيني. بل أنها كانت تعرف دوماً ما أريده قبل أن أطلبه.

ضحك الأطباء.

ـ فلماذا تخليت عنها؟

ـ أنا لم أتخل عنها أبداً. لقد ورثت منزلاً في جراتس، وبالتالي رحلت. أخبرتها (زاد)، في براءة الأطفال، أنها الآن ليست بحاجة إلى أن تعمل. لم تكن لتنتبه إلى تلك الحقيقة وحدها. وأشعر الآن أني فقدت ذراعي الأيمن. لست طويل البال. وأريد ممرضة تفهمني.

أومأ الدكتور (هالم) برأسه متفهماً.

ـ من الصعب أن يجد المرء بديلاً لممرضة كفؤ. وخاصة في خطوات التخدير. الممرضة الجديدة مثل زوجة جديدة. لا بد أن تدقق جيداً قبل الاختيار.

ـ لن أتمكن من العثور على مثيلة لها. أنا أدرى بنفسي. أنا أسير الاعتياد. ما أن تتمرس ممرضة على طباعي، حتى تتركني

وتهرب مثل (ماريون)، أو تصبح ثرية مثل (فريدل).

سكت في وجوم. فقال (كيرتس):

- الأفضل لك أن تتزوج ممرضتك، أو أن تجعل زوجتك ممرضة. الضمانة الوحيدة.

نظر (هسه) إليه في غضب:

- إخصائي الأعصاب لا يحتاج ممرضة، بل فقط إلى سترة المجانين. الأمر معنا مختلف. وقد ساعدتني (زاد) اليوم، ولكن هذا ليس حلاً عملياً على المدى الطويل.

- ولماذا؟

سألوه في ترقب.

زاد الغضب في صوته:

- أنا أسألكم أنتم! ما رأيكم؟ (زاد) حساسة. لا يمكنها تحمل أي جراحة. وقد حاولت اليوم، ولكن كان علي أن ألغي جميع الجراحات. تخيلوا ما كان يمكن أن يحدث لو أن ممرضة فقدت الوعي في منتصف عملية. لم يكن أداؤها سيئاً، ولكن في النهاية أتى مريض عجوز يعاني من فيمة الأنف. أعرف أنه مرض قبيح المنظر. ولكن (زاد) المسكينة لم تحتمل ما رأته.

هز رأسه مشفقاً على زوجته المسكينة.

* * *

بينما كان زوجها يشعر بالشفقة عليها، كانت (زاد) تدلف بسرعة إلى مقهى في شتيفانبلاتس.

سألتها والاشمئزاز ظاهر في عيونها الرمادية:

- (ماريون)... هل صار هذا جزء من واجب الزوجة أيضاً؟.

نظرت (ماريون) إليها في دهشة. كانت (زاد) تأخذ مكانها إلى جوارها، واليأس بادٍ على ملامحها.

- أنا حتى لا أطيق الرائحة، وكل هؤلاء المرضى. كاد يغمى عليّ. وفي الغد سيكون على (هسه) أن يجري عمليات الحنجرة. ما الذي يمكنني أن أفعله، (ماريون)؟ بالتأكيد هناك ممرضات كثر. أليس كذلك؟

كانت الكلمات تتزاحم وهي تخرج من فمها. حكت لها عن (فريدل) التي ورثت منزلاً في جراتس، والتي كان (هسه) يعتمد عليها تماماً. وحكت لها عن العجوز المريض صاحب المرض القميء، وكيف أصابها ذلك بالغثيان، وكيف كان (هسه) ينظر إليها في حيرة وهو لا يفهم ما يدور في عقلها.

- سيجري جراحات في الغد، (ماريون). وهذا أكثر مما يمكنني احتماله.

سكتت، وقبعت في مقعدها، منكسرة، وترطب شفتاها بلسانها. نظرت إليها (ماريون) ضاحكة:

- أنتِ معتادة فقط على الدلال، (زاد). طبع الحريم. عندما كنت متزوجة، تلقيت دروساً حتى أصير ممرضة مساعدة لأليكس. حتى صرت ممرضة أفضل مني زوجة. وبعد الطلاق اشتكى (أليكس) من كونه لا يجد ممرضة جيدة. حسناً...

بالنسبة لزائدة الحلقوم: الأمر سهل للغاية. فبعد كل خطوة تقومين بتحريك رأس المريض للأمام. وتقومين بتحضير سكين بيكمان وأداة جوتشتاين قبل العملية. وبعدها تناولين (أليكس) البوليتزر. فهمتي؟

ـ كلا، لم أفهم أي شيء. أنا معجبة بكِ، (ماريون)، وكل تلك الأمور التي تجيدينها. وأنتِ على حق، فأنا معتادة على الدلال فحسب.

عادت (زاد) إلى المنزل. كان (هسه) جالساً في غرفة الانتظار، يقلب صفحات دوريات قديمة. بادرته بنبرة وديعة:

ـ لا تقلق من الغد. أعرف تماماً كيف أتصرف. سأناولك في البداية البوليتزر، ثم سكين جوتشتاين وأداة بيكمان.

ضحك منها:

ـ ولكن هذا غلط تماماً. العكس. ولكن لا بأس. سوف يرسل لي (كيرتس) ممرضة خبيرة. إنه لصديق وفي. ما رأيك أن نذهب إلى السينما؟ ليس ذنبك أنك لا تطيقين العمل. برغم أنك أبديت مهارة وقت أن كنا نعالج ذلك الدرويش.

كان يحدثها برقة، وهو يرمقها. كان يشعر بالأسف لكونها لا تطيق التعامل مع الجراحات، وأنها تحدثت عن أدوات الجراحة للتو بهذه الطريقة المغلوطة.

ـ أوه... الدرويش.

التمعت عينا (زاد) لثانية. تذكرت (هسه) الساحر، المتحكم في أسرار الحياة والموت، والذي أنقذ حياة العجوز الحكيم.

كررت في برود:

ـ أجل، الدرويش. تلك مسألة مختلفة، (هسه). فالدرويش حكيم، ومن واجبي أن أسعى لمساعدته. ولكنني هنا أمام عجوز لديه ورم قبيح. سأذهب لتغيير ملابسي.

أومأ (هسه) برأسه في وجوم. راحت (زاد) إلى غرفة الزينة، وجلست إلى مقعد منخفض، وهي تنظر إلى صورتها في المرآة. مرت بيدها على جبهتها في تعب. صعب عليها أن تمثل دور ذات الدلال والدلع، التي تعجز عن مساعدة زوجها. وصعب عليها أن تتظاهر بالضعف والغثيان بدلاً من أن تقوم بمناولته الأدوات المطلوبة، لترى الابتسامة في عينيه. تنهدت. لا بد أن (ماريون) تعتقد أنها مجنونة. ولكن لا يهم. هي مصرة على أن تحقق الهدف الذي وضعته نصب عينيها.

رفعت (زاد) رأسها وابتسمت. كلا، لا بد ألا يحزن (هسه) عليها. لسوف ترتب له كل شيء.

أغلقت عينيها وهي تعقد أصابع يديها... لو دخل عليها (هسه) الغرفة الآن فجأة... لوجدها تصلي.

* * *

وفي اليوم التالي. كانت (زاد) تجوب أرجاء الشقة بخطوات حالمة. وفي التاسعة والنصف وصلت الممرضة الجديدة؛ سيدة بدينة ترتدي قبعة بيضاء. اصطحبها (هسه) إلى غرفة الفحص، ولحقتهما (زاد) بخفة وهي تصيخ السمع.

ـ في البداية سيكون لدينا فتاة تعاني من اللحمية. سنحتاج

إلى تخدير موضعي بسيط. ومن بعدها هناك ممثلة... لديها عملية استئصال جزئي بسيط في الجانب الأيسر. بالحقن. هل هذا مناسب لكِ؟

أجابته الممرضة بصوت عميق:

- بالطبع هر دكتور.

في العاشرة. عادت (زاد) إلى غرفة الانتظار. ووصلت المريضة الأولى - فتاة شقراء رشيقة ومعها سيدة تكبرها سناً، ربما هي أمها.

سمعت (زاد) صوت زوجها:

- لن يؤلمك هذا أبداً. ستكونين نائمة.

أجابته الفتاة بكلمات رقيقة غير مسموعة.

انسلت (زاد) إلى غرفة المكتب. تسمع وقع الخطوات في غرفة الفحص والجراحة.

«اجلسي، من فضلك... هكذا... الكمامة أيتها الممرضة! العدد رجاءً: واحد... إثنان... ثلاثة... أربعة...»

صار صوت (هسه) رقيقاً للغاية. ثم أصوات الأدوات. والممرضة تخبره أنها قد نامت. ومرت ثوان. ثم صيحة مكتومة. وبكاء بصوت عال.

ارتجفت (زاد). ابتعد (هسه) بكرسيه عن المريضة. والبكاء متواصل. انفتح الباب، ودلف (هسه) إلى غرفة المكتب. عيناه ضيقتان.

ـ بسرعة ـ اجلبي بعض الثلج، (زاد). لا بد أن تبتلع الصغيرة بعض الثلج. فلقد استيقظت مبكراً عن الموعد المطلوب. أعطتها الممرضة جرعة مخدر قليلة. ليست كارثة، ولكن لا ينبغي لهذا أن يحدث.

أومأت (زاد) برأسها. وهرعت لتحضر الثلج بنفسها وتهدئ المريضة الملتاعة. ابتلعت الفتاة الثلج. عمرها لا يتجاوز الثمانية عشرة عاماً، ولم تكن تتوقع أن تتألم. نظرت إلى (زاد) بعيون خائفة، وهي لا تدري أنها تشارك في لعبة غامضة من ألاعيب القدر.

قامت الممرضة الجديدة بترتيب الغرفة. ووضعت الأدوات في الغلاية المعدنية.

ـ انتبهي، أيتها الممرضة. العملية التالية استئصال جزئي. في الجانب الأيسر. سيكون عليكِ أن تستخدمي المطرقة. متأكدة من أنكِ قد فهمتي؟

ـ طبعا، هر دكتور.

رن الجرس. وفتحت (زاد) الباب. للممثلة شعر داكن وترتدي فراء المنك. صاحبتها (زاد) إلى غرفة الانتظار. هناك همس مكتوم في غرفة الجراحة. واضح أنهما غير مستعدين حتى الآن.

سألتها الممثلة، وهي تقلب صفحات إحدى المجلات:

ـ أنتِ فراو (هسه)؟ سوف يجري زوجك عملية في أنفي. كلا، ليس كيس أنفي للأسف. كانت المسألة أسهل. لدي

صديقة استأصل لها زوجها مثل ذلك الكيس ببساطة. ولم تشعر بأي شيء. ولكن أنا ـ هناك خطأ ما في العظم. يمنعني من التحدث بصورة سليمة ـ شيء لا أعرفه.

سكتت، ونظرت في ساعتها. الواحدة إلا الربع. لا يزال الهمس المكتوم يأتيهما من خلف الباب المغلق.

ـ أنا متأكدة من أن زوجي سيجري العملية على خير ما يكون.

كانت الممثلة قلقة:

ـ أتمنى هذا. لماذا تأخر؟ أخبرني زوجك أن أحضر في تمام الثانية عشرة. ولم أطلب من أحد أن يرافقني. قال لي أن هذا غير ضروري. حيث سيكون بوسعي العودة لمنزلي وحدي على الفور.

شعرت بالأسف للممثلة:

ـ بالتأكيد.

انفتح باب غرفة الجراحة. وخرج (هسه)، ومن خلفه الممرضة. شعرت (زاد) فجأة بتأنيب الضمير، وكأنها المسؤولة عن مصير الممثلة. اقتربت من (هسه) بهدوء:

ـ (هسه). لا يبدو أن هذه الممرضة جيدة. هل يمكن أن أساعد؟ ربما استطعت ذلك. وأعدك ألا أفقد الوعي.

أومأ (هسه) برأسه موافقاً. فارتدت (زاد) المعطف الأبيض. وجلست الممثلة على كرسي العمليات، وأسندت رأسها إلى الوراء. اختلج أنفها الصغير. وجلس (هسه) أمامها. سقط الضوء العاكس فوق وجهها، ليغمره.

ـ لن أتألم، أليس كذلك؟

ـ كلا، بالطبع لا. لن تشعري بأي شيء.

وضع يده فوق جبهتها. وبإبهامه رفع أنفها لأعلى قليلاً. كان الخوف في عيون الممثلة. وقفت (زاد) إلى جوارها. شاهدت الممرضة وهي تناول (هسه) غبرة الحقن وتذكرت الدرويش الذي جلس ذات مرة نفس هذه الجلسة، والذي أنقذ (هسه) حياته.

عمل (هسه) في صمت. وتسمرت الممثلة في جلستها، وشفتاها ترتجفان.

ـ حسناً. الإزميل، رجاءً.

ناولته الممرضة الإزميل الطبي. فغرت (زاد) فمها. كانت المطرقة تلتمع في يد الممرضة.

ـ الآن.

هوت المطرقة.

ـ آآآخ

صاحت المريضة، وهي تبعد رأسها. الألم الفظيع في عينيها. والغضب العارم في عيني (هسه):

ـ ما الذي تفعلينه؟! لقد ضربتي على نحو غير صحيح تماماً!

هوت المطرقة ثانيةً.

ـ آآآخ... آآآه

كانت رأس المريضة تتلوى ألماً، وانهمرت الدموع من عينيها. وتشبثت بيد (هسه).

أحاطت يدا (زاد) برأس الفتاة. همست لها:

ـ سينتهي الأمر في ثوان، اصبري قليلاً. اثبتي.

لثمت جبهتها بقبلة سريعة. وقفت إلى جوار الكرسي، ويداها تحكم السيطرة على رأس الممثلة الأجنبية.

ـ انتهيت. ناوليني جوتز، أيتها الممرضة.

نهض (هسه). كان وجهه شديد الحمرة. «وكأني محتال في قرية»، فكر في مرارة. كانت الممثلة تبكي. بينما جلست (زاد) إلى جوارها، تكفكف دموعها.

ـ من الأفضل أن تمكثي هنا بعض الوقت إلى أن تتعافي. تفضلي في غرفة المكتب.

كان (هسه) محرجاً. ناولها قرصاً مسكناً، وصاحبتها (زاد) إلى الديوان.

همست لها الفتاة:

ـ لقد تألمت وخفت جدا، دكتور. هل كل شيء على ما يرام الآن؟

ـ طبيعي تماماً.

كان غاضباً وساخطاً لفكرة أن يخشاه أحد مرضاه.

عاد إلى غرفة الجراحة.

ـ أنتِ ممرضة بيطرية ليس إلا، وأكاد أشك في كونك مطلوبة لدى جمعية الرفق بالحيوان.

جمعت الممرضة أغراضها وهي مستاءة.

ـ مرضاك مرفهين للغاية، دكتور. الطبيعي أن يحتمل المرء ولو قليلاً من الألم.

تركته وانصرفت، مرفوعة الرأس.

كانت الممثلة نائمة في غرفة المكتب، وقد تورمت عيناها من البكاء. أخذت (زاد) زوجها إلى غرفة النوم. وبادرته بجدية:

ـ سيدي وتاج رأسي، لا يمكن للوضع أن يستمر على هذا النحو. سوف تفقد مرضاك لو لم تحضر ممرضة قديرة.

أجابها (هسه) في سخط:

ـ سوف أحضرها. فيينا كبيرة. المسألة مسألة وقت. وكل الممرضات الجيدات تعملن. علي أن أعمل في العيادة وحسب.

بدت الحماسة على وجه (زاد):

ـ (هسه)، ينبغي لك ألا تنتظر، وأنا لن أكون مسؤولة عن معاناة مرضاك. كلا، (هسه)، فأنا أعشقك، ومستعدة للتضحية لأجلك. فكر في كل هؤلاء المرضى المساكين الذين يعتمدون عليك. لا ينبغي لمشاعرنا الشخصية أن تؤثر عليهم.

وقفت أمامه مرفوعة الرأس في عزة، ونظرت إليه في حب.

ـ ما الذي تقصدينه، طفلتي؟

ـ سوف أتصل بماريون. أنت اعتدت العمل معها. وستكون

(ماريون) المسكينة سعيدة لمساعدتنا. واجبي أن أفعل هذا. وعلاقتنا الزوجية قوية آمنة، ولا يمكن أن نخشى عليها من (ماريون).

لم تمهله، وبادرت بالاتصال برقم (ماريون). عادت بعد دقائق، وقد احمر وجهها. تشعر ببعض الدوار.

- ستحضر في الرابعة من بعد الظهر إلى العيادة. تقول أنها سعيدة للعودة إلى هذا العمل ثانيةً.

وقفت في مكانها، كسيرة النفس، تنظر إلى (هسه). في عينيها كل أسرار آسيا العتيقة.

لم يكن (هسه) يراها. لأنه أسرع نحوها، واحتضنها، وقال لها وكله حيرة:

- (زاد)، أنتِ لست إنسانة عادية.

لم ترد (زاد). كانت خجلانة من نفسها.

حضرت (ماريون) في الرابعة عصراً. في عينيها دهشة وحيرة، حتى وهي ترتدي المعطف الأبيض.

- (أليكس)، أنا سعيدة لمساعدتك. في الوقت الحالي بالطبع. وحتى تجد ممرضة مناسبة. سترى أنني لم أنس أي شيء.

مشت عبر الشقة وتوقفت عند باب العيادة، وأدهشها أن قلبها ينبض بشدة.

* * *

مشت (زاد) جذلانة في ساعات الأصيل، حتى وصلت إلى مقهى فدلفت إليه وحدها. كانت تدندن بلحن تركي تحبه. لاقاها الدكتور (كيرتس).

ـ أتمنى أن يكون زوجك قد أعجب بالممرضة التي أوصيته بها.

ـ لقد طردها. ووجدت له أنا واحدة أفضل.

سكتت لثوان، قبل أن تبتسم في خبث وتقول:

ـ (ماريون) تساعده إلى أن يعثر على ممرضة جيدة.

تركته مبتسمة، واتخذت لنفسها مقعداً إلى جوار النافذة. بينما عاد (كيرتس) إلى الطاولة التي يجلس إليها زملاؤه. راقبتهم ورؤوسهم تتقارب وتتحرك، مثل عيدان قمح يلاعبها الهواء. بوسعها أن تخمن فحوى همساتهم المندهشة.

نهض الجراح (ماثيس)، وقصد طاولتها، وانحنى لها محيياً. شعره أشيب، وملامحه حادة. جلس ونظر في ترقب إلى (زاد).

ـ اعذريني، رجاءً، فالأمر لا يعنيني. ولكن علي أن أنبهك. (زاد)... أنتِ تلعبين بالنار. وأنا لا أفهمك. لا ينبغي للمرء أن يساعد غيره على الوقوع في الخطيئة، ويكون من الأفضل منعه من الأساس. أنتِ تبالغين في ثقتك في (ماريون)، إما هذا أو أنك شديدة التفاؤل. لا يمكن لأحد أن يتلاعب بسعادة الآخرين. أنتِ مثل من أراد أن يحمي ثعباناً فأسكنه صدره.

تراجعت (زاد) بظهرها إلى الجدار، ورفعت رأسها، بعينين نصف مغلقتين. وجهها رقيق ومرتاح الأعصاب. أطلقت ضحكة قصيرة خفيفة.

- رجل طيب أنت يا دكتور (ماثيس). وهذا لأنك هاوٍ للكتب الصينية وتحب ارتداء ملابس الصينيين تنكراً. وإني لأشكرك. ولكن (ماريون) إنسانة مسكينة، وأود أن أساعدها. وهي صديقتي. والصداقة رباط مقدس، أليس كذلك، دكتور (ماثيس)؟

ساد الهدوء ملامحها. وانشغلت بالنظر عبر النافذة الكبيرة. الثلج الأبيض يتساقط من سماء سوداء. وتحت وطأة الثلج المتراكم، تنحني أغصان الأشجار، وكأنها تلقي بالتحية تلو الأخرى على النافذة. مسحت الزجاج بقفازها. وجدت الشارع يزداد اتساعاً... واتساعاً... وثلوجه تستحيل رمالاً. فاحت من الأرض رائحة الحريق، وظهرت الإبل من بعيد، ورؤوسها تتمايل... مثل عيدان قمح يلاعبها الهواء.

رمقت ساعتها... لقد طالت ساعات العمل في عيادة (هسه) اليوم... لأكثر من المعتاد.

الفصل السابع والعشرون

كان جرس الهاتف قد رن في وقت مبكر من ذاك الصباح.

«مرحبا، هانم إفندي»

تبدد النوم من عيني (زاد) على الفور:

«مرحبا، سموك»

اعتدلت في الفراش. واستدار (هسه) ناحيتها وهو يستمع في دهشة إلى تلك الكلمات الغريبة.

ـ هل انتهيتِ من بناء داري، هانم؟

ـ تقريباً. تبقت بعض الأحجار. هل ذهبت إلى ضريح سيدي عبد السلام؟

ـ طبعاً. واشتريت لكِ مسبحة مباركة. وودعت الصحراء. وداعاً سعيداً. متى أراكِ، هانم؟

وضعت (زاد) يدها على السماعة.

ـ (هسه). هذه المكالمة من السيدين اللذين صدمت سيارتهما في الصيف. أنت تعرف أحدهما. إنهما هنا مجدداً ويرغبان في رؤيتي.

قال لها في لامبالاة:

ـ ادعيهما إلى العشاء، أو يمكنكِ أن تلتقيهما في قاعة هوفبرج.

أومأت (زاد) برأسها وهي ترفع يدها عن السماعة:

ـ سموك، سيكون هناك لقاء الليلة في القصر الملكي لهذه البلاد. تعال. وسوف ألتقيك في قاعات القصر.

وضعت السماعة. قفز (هسه) من فراشه وارتدى ملابسه على عجل. فقالت له:

ـ سوف أعود إلى النوم، (هسه). أنا . . . متعبة للغاية.

أغلقت عيناها. ولثم (هسه) شفتاها بقبلة سريعة قبل أن ينصرف.

بقت في الفراش بلا حراك، يداها فوق الغطاء. سقطت على وجهها أشعة شمس الشتاء الناعمة. فاختلجت أجفانها. هكذا إذن. عاد (جون) من الصحراء، وهي ليست متأكدة بعد مما إذا كان «داره» جاهزاً أم لا.

فتحت عيناها. الغرفة خاوية. اعتراها إحساس غريب، وكأن عقلها وجسدها يتمددان، وكأن الأشياء في الغرفة تذوب ببطء لتتوارى داخلها. رمقتها. أشعة الشمس تخترق المرآة، وأضحى الهواء مرئياً بغتة، متعدد الألوان، تكاد تلمسه.

نهضت وضعت قدميها في الخف. عادت تجلس إلى الفراش، ترتجف. تخشى أن تتلفت حولها. الغرفة ـ بما في فيها من خزانة ومناضد وكراسي ـ تضغط بكل قوة على كتفيها.

يرمقها ذاك الخشب المصقول، بغرابة وشك، ليملأها بخوف لم تفهمه.

سارعت تفتح خزانة الملابس. أطلت عليها فجوة مظلمة باردة. الملابس معلقة هناك، قطعة تلو الأخرى، مثل جنود في استعراض عسكري. لامست بيدها الأقمشة الملونة. كل ثوب من هذه الثياب احتوى جسدها ذات مرة، وتعلق جزء من حياتها بكل رداء منها. مثل حرس صامت؛ اصطف على امتداد درب حياتها.

هنا، في هذا الفستان الحريري القديم، كان قلبها ينبض بجنون وهي تقود السيارة مع (هسه) إلى شتولبشينس، حيث ابتاع لها ملابس السباحة. لم ترتده منذ أن تزوجت، ولكنها قررت أن تبقيه في خزانة ملابسها. إلى جواره فستان صيفي، أبقته ذكرى لحفل شاي الساعة الخامسة في السيمرنج، وقت أن ساقها القدر للقاء رجل غريب مزقت في وجهه ورقة بمئة دولار.

الرداء الأزرق الذي ارتدته في سراييفو، والذي تحتفظ ثناياه بعبق الشرق. ومن بعده رداء الغجر التنكري زاهي الألوان. وفي المقدمة، فستان لم ترتديه بعد، بلا ظهر ولا أكمام، أبيض، ولسوف ترتديه لأول مرة الليلة، في قاعات الهوفبرج.

نحت (زاد) الفستان جانباً. إنه مثل زي القتال، غير أن النفير لم يطلق بعد للهجوم. وقعت عيناها على رداء داكن بسيط في مؤخرة الخزانة.

لامست القماشة في سعادة. هذا الذي ارتدته خلال تلك الساعات الطوال في المكتبة، لما كانت تكتشف أسرار

الأصوات الغريبة، ولما كان (هسه) جالساً في السيارة ينتظرها. لماذا احتفظت به؟

أدخلت يدها في جيبه ووجدت قصاصة ورق مجعدة. متى ولماذا وضعتها هناك؟ احمر وجهها بشدة عندما قرأتها: «كل ما يمنح لك يأتي ويروح. وتبقى وحدها المعرفة المباركة. كل ما في هذا العالم فان. وتبقى وحدها الكلمة المكتوبة، أما الزبد فيذهب جفاء».

إنها تتذكر جيداً المكتبة وتلك الفتاة المتحمسة التي فتحت كتاب المعرفة المباركة لتحاول أن تعثر على سر الحياة وسط ثنايا المخطوطة القديمة. أعادت الورقة في حرص إلى مكانها. يصعب عليها الآن أن تتخيل نفسها وقت أن كانت بهذا الحماس. وخطرت لها مقولة فارسية قديمة وهي تغلق الخزانة. راحت إلى الحمام، وتلك المقولة في ذهنها. أخذتها معها تحت الماء، وإلى غرفة الزينة، وإلى مائدة الإفطار. كانت تكررها في ذهنها برقة وأسى: «وحدها الأفاعي تتخلص من جلودها حتى تتحرر الروح وتنضج. ونحن البشر لسنا بأفاعي. فنحن نحبس أرواحنا داخل جلود لا نتخلص منها».

مرت ساعات، تتوالى مثل حبات في مسبحة. وفي الواحدة والنصف، عاد (هسه) ومعه باقة من أزهار الأوركيد. بدت لها أشبه بأفاعٍ زاهية تتلوى.

- هذه لأجل الليلة.

على الغداء، تناول الحساء وتحدث عن طبق يصنع من اللحم والكريمة البيضاء، وتحدث عن إيطاليا، حيث يخطط أن يصطحب (زاد) في الربيع.

ـ سيكون هذا رائعاً.

ـ أجل، سيكون هذا رائعاً.

نحى ملعقته جانباً فجأة:

ـ هل تنوين الذهاب للقاء بلدياتك في القاعة الملكية؟

نظرت (زاد) إليه في براءة:

ـ بالطبع، (هسه)، أنا متشوقة لذلك.

ضحك (هسه):

ـ بوسعي أن أتخيل هذا، فلسوف تتحدثون التركية طوال الليل، ولن أفهم أي كلمة وسأشعر بوحدة شديدة.

كان يتحدث إليها وعيناه تحدقان بخشوع في السقف:

ـ كنت أفكر... مثل تلك الحفلات الراقصة تكون ذات طابع رسمي. وإذا كنتِ تودين أن تلتقي التركيين فما نفعي أنا؟ وبالمناسبة، (كيرتس) سيكون هناك أيضاً. هل لديكِ مانع إذا... آه... أقصد إذا اصطحبنا (ماريون) معنا إلى الحفل؟ هذا إذا لم يكن لديكِ مانع فحسب.

كان يتحدث بسرعة، وهو يتفادى النظر إليها، ولم يدرك أنه وجهه قد احمر.

ـ بالطبع، (هسه). يالماريون المسكينة! لا تحظى بكثير من المرح. أجل، دعها تأتي مع (كيرتس).

رمقت (زاد) النافذة. ها هو ذا! نفير البوق إيذاناً ببدء القتال.

* * *

حل المساء. غمر الضياء الواجهة الهائلة لقصر هوفبرج، لتتألق تكويناته الحجرية الضخمة. ليطل بكل فخر واحتفالية على الميدان المتلألئ. الليلة ليلة احتفال. وكم من ليلة احتفال شهدها هذا القصر في الماضي! القصر الذي شهد تقرير مصير بلاد وشعوب وأقوام. هنا أقيمت ولائم، وحفلات استقبال، وجلسات سرية، وفي قاعات بمثل هذا الحجم الخرافي تألقت المجوهرات والديكورات والمصوغات الذهبية. يتوالى وصول العربات الفخيمة التي تجرها خيول مختالة، لتتوقف لدى البوابات، وتظهر منها سيدات تجسدن الأناقة، ويساعدهن على النزول من العربات سادة تميزهم تلك السترات البيضاء. الليلة، كما في الماضي، يحتشدون عند المدخل، وكل منهم يحاول أن يخطف لمحة من البهاء والبهجة في الداخل.

يتدفق الضيوف. ينسالون على الدرج إلى أرجاء القاعة. الخدم في زيهم التقليدي العتيق يقفون عند العتبات، وجوههم محايدة. يتجول سادة هذه المدينة في ردائهم الأبيض عبر أرجاء البهو الرخامي، والوجهاء في كامل فخامتهم، والسيدات تتبخترن في استعراض كامل لأحدث خطوط الموضة، والضباط القدامى في حللهم الرسمية الكاملة.

امتلأت قاعة الاحتفالات الكبرى بالراقصين على إيقاعات أجنبية مثيرة. تصدح الأصوات تلامس السقف والجدران الرخامية، لتمتزج مع الأجواء الموسيقية عالية الروح.

ثم تغيرت الموسيقى. الآن رقصة فيينا الأثيرة: الفالس. طغى صوت المهاميز الفضية، الذي كان نشازاً وسط الخطوات السريعة الرشيقة للرقصات السابقة، تماماً كما صارت أزياء

السيدات الزاهية تليق بالأسود والبيض الذي طغى على أزياء السادة. وفي الردهات الملكية، كان الخدم يولون اهتماماً بالطاولات الصغيرة التي جلس (هسه) و(زاد) إلى واحدة منها. عيناها ضيقتان، وهي تريد أن تشبع روحها بأكبر قدر من أجواء هذا القصر العتيق. بدت ظلال الماضي حاضرة، تحيط مثل قوس عظيم بالسقف الأبيض المذهب.

«الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، قالت لنفسها، وتذكرت عالماً تفكك إلى قسمين: عالم قيصر فينيسيا، وعالم الخلافة في اسطنبول. قال لها (هسه):

ـ لقد وصلنا مبكراً. لم يحضر أهل بلدك بعد، ولا (كيرتس). وربما كانوا يبحثون عنا.

نظر إلى عيني (زاد) في خجل، والتقط زجاجة الشامبانيا. قالت له في هدوء:

ـ سيعثرون علينا.

لا تزال تسمع صوت النفير، واقتراب الهجوم...

رفعت رأسها. وجدت (جون رولاند) و(سام دوث) يقفان عند المدخل. لوحت لهما، فأخذا طريقهما عبر القاعة الرخامية الحمراء، وسط الراقصين. صافح (جون) (هسه)، وبدا أن في حركاته شيء ما.

أخذا مجلسهما، وصب (هسه) كأسان. جلس (جون) ساكتاً، يحدق في وجه (هسه)، بعينين محايدتين باردتين. قال (هسه):

ـ حدثتني زوجتي عنكما. وإني لسعيد بلقائكما. وواضح من المهنة والاسم أن كلاً منكما قد تخلص من ماضيه الآسيوي وصار جزءاً من الثقافة الغربية. ولكن زوجتي وحتى اليوم تفضل الجلوس إلى الأرض، وتأكل وهي على الأرض.

ضحك (هسه). وتأمل (جون). قبل أن يقرر أن يتدخل:

ـ إني أفهم قصدك. تقصد أن من يجلسون إلى الأرض، ويأكلون وهم على الأرض، لا يمكن أن تكن لهم ثقافتهم الخاصة. غير أن الأرض مستقر الإنسان، ولا يمكنه أن ينفصل عنها. الإنسان أصله من هذه الأرض ولا يمكنه أن ينكر ويترفع عن هذا. بل على العكس من ذلك: ينبغي أن تكون حفنة التراب التي منها خلق جزءاً من حياته وروحه. يشعر الآسيوي بتوحده مع الأرض ويسعد بأن يتواضع لأصله. إنها أشبه بنبع أبدي غامض يخرج من الأرض ليثري البشرية. لهذا نصلي بالجلوس إلى الأرض وتلامس جباهنا تراب الأرض التي إليها نعود.

صمت (جون). في الخلفية صوت موسيقى الفرقة الإنجليزية. يرمق (سام) (زاد) من خلف كأس الشامبانيا. تجلس هادئة، ونظراتها تتردد ما بين (جون) و(هسه).

بدأ الهجوم بكل قوة وبأس.

قال (هسه):

ـ أجل. سمعت عن تلك الصلوات التي تقام في المساجد ذات القباب. ولكن حتى لو كان أصل الإنسان هو التراب، إلا أن طموحه يقوده إلى عنان السماء. ولأجل هذا الطموح،

تخلص الإنسان من طباعه الحيوانية. ويتجسد هذا السعي في القباب ذات الطراز القوطي. إنها أنبل من جميع مساجد الأرض قاطبةً، ذات القباب البدائية القحة».

أومأ (جون) برأسه. عيناه على (زاد)، وعلى شفتها العلوية الصغيرة، وعيونها، الرمادية... مثل الرماد.

- المسجد تجسيد من الحجر لروح آسيا. كثير من العيون الأجنبية أعجبت بمنظر مساجدنا، ولكن لا يتسنى لغير المؤمن أن يفهم ما ترمز إليه: رمزية القباب والتخطيط المكعب للبناء، والزوايا الكثيرة، والمآذن؛ فالمأذنة ترمز للهب النار. بيوت الله في جميع أصقاع الأرض تتألف من تلك الأجزاء الأربعة، ومعناها واحد في كل مكان: روح الإنسان التي تتخذ شكلها الدنيوي من خلال وساطتها بين عالمين، يندمجان في بعضهما البعض إلى الأبد، ليكونا معاً أساس مشيئة الله وإرادة الفداء.

«أنت محق في أن تلك الخطوط المستقيمة والحركات القوية التي تميز الطراز القوطي غائبة عن معمار مساجدنا. حيث يستند الثقل المعماري إلى مسطح رحب ممتد، يتشكل بنفس تصميم البناء الذي يغطيه ويوحده».

ولكن (هسه) هز رأسه بعنف وهو يقول:

- ما يفتقر إليه المسجد هو ذاك التصميم الذي يبهج القلب، وهو الأمر نفسه في لوحاتكم المصورة والتي يغيب عنها تصوير الكائنات الحية. عالم تعس هو ذاك الذي يخلو من الصور.

أومأ (جون) في أدب وهو يرشف من كأس الشامبانيا:

ـ صحيح. هم الشرق هو العالم الآخر، بينما أوروبا يعنيها العالم المادي المرئي. لذلك تحتاج أوروبا إلى ذلك التجسيد الطبائعي للكائنات الحية. بينما يحاول الفن الآسيوي التعبير عن مثل وأفكار من خلال الرموز المباشرة، حتى يغلف الأفكار الأفلاطونية من دون تعقيدات تصوير البشر أو الحيوان، وبالتالي تخلى عن تمثيل الكائنات الحية ـ الانتقالية.

نظر (هسه) إلى (جون) في دهشة:

ـ أنا لا أوافق على هذا الرأي. ولذلك أعيش في فيينا. ولو كنت أوافق على هذا التفكير لرحت للعيش في سراييفو. لابد أن تكون حياة المرء الإجتماعية متناغمة مع معتقداته الداخلية. أنا أعيش حياة أوروبية، وأنفض يدي عن الشرق. ولكن أنت. . . أنت كاتب سيناريو تعيش في نيويورك، ومع هذا تحمل آسيا في روحك. فكيف يمكنك أن تسد تلك الفجوة؟

نبرة كلام (هسه) بطيئة فيها سخرية. وكم هو سهل أن يقسو المرء على آسيا بينما هو يعيش في أمريكا. تململ (سام) في مقعده. هو أكثر شخص يعرف الكيفية التي سد بها (جون) تلك الفجوة.

ولكن (جون) ابتسم في خبث:

ـ الوطن. ذلك هو الجسر. طالما كان لديك وطن فلن يكون هناك أي تناقض بين الكينونة الخارجية والوعي الداخلي. كان تفكيري مختلفاً في السابق. ولكنني تهت في عالم المرئيات. فليس الوطن هو الحمام الذي تستخدمه كل يوم، وليس المقهى الذي تقصده كل نهار. الوطن. . . هو بنية الروح،

التي تشكلها أرض الوطن. الوطن موجود دوماً، ودوماً في القلب. ويبقى الإنسان طوال حياته في وسط دائرة الوطن السحرية، مهما راح ومهما ذهب. فالإنجليزي يصل حتى أدغال أفريقيا، ولكن خيمته التي ينام فيها هي إنجلترا. والتركي يسافر إلى نيويورك، ولكن غرفته التي في مانهاتن قطعة من تركيا. ولن يكون لديك وطن أو روح طالما أنك لم تحظ بهما من قبل.

لم يمكن لهسه أن يتجاهل هذه اللطمة.

وفي تلك اللحظة، حضر (كيرتس) بصحبة (ماريون).

ـ ها أنتما! ونحن الذين بقينا نبحث عنكما قرابة ساعة.

كانت (ماريون) تتحدث بنبرة ناعمة منغومة كعادتها، قبل أن تصمت فجأة، وبقي فمها الجميل مفتوحاً، لحظة أن وقعت عيناها عليه، فخافت. لقد رأت أمامها (جون رولاند). قالت ببطء وتردد:

ـ أوه... أوه... أعتقد أن...

ولكنها سكتت. كانت تتوقع من مخبول مثله ـ كما تعتقد ـ أن ينهض من فوره ليأمرها بأن ترقص له، مثل أي راقصة شرقية. ولكن (جون) بقي صامتاً. بل نهض وانحنى لها في احترام، لأنه بدوره تذكر ذلك الموقف في سيمرنج، فهو لم ينسه بعد. جلس (كيرتس) و(ماريون)، والأخيرة ترمق (جون) في حيرة.

بادر (هسه) بمهمة التعريف:

ـ معارف (زاد)، من بلادها. والسيد (رولاند) كاتب سيناريو سينمائي معروف.

أومأ الدكتور (كيرتس) محيياً. أجل، تلك أمور تحدث. شخصية مزدوجة نموذجية. مثله لا بد من أن يلزم مصحة. في البداية زعم أنه أمير، والآن يزعم أنه كاتب سيناريو. حالة «كاسوس جرافيسيموس». ومتأخرة.

يرمق (كيرتس) صديقه (هسه) بين فينة وأخرى. طبيعي - فطبيب أنف وأذن ساذج مثله لا يمكنه أن ينتبه من فوره إلى أن الرجل الجالس أمامه معتوه. وكذلك هذا التكوين المميز لجمجمته، فكر (كيرتس)، وهو يشير خلسة إلى (سام)، لا بد أن هذا الأخير هو ممرضه. ولكن الممرض لم يفهم معنى إشارته.

نهض (جون) من دون مقدمات. وارتعدت (ماريون) خائفة. ولكن لم يحدث أي شيء مخيف، سوى أن (جون) انحنى بشكل رسمي أمام (زاد)، وهو يطلب منها أن تراقصه، فقامت (زاد) ومشت خلفه.

واضح أنها ليست بالذكاء الكافي الذي يمنعها من أن تراقص شخصاً هرب للتو من مستشفى المجانين. ولما غاب الإثنان وسط الزحام، تنحنح (كيرتس) ومال على (سام):

ـ هل صارت صحة السيد أفضل الآن؟

نظر (سام) إليه في غضب:

ـ أفضل كثيراً، وسرعان ما سيتعافى تماماً.

قالها وكأنها نبوءة. وشعرت (ماريون) بالحاجة إلى من يحميها من وجود هذين الطبيبين. همست لهسه:

ـ إنه معتوه يهذي. أعرفه من قبل. لقد هاجمني ذات مرة. كيف سمحت لزاد بأن ترقص معه؟

نظر (هسه) إليها في ذهول:

ـ معتوه؟

هنا تدخل (سام) بكل حماس:

ـ لا . . . لا . . . إنه بخير. ولكن لا تتسببا في مضايقته، وعندئذ سيجري كل شيء على ما يرام. هو عصبي بعض الشيء.

نهض (هسه) وهو يقول في قلق:

ـ سأعود بعد قليل.

اتخذ طريقه عبر القاعة. ها هو ذا (جون رولاند)، واقفاً وجسده يميل إلى الأمام قليلاً، وملامح وجهه متوترة، وذراعه يحيط بخصر (زاد)، التي أغلقت عينيها وكأنها نعسانة.

* * *

ـ هل صارت داري جاهزة، هانم؟

ـ توشك أن تكون. بقي حجر واحد.

ـ ومن سيعيش فيها؟

ـ نحن الإثنان.

ـ والوطن؟

ـ سيبقى بداخلنا دوماً.

تطلعت إليه. كان يبتسم لها ـ لأول مرة منذ أن عرفته.

* * *

هيمنت همسات عصبية بين (كيرتس) و(سام) على تلك الطاولة في القاعة الحمراء:

ـ كيف تجرؤ على اصطحاب مجنون إلى هذه الحفلة؟

ـ لا يمكنني أن أجيب على هذا السؤال، فكل كلمة لها أتعابها.

كان وجه (سام) محايداً، ولكنه شعر بغضب شديد. (جون) معتوه بالفعل. فإما أن يورط نفسه الآن أو أن يعترف بكونه قد خطط لاختطاف سيدة متزوجة. جرع (سام) كأس الشامبانيا وهو يحافظ على تعبيرات وجهه التي لا تشي بأي شيء.

يتحدث (كيرتس) مع (ماريون) بحماس ولكن بصوت خفيض. ولكنهما يسكتان بغتة. (جون رولاند) واقف عند الطاولة. انحنى (جون) لماريون:

ـ الدكتور (هسه) يرقص مع زوجته. فهل تسمحين . . .؟

ـ أنا . . . أشكرك. أنا لا أرقص.

جلس (جون) وضحك بصفاء لم يعهده (سام) فيه من قبل.

ـ يجب علي أن أعتذر. تظنين أني مجنون. لقد أدركت أنني تصرفت بغرابة شديدة في ذلك اليوم في سيمرنج.

همس (كيرتس) لماريون:

ـ حالة نموذجية. . . ولكنها غير ضارة.

أومأت (ماريون) متفهمة، بينما طلب (جون) شامبانيا. عاد (هسه) بصحبة (زاد). عيناها لا تزالان غائبتين ـ ربما كانت هذه هي آخر مرة ترقص فيها مع (هسه) في حياتها.

رمقت زهرات الأوركيد على كتفها. شعرت فجأة بأنها ثقيلة مثل أحجار تضغط على جسدها. سحبت زهرة منها في هدوء ومنحتها لماريون.

ـ لأجلك.

مالت عليها ووضعتها فوق صدر (ماريون).

شكرتها (ماريون)، وهمست:

ـ (زاد)، انتبهي لهذا التركي. إنه ليس على ما يرام. مجنون. يهاجم النساء.

نظرت (زاد) إلى (هسه)، الذي قبلها ذات يوم في سيارته، وإلى (كيرتس)، الذي ليس بمجنون ولا عذر له حتى يتحرش بالنساء. وضحكت.

ـ أعلم. . . إنه مجنون، ولكن ليس لكونه يهاجم النساء. بل العكس، فهو يجيد الدفاع عنهن.

باغت كلامها (ماريون)، بينما نهض (كيرتس) من مقعده. إنه ينال كفايته من المجانين طوال النهار. وعليه أن ينأى بنفسه ليلاً بعيداً عنهم.

ـ لقد تأخر الوقت. هلا انصرفنا؟

أومأ (هسه) موافقاً. مشوا جميعاً عبر القاعات، وهبطوا السلم، وهناك عند موقف السيارات المعتم، كانت سيارة (هسه) الصغيرة، والليموزين الذي استأجره (جون). قال (هسه):

ـ سوف نوصلك إلى المنزل، (كيرتس)، و(ماريون) بالطبع.

خلع قبعته مودعاً بلديات (زاد)، وبدوره حياهما (جون) بأدب بالغ، وهو يقف وسط الثلج يصافح (هسه).

فجأة، صاحت (زاد) بكلمات أجنبية، فهمها الأمير على الفور..

ـ سموك، هذا الرجل استدرجني إلى منزله وحاول أن يغتصبني بينما كان زوجي في الغرفة المجاورة!

سقطت القبعة من يد (جون). وتوتر جسده واشتعل وجهه غضباً. تحولت عيناه إلى جمرتين، في جسد حيوان شرس: واختلجت شفتاه. وسدد لكمة ساحقة لوجه (كيرتس). ولكمة أخرى أقوى. وأخرى وأخرى. لكمات سريعة متتالية، حولت وجه (كيرتس) إلى كتلة من لحم ودم. بدا (جون) في ضوء القمر البارد أشبه بذئب سهلاوي مفترس، خرج لينتقم.

«النجدة!»

صاح (كيرتس) بكل ما تبقى لديه من قوة. وانقض (هسه) على (جون)، بينما حاول (سام) أن يفصل بينهما. هرع شرطيان إلى المكان. وتملص (جون) من (هسه)، وبقفزة واحدة كان داخل سيارته، ولحق به (سام). رقد (كيرتس) خائراً وسط الثلج، وقد امتزج الألم بالغضب في ما تبقى من ملامح وجهه المهشم. كان يصيح وهو يلهث:

ـ مجنون... معتوه. ألم أقل لكم؟ لا بد من أن يودع مستشفى المجانين!

وقفت (زاد) جانباً، وقد غاصت قدماها في الثلج. صامتة، تبتسم في هدوء وجذل.

لقد وضعت للتو آخر حجر... في بناء دارها الجديدة.

الفصل الثامن والعشرون

بسم الله الرحمٰن الرحيم

معالي الشريف المبجل... الأب العزيز... أحمد باشا...

كم هو كبير هذا العالم، وكم هي واسعة تلك الأراضي التي تفصل بيني وبينك. ولكن ما الزمان والمكان أمام عرش الله العلي القدير؟ ليسا سوى ورقة، وطابع بريد، ومظروف ـ ولما كان الزمان والمكان موصولين، فإنك الآن تقرأ أفكار ابنتك، المتعلقة بك وبكل مهابة وإجلال. اعلم ـ أبي العزيز ـ أن أحداثاً ذات بال قد وقعت في فيينا، تيقنت معها من عظمة معجزات الله. واعلم أنه من قبل أن يختارني سيدي وتاج رأسي زوجة له، فإنه كان متزوجاً من أمة جميلة اسمها (ماريون). غير أنها رحلت عنه بعد أن وقعت في إثم الخطيئة، وعاشت في بلدة اسمها سالزبرج، حيث قضت أيامها كما يحلو لها بين أحضان عشيقها.

ومن رحمة ربي الرحيم بزوجي ـ السيد الدكتور (ألكسندر هسه)، رعاه الله ـ أنه أرسلني إليه لأكون زوجة وأمة وسكناً دنيوياً يلجأ إليه. وعشت معه، وقمت على خدمته، أبي العزيز،

على النحو الذي ربيتني عليه، وكما يليق بسيدة تعرف واجبها تجاه زوجها.

كنت له متعةً وبهجة، وكانت عيناه تتبسمان ما أن تراني.

غير أن لله حكمته وتدابيره!

هو العزيز الجبار، وما نحن البشر الفانين إلا أدوات بين أصابع رحمته وعنايته.

هناك جبل بالقرب من فيينا اسمه سميرنج. وفوق ذاك الجبل شيدت أيدي البشر ـ بعون من الله ـ منتجعاً للاستجمام. وقد زرته مرة. ولكنني لم أجد أي استجمام في ذلك المنتجع، فهناك التقيت (ماريون)، أمة سيدي المارقة. وامتلأت نفسي غضباً. فغادرت المكان، حيث لا يليق بابنة باشا أن تكون تحت سقف واحد مع ساقطة وخائنة.

وأراد الله أن يعاقبني على تكبري، فأخضعني لتجارب قاسية مريرة، واحدة تلو الأخرى.

اعلم، والدي العزيز، أن من بين تلك التجارب المريرة أن يقدّر لي لقاء الرجل الذي كان من المفترض أن ارتبط به، والذي لأجله تعلمت الصلوات العربية والأشعار الفارسية. غير أن هذه التجربة كانت الأشد قسوة، لأن (جون رولاند) أيقظ ما كان في داخلي من عشق وأظهر ما في قلبي من أفكار آثمة، برغم ارتباطي بزوجي، الذي كان يتحرق شوقاً إلي وهو ينتظرني في منزلنا.

ولكن رعاية الله حمتني من الوقوع في الخطيئة، ولم أخطو

خطوة واحدة في درب ذلك العار .الله عدل، فحظيت (ماريون) بنصيبها العادل من سخطه، وهي التي استحقت عذاب النار. فقد عرفت أن الرجل الذي وقعت معه في شرك الإثم قد هجرها، وأنها أضحت وحيدة منبوذة، برغم جمالها الطاغي، وحنكتها في فنون العشق والحياة.

هكذا، تمسكت بسيدي وتاج رأسي، ولكني بقيت متيقظة ومتنبهة لكل ما يجري حولي.

والدي العزيز، تلك الحياة التي يعيشها هؤلاء الكفار تليق بهم. ولكنها لا تليق أبداً بسيدة من اسطنبول. هناك الكثير من الرجال في حياتهم هذه، وقليلون هم الأطفال، بينما تجري الأمور على عكس ذلك في بلادنا: قليل من الرجال، وكثير من الأطفال. ولكن الرجال هنا أطفال، ولم يتسنى لي أن أعرف على أي نحو يكون أطفالهم، فلم ألتق أي طفل هنا.

وقد تتعجب يا والدي العزيز لو عرفت أن هناك غريب تجرأ فقبلني بالقوة، ولما شكوت لزوجي وجدته يضحك ولم يحرك ساكناً، برغم طيبته ورجولته الكاملة. كم هي غريبة عاداتهم!

بيد أن تدابير ومكر الله أشد من مكر البشر! وجدت ذلك في سخطه الذي أصاب الساقطة (ماريون)، ووجدته في رحمته التي حفظني بها. وكنت أنا سبباً استخدمه عز وجل، وما أشد عجبي وأنا أجد أنه قدّر في الوقت ذاته أن تكون (ماريون) هي الأداة التي استخدمها حتى يمكنني من الفكاك من عالم الكفر إلى مضارب السكينة وراحة البال.

استخدم العلي القدير كلتينا. وبينما كنت في غاية اليقظة

والانتباه، كانت (ماريون) في غياهب الغفلة والجهل، حتى أنها وإلى يومنا هذا لا تعرف أي شيء عما كان يعتمل في عقلي وقلبي. وكان في ذلك خير لي، سيدي الباشا، حيث أيقنت من الفارق بين أميرة تركية مخلصة لزوجها، وآثمة خانته ورحلت عنه.

ومرت الأيام... إلى أن كان يوم جلست فيه إلى نفس الطاولة التي جلست (ماريون) إليها، ونظرت في عينيها، وسبرت أغوار قلبها. ومرت ليالٍ... رقدت خلالها في نفس الفراش الذي يرقد فيه زوجي، ونظرت في عينيه، وسبرت أغوار قلبه. ولكنها أيام وليال أمضاها (جون رولاند) وسط الصحارى، وأناب خلالها إلى الله عز وجل، وحاولت أنا ألا أفكر فيه، ولكني وجدتني أفكر فيه حتى في لحظات نسيانه.

ولكن، كلا، أبي العزيز! ما كان لي أن أتبع خطى (جون) إلا بعد أن أوقن من أن حياة سيدي وتاج رأسي الدكتور (ألكسندر هسه) ـ رعاه الله ـ بين أيدٍ أمينة.

الآن أضحت يدا (ماريون) أمينة، وأنا على يقين من أنها ستكون زوجة مخلصة له، تعيش معه أمة شكورة لما أسداه عليها سيدها من رحمة وإحسان.

تضيع مني الكلمات، والدي الكريم، ولا ادري كيف أقص عليك ما جرى في فيينا، وكيف تلاعبت الحياة بنا نحن البشر.

جرى ما جرى في قصر ملكي عتيق. كانت قاعاته مضاءة في بهاء احتفالي، وكان ضيوفه يرقصون. أزياء عديدة، مختلفة ومتنوعة، تتحرك بين جدران رخامية، تتناثر فوقها المرايا

واللوحات، وأدركت أن ملوك هذه البلاد يعيشون حياة مغايرة تماماً عن حياة السلاطين الذين عاشوا في قصر عشق سراي.

جمعتنا طاولة واحدة. ولم يكن أحد من الجالسين مطلع على الأسرار التي تحوم حول تلك الطاولة سواي، حتى خيل إلي أني أسمع نفير الحرب ودقات طبولها.

بعدها، جمعتنا أرض الشارع التي غطتها الثلوج، لحظة أن أيقنت من أن (جون) هو الجدير بحب أميرة من اسطنبول. فقد أمطر وجه الدكتور (كيرتس) باللكمات. أنت لا تعرفه، أبتاه، ولكن صدقني عندما أؤكد لك أنه الخبث والشر بعينه! أهال له اللكمات مثل ذئب بري يطارد فريسته ليلاً. وفجأة، لم نجده بيننا، وأخذنا نحن (كيرتس) إلى منزله، وكانوا جميعاً غاضبين مني، ومن عاداتي، ومن صديقي. عدنا للمنزل، وتحدث إلي سيدي وتاج رأسي بكلمات مريرة. نعتني بالهمجية التي أحرجته وسببت له العديد من المشاكل. بقيت راقدة في الفراش والتزمت الصمت، فهو بدوره أوقعني في عديد من المشكلات، حتى ولو لم ينتبه إلى ذلك، ولم يكن ليصبح في هذه الحياة السعيدة المبهجة لولا هذه الهمجية التي أضحت زوجته. لذلك التزمت الصمت؛ فالحكيم لا يحتاج الثناء.

وطلع علينا نهار غاية في الإثارة، باشا. ففي بدايته حضرت (ماريون)، وارتدت المعطف الأبيض لتساعد زوجي خلال علاجه لمرضاه. وحضر المرضى، وعالجهم (هسه). وبقيت أنا في الغرفة المجاورة، وخيل إلي من جديد أني أسمع نفير الحرب وهدير الهجوم.

وانصرف المرضى، ولكن (ماريون) لم تنصرف،٠ وبقت في غرفة الآلام تلك، وبقي معها زوجي.

ساد الهدوء، قبل أن أسمع سيدي وتاج رأسي وهو يشتكي إليها مني، ومن أني همجية جاهلة بأعراف العالم الغربي. وتحدثت (ماريون) بدورها، برقة بالغة، وصوت خفيض ليصعب علي الإنصات إلى ما تقول، أبي العزيز!

خيم السكون على الشقة. ولكن نبضات قلبي، يا باشا، صاخبة، أنا الفتاة التي لم تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها، ولم تخبر بعد مكر الحياة.

غير أني ورثت عنك، يا سيدي وأبي، رجاحة العقل، وهو ميراث سأبقى ممتنة له ما حييت. فقد اقتربت في خفة من باب الغرفة وأصغيت. لم أسمع الكثير، ولكن ما سمعته كان يكفيني.

وفتحت الباب. فوجدت (ماريون) تجلس إلى الكرسي الخاص بالمرضى، ورأسها يستند إلى مسنده الجلدي الناعم. الضوء ساقط على وجهها، فكنت أرى ملامحها في وضوح. جميلة هي جداً، ومتألقة. و(هسه) واقف إلى جوارها، ورأسها بين يديه. يغمر شفتيها، وعينيها، وجنتيها، وأنفها بالقبلات. . . .

هذا ما رأيت، أبي، ورأيت أن ألتزم الهدوء، رغم أن قلبي عصاني. قد يتحلى المرء بعقل راجح، وقلب مجنون.

دلفت إلى الغرفة وأغلقت الباب. وطبيعي أن يتلبسهما الخوف الشديد. أشاح سيدي وتاج رأسي المسكين بوجهه بعيداً، يتفادى النظر إلي، وفزعت (ماريون) من الكرسي،

وأخذت تهندم شعرها. ووقفت في مكاني أحدجهما بنظراتي، واحترت... هل أضحك... أم أبكي. بكيت قليلاً، فأنا برغم كل شيء امرأة لم تخبر الحياة بعد.

ولكن لما اقترب (هسه) مني يحاول أن يهدئني، مسحت دموعي ورفعت رأسي. قلت له شيئاً لا أتذكر الآن فحواه. فنظرا إلي بكل دهشة الدنيا. عندئذ ضحكت، ومعي ضحكت (ماريون)؛ وحده (هسه) لم يضحك، فهو رجل ضميره حي. ولكني داعبت شعره وتحدثت إليه، فتضاءل ضميره... أكثر وأكثر.

تلك، أبي العزيز، هي تفاصيل ما جرى، وخبر ما قدّره الله بحكمته عز وجل، ولم أعد أدري من منا كان هو سبباً في وقوع أقدار الله. ولكني أرى أن جميعنا كنا ذاك السبب.

وبعد أن ارتضيت مصير (هسه) وارتحت إليه، رحت إلى (جون رولاند). ها هو ذا جالس إلى جواري، وابتسامة فوق شفتيه، يردد كلمات الحديث الشريف، الذي يقول بأن كنز الرجل زوجة صالحة.

صدقني، أبي العزيز، لقد كنت وسأبقى امرأة صالحة. وحدها الحمقاء هي التي ترتضي السير في درب السقوط والخطيئة، ولكن الحصيفة هي التي تعتبر وتعرف كيف تترفع عن الآثام حتى لا تضر نفسها وغيرها. والمرأة بيدها أمور وأمور: السعادة والتعاسة، الحياة والموت. وعلى المرأة أن تتحلى بالحكمة التي تساعدها في التمرس على السير فوق صراط الفضيلة الرفيع، حتى تواجه العالم بهدوء وجرأة من لم يتعلق برقبته أي عار يُخجِله.

والدي العزيز. . . الآن أسافر مع (جون) إلى البلاد البعيدة عند الضفة الأخرى من المحيط. ولكن وطننا مسافر معنا، لأننا نحمله بين ضلوعنا، في قلوبنا، وبين أعيننا، وفي فكرنا، ونزرعه في أطفالنا، الذين سيرون نور الحياة بمشيئة الله في نيويورك. ومعنا رجل بدين اسمه (بيريكلس). عائلته من فانار. مخضرم حنكته الحياة. وهكذا يتخذ كل منا طريقه، أبي العزيز؛ عاد (هسه) إلى (ماريون)، وصرت أنا إلى (جون)، ويصاحبنا (بيريكلس)، وفي أحشائي بشرى طفل، ولا يزال الوقت مبكراً على بدء ركلات قدمه داخل رحمي.

وأنت بدورك، عزيزي، ستكون في طريقك إلى بريمن، حيث سنلتقي جميعاً لنذهب سوياً إلى تلك البلاد في نهاية العالم. فقد رأى (جون) أن دار الأمير العثماني لا تكتمل إلا حينما يعيش تحت سقفها الباشا. وهو محق. يجب عليك أن تعيش معنا، حتى تعلم أولادنا الإيمان والفضيلة، وحتى لا ينسوا أبداً أن أصل أجدادهم هناك في مرتفعات توران، ولكنهم خرجوا منها ليحكموا ثلاث قارات.

وصلت الان إلى ختام رسالتي، أحمد باشا. ودعت (هسه) و(ماريون) ووجدت السعادة في عيونهما. وعلي الآن أن أقصد مقهى رينج لمرة أخيرة. وهناك سوف أشرب قدح قهوة وأتأمل الدهشة على وجوه هؤلاء الأطباء، الذين أنعم الله عليهم بحكمة الحياة والموت، ولكنهم ما زالوا أطفالاً يحبون في عالم المشاعر والأحاسيس.

أعلم أن ليس من شيم الكرام السخرية من الناس. ولكن رواد المقهى الكبير كثيراً ما سخروا مني، وأنا مجرد فتاة في

الحادية والعشرين من عمرها وأود أن أتسلى وابتهج قليلاً قبل أن أرحل عنهم. لذلك سأقصد المقهى وأصافحهم، وأتأمل الدهشة في عيون خابت آمالها. كانوا يتمنون أن يشمتوا في دموعي، ولكنهم سيغتاظون الآن من ابتساماتي.

كم هي عظيمة معجزات الله، سيدي الباشا، وتستغلق على عقول البشر حكمة تصاريف أقداره. سنكون في انتظارك في بريمن، لنرحل سوياً، وعلى وجوهنا الابتسامة، ونسير معاً عبر ذلك الدرب الذي قدّر الله لكل بني آدم المضي قدماً فيه، والذي يسافره الأحمق ملتاعاً جباناً، ويقطعه الشجاع المقدام بكل فخر وكبرياء. . .

. . . بينما يتسلى خلاله الحكيم بالابتسامة.

ابنتك المخلصة

زاد رولاند

تمت بحمد الله